

NEW YORK TIMES & USA TODAY BESTSELLER

#1 INTERNATIONAL BESTSELLER

أكثر الكتب مبيعاً على لائحة جريدتي
USA Today و New York Times
الكتاب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم أجمع

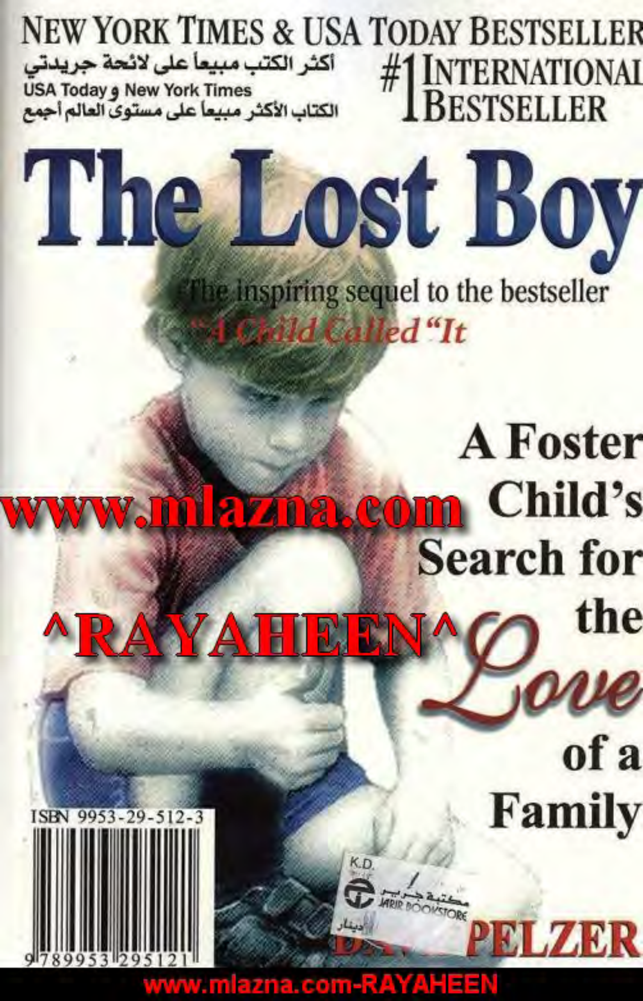
الولد التائه

القصة المكمّلة للقصة التي لاقت رواجاً شديداً

ولد اسمه «هو»

ولد مشرَّد يبحث عن الحنان في كنف أسرة

دايف بيلزر


NEW YORK TIMES & USA TODAY BESTSELLER
أكثر الكتب مبيعاً على لائحة جريدتي
USA Today و New York Times
الكتاب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم أجمع
#1 INTERNATIONAL BESTSELLER
The Lost Boy
The inspiring sequel to the bestseller
"A Child Called "It
A Foster Child's Search for the Love of a Family
ISBN 9953-29-512-3
9789953295121
K.D.
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
دينار
PELZER

بسم الله الرحمن الرحيم

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الانكليزي

The Lost Boy

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Health Communications, Inc.

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

أكثر الكتب مبيعاً على لائحة جريدتي NewYork Times و USA Today

الكتاب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم أجمع

الولد التائه

The Lost Boy

تأليف

دايف بلزر

ترجمة

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم

Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى

1422 هـ ـ 2002 م

ISBN 9953-29-512-3



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الريم
هاتف: 786233 - 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
فاكس: 786230 (1-961) ص.ب: 13-5574 بيروت – لبنان
البريد الالكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

المحتويات

الفصل

1

الهروب

شتاء 1970، مدينة دالي، كاليفورنيا- أنا وحيد. أشعر بالجوع وأرتعش في الظلام. أجلس على متن يديّ في أسفل سلّم الكاراج. يميل رأسي إلى الخلف. فقدت يداي الحسّ قبل ساعات عدّة. وبدأت عضلات عنقي وكتفي بالخفقان. لكن ما من شيء جديد في ذلك- فقد تعلمت التغلب على الألم.

أنا سجين أمي.

عمري تسع سنوات، وأعيش على هذا النحو منذ سنوات. يتكرر الشيء نفسه كل يوم. أستيقظ من النوم على سرير نقال قديم في الكاراج، وأنجز الأعمال الروتينية الصباحية. وإذا كنت محظوظاً، أتناول بقايا حبوب الفطور التي تركها إخوتي. أركض إلى المدرسة، أسرق الطعام، أعود إلى "المنزل" وأجبر على التقيؤ في المرحاض لأثبت أني لم أقترف جريمة سرقة الطعام.

أتلقى الضرب أو أمارس لعبة أخرى من "ألعابها". أنجز واجبات بعد الظهر، ثم أجلس في أسفل السلم إلى أن يُطلب مني إنجاز الأعمال المسائية. وإذا أنهيت كل واجباتي في الوقت المحدد، ولم أرتكب أية "جرائم"، قد أحصل على كسرة طعام.

ينتهي يومي حين تسمح لي أمي بالنوم على السرير النقال، حيث يلتف جسمي حول نفسه في محاولة يائسة لاحتباس حرارة جسمي.

والواقع أن المتعة الوحيدة في حياتي هي النوم. إنه الوقت الوحيد الذي أستطيع خلاله الهروب من حياتي. أحب أن أحلم.

تكون عطلات نهاية الأسبوع أكثر سوءاً. لا مدرسة يعني لا طعام والمزيد من الوقت في "المنزل". وكل ما أستطيع فعله هو محاولة تخيل نفسي بعيداً عن المنزل- في مكان ما، في أي مكان. فطوال سنوات عدّة، كنت المنبوذ في "العائلة". وأذكر أني واجهت المشاكل على الدوام و"استحقيت" العقاب دوماً. في البداية، كنت أظن أني ولد سيء. ثم اعتقدت أن أمي مريضة لأنها كانت تتصرف بطريقة مختلفة فقط عند وجود إخوتي خارج المنزل ووالدي في العمل. لكنني عرفت طبيعة أمي نوعاً ما وكانت لي علاقة خاصة معها. أدركت أيضاً أني كنت لسبب ما الهدف الوحيد أمام أمي لتصبّ عليه غضبها غير المبرر وسلوكها المنحرف.

أنا لا أملك منزلاً. أنا فرد من عائلة لا أحد. وأعرف في قرارة نفسي أني لا أستحق الآن، ولن أستحق أبداً في المستقبل، أي حب أو انتباه أو حتى الاعتراف بوجودي ككائن حيّ. أنا ولد اسمه "هو".

أنا وحيد.

تبدأ المعركة في أعلى السلم. وبما أنها الساعة الرابعة بعد الظهر، أعرف أني والديّ ثملان. يبدأ الصراخ. أسمع الشتائم في البداية، ومن ثم الصراخ. أعدّ الثواني قبل أن يتحول الموضوع نحوي- لأن هذه هي الحال على الدوام. بات صوت أمي يجعلني أرتعش من الداخل. "ما الذي تعنيه"؟ تصرخ في وجه أبي، ستيفن. "تظن أني أعامل الولد بطريقة سيئة؟ هل تظن ذلك؟". يتخذ صوتها

نبرة جليدية باردة. أتخيلها وهي تؤشر بإصبعها نحو وجه والدي. "أنت... أصغِ إليّ... أنت... لا تملك أية فكرة عنه. إذا كنت تظن أني أعامله بهذا السوء... يستطيع إذاً... العيش في مكان آخر".

أستطيع تخيل أبي- الذي بعد كل هذه السنوات ما زال يحاول نوعاً ما الدفاع عني- وهو يحرّك الشراب في كأسه ويجعل مكعبات الثلج تتلاطم. "إهدأي الآن"، يقول لها. "كل ما أحاول قوله هو... حسناً... ما من ولد يستحق مثل هذه المعاملة. يإلهي يا رويرفا، أنت تعاملين... الكلاب أفضل من... الولد".

يصل النقاش إلى ذروته في الصراخ. تضع أمي كأسها على رف المطبخ. لقد تجاوز أبي حدوده. لا أحد يستطيع إخبار أمي بما يجدر بها القيام به. أعرف أني سأدفع ثمن غضبها. أدرك أنها مجرد مسألة وقت قبل أن تأمرني للصعود إلى الأعلى. أحضّر نفسي. أسحب يديّ ببطء شديد من تحت مؤخرتي، ولكن ليس كثيراً- لأني أعرف أنها تتحقق من ذلك في بعض الأحيان. أعرف أني لا أستطيع أبداً تغيير أية عضلة من دون إذنها.

أشعر أني حقير جداً في داخلي. أتمنى فقط لو أني أستطيع...

من دون إنذار، تفتح أمي الباب المؤدي إلى الكاراج السفلي. "أنت!"، تصرخ بأعلى صوتها. "إصعد إلى هنا! الآن!".

صعدت السلم بلمح البصر. انتظرت لحظة ثم فتحت الباب بخجل. اقتربت من أمي من دون إصدار أي صوت وانتظرت إحدى "ألعابها".

إنها لعبة العنوان، حيث يجدر بي الوقوف مباشرة أمامها على

مسافة ثلاثة أقدام، ولصق يديّ بجانبيّ، وحني رأسي إلى الأسفل في زاوية من 45 درجة، والنظر مباشرة إلى قدميها. وعند صدور أول أمر، يجدر بي النظر فوق صدرها، وإنما تحت عينيها. وعند صدور الأمر الثاني، عليّ النظر مباشرة إلى عينيها، ولكن من دون التحدث أو التنفس أو تحريك عضلة واحدة إلا إذا أذنت لي أمي بذلك. ألعب هذه اللعبة مع أمي منذ كنت في السابعة من عمري، وباتت اليوم مجرد روتين في حياتي.

فجأة، تقترب مني أمي وتمسك بأذني اليمنى. أجفل عن غير قصد. تستعمل أمي يدها الطليقة لتعاقب حركتي بصفعة قوية على وجهي. تصبح يدها غير واضحة إلى أن ترتطم بوجهي. لا أستطيع الرؤية جيداً من دون نظاراتي. وبما أنه لا مدرسة اليوم، لا أملك الإذن لاستعمالها. تحترق بشرتي نتيجة الصفعة من يدها. "من طلب منك التحرك؟"، صرخت أمي في وجهي. أبقي عينيّ مفتوحتين، محدقتين ببقعة على السجادة. تتحقق أمي من ردة فعلي قبل أن تشدّ أذني مجدداً فيما تقودني إلى الباب الأمامي.

"أبرم"، صرخت عالياً. "أنظر إليّ". لكنني خدعتها. نظرت من زاوية عيني إلى والدي. كان يبتلع جرعة أخرى من كأسه. أصبح كتفاه مترهلين بعد أن كانا عريضين في ما مضى. فعمله كإطفائي في سان فرانسيسكو، وسنوات الشرب، والعلاقة المتوترة مع أمي ألقت كلها بثقلها عليه. كان والدي في ما مضى بطلي العظيم ومعروفاً بجهوده الشجاعة في إنقاذ الأولاد من الأبنية المحترقة، لكنه أصبح اليوم رجلاً مهزوماً. ها هو يبتلع جرعة أخرى قبل أن

تبدأ أمي. "يظن والدك هنا أني أعاملك بشكل سيء. حسناً، هل هذا صحيح؟ هل أفعل ذلك؟"

ترتعش شفتاي. كنت غير واثق لوهلة ما إذا كان يجدر بي الإجابة. لا بد أن أمي تعرف ذلك وتستمتع ربما باللعبة أكثر فأكثر. وفي كلا الحالتين، أنا مدان. أشعر أني حشرة على وشك الانسحاق. ينفتح فمي الجاف. أشعر بشفتيّ وهما تبتعدان عن بعضهما. أبدأ بالتمتمة.

لكن قبل أن ألفظ كلمة واحدة، تشدّ امي مجدداً أذني اليمنى. أشعر وكأن أذني كانت في حريق. "أغلق فمك أيها الوقح! لم يطلب أحد منك التكلم! هل طلب أحد ذلك؟"، تصرخ أمي.

تبحث عيناي عن والدي. وبعد بضعة لحظات، شعر على الأرجح بحاجتي. "رويرفا"، قال لها، "ليست هذه طريقة لمعاملة الولد".

أشدّ جسمي مجدداً لتشدّ أمي مرة أخرى على أذني، لكنها تستمرّ في الشد هذه المرة بحيث تجبرني الوقوف على رؤوس أصابع قدميّ. يتحول وجه أمي إلى الأحمر الداكن. "تظن إذاً أني أعامله بطريقة سيئة؟ أنا..." وفيما هي تؤشر بسبابتها نحو صدرها، تتابع أمي قائلة: "أنا لا أحتاج إليه، ستيفن. إذا كنت تظن أني أعامله بطريقة سيئة... حسناً، يستطيع الخروج من منزلي!".

أشدّ ساقيّ وأحاول أن أصبح أطول قليلاً. أبدأ بشدّ أعلى جسمي بحيث أكون مستعداً حين تضربني أمي. فجأة، تفلت أذني وتفتح الباب الأمامي. "أخرج من هنا"، صرخت بأعلى صوتها. "أخرج من

منزلي! أنا لا أحبك! أنا لا أريدك! لم أحبك يوماً! أخرج من منزلي بحق الجحيم".

أصبحت مثل قطعة جليد. لست أكيداً من هذه اللعبة. بدأ دماغي بدراسة كل الخيارات الممكنة بشأن النوايا الحقيقية لأمي. للبقاء على قيد الحياة، يجدر بي التفكير مسبقاً. يقف أبي أمامي. "لا!"، صرخ عالياً. "هذا يكفي. توقفي، روبرفا. أوقفي كل هذا. دعي الولد وشأنه".

تتوجه أمي نحوي ونحو أبي. "لا؟" تقول أمي بسخرية واضحة. "كم مرة قلت لي ذلك عن الولد؟ الولد فعل هذا، والولد فعل ذلك، والولد والولد والولد. كم مرّة، ستيفن؟". تصل إلينا، تلامس ذراع والدي كما لو أنها تدافع عنه، وكأن حياتهما كانت أفضل كثيراً لو لم أكن معهما- لو لم أكن موجوداً أصلاً.

يصرخ دماغي داخل رأسي، يا إلهي. الآن أعرف!

من دون تفكير، يبعدها والدي عنه. "لا"، قال بصوت منخفض. "هذا غير صحيح"، أضاف وهو يبسط يديه. عرفت من صوته الخافت أن والدي فقد قوته. بدا وكأنه على وشك البكاء. نظر إليّ وهزّ رأسه قبل النظر إلى أمي. "أين سيعيش؟ من سيعتني به...؟"

"ستيفن، ألا تستوعب؟ ألا تفهم؟ لا أريد التفكير في ما قد يحدث له. لا أفكر أبداً في الولد".

فجأة، ينفتح الباب الأمامي. تبتسم أمي وهي تمسك بمقبض الباب. "حسناً، لا بأس. سأترك الأمر للولد". تنحني إلى الأمام، بحيث تصبح بعيدة بضعة إنشات فقط عن وجهي. تفوح رائحة

كريهة من نفس أمي. تبدو عيناها مثل الجليد البارد ومليئتين بالحقد. ليتني أستطيع الابتعاد. ليتني أعود إلى الكاراج. تقول أمي بصوت بطيء وخشن: "إذا كنت تظن أني أعاملك بهذا السوء، يمكنك الرحيل".

أغيّر فجأة موقفي وألقي نظرة على أبي. لكنه يفوّت نظرتي لأنه كان يرشف كأساً أخرى. أصيب عقلي بالتشوش. لا أفهم سبب لعبتها الجديدة. أدرك فجأة أنها ليست لعبة. احتجت إلى بضعة ثوانٍ حتى أفهم أن هذه فرصتي- فرصتي للفرار. أردت الهرب بعيداً منذ سنوات، لكن خوفاً غير منظور منعني من فعل ذلك. لكني أقول لنفسي إن هذا سهل جداً. أردت بقوة تحريك ساقيّ، لكنهما بقيتا يابستين.

"حسناً؟"، صرخت أمي في أذني. "إنه خيارك". بدا لي الوقت متوقفاً. وفيما أحدق في السجادة، أسمع أمي وهي تبدأ بالهسهسة. "لن يغادر. لن يغادر الولد أبداً. لا يملك الجرأة لفعل ذلك".

شعرت أن داخل جسمي بدأ بالارتعاش. أغلقت عينيّ لوهلة، وتمنيت نفسي بعيداً. شاهدت نفسي في تفكيري وأنا أخرج من الباب. ابتسمت في داخلي. أردت الرحيل بقوة. وكلما تخيلت نفسي أمشي عبر الباب، ازداد شعوري بدفء كبير يغمر روحي. فجأة، شعرت أن جسمي يتحرك. فتحت عينيّ. نظرت إلى الأسفل نحو حذائي البالي. خرجت قدماي عبر الباب. أوه يا إلهي، قلت لنفسي. لا أصدق أني أفعل ذلك! ومن دون أي خوف، قررت ألا أتوقف.

"إليك"، قالت أمي بصوت منتصر. "لقد فعلها الولد. إنه قراره. أنا لم أجبره. تذكر ذلك ياستيفن. أريدك أن تعلم أني لم أجبره".

خرجت من الباب الأمامي، وأنا واثق تماماً من أن أمي ستصل إليّ وتعيدني إلى الداخل. أحسست بشعري وهو ينتصب في الجهة الخلفية لعنقي. أسرعت في خطواتي. وبعد الخروج من الباب، انعطفت نحو اليمين ونزلت الدرجات الحمراء. سمعت من الخلف أصوات أمي وأبي وهما يمدّان أنفسهما نحو الخارج. "روبرفا"، قال أبي بصوت خافت، "هذا خطأ".

"لا"، أجابته بصوت منخفض. "وتذكر أن هذا كان قراره. بالإضافة إلى ذلك، سيعود حتماً".

كنت متحمساً جداً لدرجة أني تعثّرت بقدميّ أثناء نزولي السلم. أمسكت بالدرابزون لتثبيت نفسي. وصلت إلى الممشى، وناضلت لضبط تنفسي. انعطفت إلى اليمين وخرجت إلى الشارع إلى أن أصبحت متأكداً من أحداً لن يراني من المنزل، وبدأت بعدها بالركض. وصلت إلى نصف الشارع قبل أن أتوقف، لبرهة فقط، للنظر إلى المنزل.

وضعت يديّ على ركبتيّ وبدأت ألهث. حاولت مدّ أذنيّ لأسمع صوت سيارة أمي. فقد بدا لي أن أمي تركتني أفلت بسهولة كبيرة. وأعرف أنها ستتبعني بعد لحظات قليلة. بعد التقاط نفسي، أسرعت مجدداً في خطواتي. وصلت إلى أعلى جادة كرستلاين وحدّقت في ذلك المنزل الأخضر الصغير. لكن لا توجد أية سيارة خارجة من الكاراج. ما من أحد يتبعني. لا صراخ أو شتائم أو ضرب. لست جالساً في أسفل سلم الكاراج، ولا أتعرض للضرب على ركبتيّ بعصا المكنسة، ولست محتجزاً في الحمام مع مزيج الأمونيا والكلوروكس.

استدرت بسرعة عند سماع هدير سيارة، ولوّحت بيدي.

رغم أني كنت أرتدي سروالاً بالياً، وقميصاً رقيقاً وممزقاً وطويل الأكمام، وأحذية رياضية مهترئة، شعرت بسعادة في داخلي. شعرت بالدفء. قلت لنفسي إني لن أعود أبداً. بعد سنوات من العيش في الخوف، وتحمّل الصفعات المؤلمة وأكل فضلات النفايات، أعرف الآن أني سأعيش نوعاً ما.

لا أملك أيّ أصدقاء، ولا أي مكان للاختباء، ولا شيء للانكباب عليه. لكني أعرف تماماً إلى أين أنا ذاهب- إلى النهر. فقبل عدّة سنوات، حين كنت فرداً من العائلة، كنا نتوجه في كل عطلة صيف إلى النهر الروسي في غيرنيفيل. وكانت أفضل أيام حياتي تلك التي أقضيها وأنا أتعلم السباحة في شاطئ جونسون، وأتزحلق على المنزلق الكبير، وأختبئ في التبن عند مغيب الشمس، وألعب مع إخوتي عند جذع الشجرة الكبيرة قرب كوخنا. وابتسم كلما تذكرت رائحة الأشجار الخشبية الحمراء العملاقة وجمال النهر الأخضر الداكن.

لست أكيداً من موقع غيرنيفيل، لكني أعرف أنها موجودة إلى شمال جسر البوابة الذهبية. أنا واثق من أني أحتاج إلى عدّة أيام حتى أصل إلى هناك، لكني لا آبه بذلك. فحين أصل إلى هناك، أستطيع البقاء على قيد الحياة من خلال سرقة أرغفة الخبز الفرنسي وشرائح السلامي من المتجر المحلي، والنوم على شاطئ جونسون أثناء الاستماع إلى أصوات السيارات وهي تعبر جسر باركر الدائم الاخضرار الذي يقود إلى المدينة. كانت غيرنيفيل المكان الوحيد

الذي شعرت فيه يوماً بالأمان. فمنذ كنت في الحضانة، عرفت أنه المكان الذي أريد العيش فيه. وحين أصل إلى هناك، أعرف أني سأعيش في غيرنيفيل لبقية حياتي.

بدأت المشي نزولاً إلى جادة البوابة الشرقية حين تغلغل الهواء البارد في كل جسمي. كانت الشمس قد غابت وبدأت ضفادع المساء بالخروج من المحيط المجاور. وضعت يديّ تحت إبطيّ وتابعت السير في الشارع. بدأت أسناني تصطك. فقد بدأ حماس الهروب الكبير بالزوال تدريجياً. رحت أفكر أني أمي تكون ربما محقة. فرغم أنها كانت تضربني وتصرخ في وجهي، كان الكاراج على الأقل أكثر دفئاً من هنا. بالإضافة إلى ذلك، قلت لنفسي، أنا أكذب وأسرق الطعام. ربما أستحق العقاب. توقفت لبرهة للتفكير مجدداً في خطتي. فإذا عدت الآن، مباشرة الآن، سوف تصرخ في وجهي وتضربني- لكني معتاد على ذلك. وإذا كنت محظوظاً، قد تطعمني غداً من بقايا العشاء. وأستطيع من ثم سرقة الطعام من المدرسة في اليوم التالي. ما عليّ فعله هو العودة إلى المنزل. ابتسمت لنفسي. لقد تحمّلت الأسوأ من أمي قبلاً.

توقفت في منتصف الطريق. لا تبدو فكرة العودة إلى المنزل سيئة. بالإضافة إلى ذلك، قلت لنفسي إني لن أعثر أبداً على النهر في أية حال. استدرت. كانت محقة.

تخيّلت نفسي وأنا أجلس في أسفل السلم، أرتجف من الخوف، وأخاف من كل صوت أسمعه من الأعلى. أعدّ الثواني وأخشى بداية الإعلانات التجارية. أنتظر حينها صوت الأرض وهي تتشقق في

الأعلى حين تنهض أمي عن الأريكة وتدخل إلى المطبخ لتحضر لنفسها كأساً ثم تناديني لأصعد إليها- حيث تبدأ بضربي إلى أن أصبح عاجزاً عن الصمود. وقد أعجز عن الزحف بعيداً.

أنا أكره الإعلانات التجارية.

أعادني صوت جدجد مجاور يحفّ أجنحته إلى الحقيقة. حاولت العثور على الحشرة وتوقفت لبرهة حين ظننت أني أصبحت قريباً. إلا أن الصوت توقف. بقيت جامداً تماماً. إذا التقطت الجدجد، قد أضعه في جيبي وأجعله ربما حيواني المدلل. سمعت صوت الجدجد مرة أخرى. وفيما كنت أنحني للوصول إليه، سمعت هدير سيارة أمي خلفي. اختبئت وراء سيارة مجاورة لحظة وصلت إليّ مصابيح السيارة. نزلت السيارة إلى أسفل الشارع. اخترق الصوت القوي لمكابح سيارة أمي أذنيّ. إنها تبحث عني. بدأت أهسهس. أغمضت عينيّ بقوة حين توجهت المصابيح الأمامية نحوي. انتظرت سماع صوت سيارة أمي وهي تتوقف بسرعة، يليه خروجها من السيارة ومن ثم دفعي داخلها. رحت أعدّ الثواني. فتحت عينيّ ببطء، وبرمت رأسي إلى اليسار لأشاهد المصابيح الخلفية مضاءة قبل صدور صوت المكابح. انتهى الأمر! لقد عثرت عليّ! شعرت بالارتياح بطريقة ما. فأنا لن أصل أبداً إلى النهر. هيا، هيا، قلت لنفسي. هيا، إفعل ذلك.

لكن السيارة تجاوزتني.

لا أصدق ذلك! قفزت من وراء السيارة وحدّقت في سيارة لامعة تضيء مكابحها كل بضعة ثوانٍ. شعرت فجأة بالدوار. انقبضت

معدتي. وارتفع فيض من السائل إلى حنجرتي. انحنيت فوق عشب أحدهم وحاولت التقيؤ. وبعد بضعة ثوانٍ من الغثيان الجاف بسبب معدتي الفارغة، حدقت في النجوم. شاهدت بقعاً من السماء الصافية عبر الضباب الكثيف. لمعت النجوم الفضية البراقة فوقي. حاولت تذكر كم مضى من الوقت على خروجي على هذا النحو. أخذت نفساً عيمقاً بضعة مرات متتالية.

"لا!"، صرخت. "لن أعود! لن أعود أبداً!". استدرت ومشيت إلى أسفل الشارع، شمالاً نحو جسر البوابة الذهبية. وبعد بضعة ثوانٍ، مررت أمام السيارة التي باتت متوقفة الآن في ممشى أحد المنازل. شاهدت ثنائياً يقف في أعلى السلم ويلقى ترحيب المضيف. خرج صوت الضحك والموسيقى من الباب المفتوح. تساءلت عن طريقة استقبال الضيف في منزل. وفيما كنت أمشي امام المنزل، شمّ أنفي رائحة طعام وامتلكتني فكرة سرقة شيء لأكله. إنها ليلة السبت، ويعني ذلك أنني لم آكل أي شيء منذ صباح الجمعة في المدرسة. الطعام! قلت لنفسي. عليّ العثور على بعض الطعام.

توجهت بعد قليل إلى الكنيسة القديمة. أرسلتني أمي مع شقيقيّ، رون وستان، إلى الصفوف الدينية بعد الظهر على مدى بضعة أسابيع. ولم أدخل إلى الكنيسة منذ كنت في السابعة من عمري. فتحت الباب برفق. شعرت فوراً بحرارة تخترق ثقوب سروالي وقميصي الرقيق. أغلقت الباب وراء بأكبر هدوء ممكن. شاهدت الكاهن وهو يأخذ بعض الكتب عن المقاعد الخشبية. اختبأت وراء الباب، على أمل ألا يراني. لكن الكاهن شقّ طريقه نحو المقاعد

الخلفية في اتجاهي. أردت البقاء بكل جوارحي، لكنني... أغلقت عينيّ وحاولت امتصاص الحرارة لحظة، قبل أن تصل يدي مجدداً إلى الباب.

وحين أصبحت خارجاً في الشارع، حيث شاهدت صفاً من المتاجر، توقفت أمام متجر للكعك المقلي. في الصباح الباكر لأحد الأيام، قبل عدة سنوات، توقف والدي ليشتري بعض الكعك المقلي قبل أن يأخذ العائلة إلى النهر الروسي. كان ذلك وقتاً سحرياً بالنسبة إليّ. حدّقت عبر الزجاج ونظرت من ثم إلى شخصيات الرسوم المتحركة المرسومة على الجدار التي تصوّر مختلف مراحل إعداد الكعك المقلي.

استدار رأسي نتيجة رائحة البيتزا الآتية من اليسار. مررت أمام بضعة متاجر إضافية إلى أن وصلت أمام مطعم بيتزا. سال اللعاب من فمي. ومن دون تفكير، فتحت الباب ودخلت إلى الجهة الخلفية للغرفة بانبهار. احتاجت عيناي إلى بعض الوقت لتعديل الرؤية. استطعت التعرف إلى طاولة بليار، وسمعت أصوات اكواب البيرة وهي ترتطم ببعضها بالإضافة إلى الضحكات العالية. شعرت بالنظرات تحدّق فيّ من الأعلى وتوقفت عند الزاوية البعيدة للبار. تحرّكت عيناي بسرعة بحثاً عن طعام باقٍ. لم أعثر على أي شيء، فتوجهت إلى طاولة البليار، حيث انتهى رجلان لتوهما من اللعب. عثرت على ربع دولار على الطاولة فغطيته بسرعة بأصابعي. نظرت من حولي قبل سحب الربع إلى حافة الطاولة وإمساكه بيدي. كانت النقود ساخنة. عدت مجدداً إلى البار بطريقة اعتيادية. لكن

صوتاً قوياً انفجر فوقي. حاولت تجاهل الصوت. قام أحدهم بإمساك كتفي الأيسر من الخلف. شددت بسرعة أعلى جسمي في انتظار وصول الصفعة على وجهي أو معدتي. "هاي، أيها الولد. ماذا تفعل هنا؟"

استدرت نحو الوجه، لكني رفضت النظر إلى الأعلى.

"قلت لك ماذا تفعل هنا؟"، سألني الصوت مجدداً.

نظرت إلى الأعلى نحو رجل يرتدي مئزراً أبيض مغطى بصلصة البيتزا الحمراء. وضع يديه على وركيه في انتظار الجواب. حاولت الإجابة، لكني بدأت أتمتم. "أوه... لا شيء... سيدي".

وضع الرجل يده على كتفي وقادني إلى الجهة الخلفية للبار. ثم توقف وانحنى صوبي. "هاي، أيها الولد، عليك منحي الربع".

هززت رأسي للقول لا. وقبل أن أخبره كذبة، قال الرجل: "هاي، أيها الرجل، رأيتك تفعل ذلك. أعطه لي الآن. فهذان الشابان هناك يحتاجان إليه للعب البليار. أطبقت أصابعي بقوة. يمكن لهذا الربع أن يشتري لي بعض الطعام، أو ربما قطعة بيتزا. استمر الرجل في التحديق إليّ. فتحت أصابعي ببطء وأفلت الربع في يد الرجل. رمى الربع إلى رجلين كانا يمسكان قضيبين. "شكراً مارك"، قال له أحدهما.

"هاي، يارجل، لا مشكلة". حاولت الابتعاد بحثاً عن الباب الأمامي، حين أمسكني مارك. "ماذا تفعل هنا؟ لماذا سرقت ذلك الربع؟".

انزويت إلى داخلي وحدقت في الأرض.

""هاي، يارجل"، رفع مارك صوته، "لقد طرحت عليك سؤالاً".

"أنا لم أسرق أي شيء. أنا... ظننت فقط أن... أعني، شاهدت الربع فقط و..."

"أولاً، شاهدتك تسرق الربع. وثانياً، يحتاج إليه الشابان للعب البليار. بالإضافة إلى ذلك، ماذا كنت ستفعل بالربع على أية حال؟"

شعرت بنوبة من الغضب تعتريني. "الطعام!" قلت له. "كل ما أردته هو شراء قطعة من البيتزا! حسناً؟"

"قطعة من البيتزا؟" قال مارك ضاحكاً. "من أين أنت يارجل... من المريخ؟"

حاولت التفكير في جواب. شعرت بنفسي محبوساً في الداخل. أفرغت رئتيّ من الهواء وهززت كتفيّ.

"هاي، إهدأ يا رجل. هيا، إسحب كرسياً"، قال لي مارك بصوت ناعم. "جيري، أعطني كولا". نظر مارك إليّ. حاولت سحب ذراعيّ داخل أكمامي لإخفاء الرضوض والجروح. حاولت الابتعاد عنه. "هاي، هل أنت على ما يرام أيها الولد؟"، سألني مارك.

هززت رأسي من جانب إلى آخر. لا! قلت لنفسي. لست على ما يرام. لا شيء على ما يرام. أردت أن أخبره، لكن...

"إليك، إشرب"، قال مارك فيما أعطاني كأس كولا. أمسكت بالكوب الأحمر البلاستيكي بيديّ معاً، وبدأت في مصّ القشة الورقية إلى حين اختفاء الصودا.

"هاي، ياولد"، سألني مارك، "ما هو اسمك؟ هل لديك منزل؟ أين تعيش؟".

شعرت بخجل شديد. أعرف أني لا أستطيع الإجابة. تصرفت كأني لم أسمعه.

هزّ مارك رأسه علامة الموافقة. "لا تتحرك"، قالي لي فيما يمسك كوبي. ومن خلف البار، شاهدته يملأ الكوب مجدداً فيما يمسك الهاتف. تمدد حبل الهاتف حتى أقصى حدوده بحيث تمكّن مارك من إعطائي كوب كولا آخر. وبعد أن أقفل الخط، عاد مارك للجلوس. "هلا أخبرتني ما هي المشكلة؟"

"أنا وأمي لا نتفق"، تمتمت على أمل ألا يسمعني أحد. "لقد... طلبت مني الرحيل".

"ألا تظن أنها قلقة عليك؟"، سألني.

"حسناً! هل تمزح؟" صرخت بصوت عال. أوه، قلت لنفسي. دع فمك مغلقاً. نقرت بإصبعي على البار محاولاً الابتعاد عن مارك. نظرت خلسة إلى الرجلين اللذين يلعبان البليار وبقية الرجال قربهم، وكانوا يضحكون ويأكلون ويستمتعون بأوقاتهم.

تمنيت لو أني شخص حقيقي.

شعرت فجأة بالدوار مجدداً. وفيما كنت أنزلق عن الكرسي، التفت نحو مارك وقلت له: "عليّ الذهاب".

"إلى أين تذهب؟"

"أوه، عليّ الذهاب سيدي".

"هل طلبت منك أمك الرحيل فعلاً؟"

من دون النظر إليه، هززت رأسي للقول نعم.

ابتسم مارك. "أراهن أنها قلقة فعلاً عليك. ما رأيك؟ سأقول لك شيئاً. أعطني رقمها وسوف أتصل بها. اتفقنا؟"

شعرت بدمي يتدفق داخلي. الباب، قلت لنفسي. إذهب إلى الباب واركض. تمايل رأسي من جهة إلى أخرى بحثاً عن مخرج.

"تعال الآن"، قال مارك وهو يرفع حاجبيه. "لا يمكنك الرحيل الآن. سوف أصنع لك بيتزا...".

ارتفع رأسي نحوه. "حقاً؟" صرخت عالياً. "لكني... لا أملك أي..."

"هاي، يارجل. لا تقلق بشأن ذلك. انتظرني هنا فقط". نهض مارك وتوجه نحو الأمام. ابتسم إليّ من فتحة المطبخ. بدأ اللعاب يسيل في فمي. أستطيع تخيل نفسي وأنا آكل وجبة ساخنة- ليس من علبة في النفايات أو قطعة خبز قديمة، وإنما وجبة حقيقية.

مرّت دقائق عدّة. جلست منتصباً في انتظار رؤية مارك مجدداً.

شاهدت في الباب الأمامي رجل شرطة يرتدي بزّة كحلية ويدخل إلى المحل. لم أفكر في أي شيء إلى أن توجه مارك نحو الشرطي. تحدث الرجلان لبضعة لحظات، ثم هزّ مارك رأسه ووجه إصبعه نحوي. استدرت بسرعة بحثاً عن باب في الجهة الخلفية للغرفة. لا شيء. استدرت مجدداً نحو مارك. لقد اختفى، وكذلك الشرطي. استدرت من جانب إلى آخر فيما أحدّق بعينيّ بحثاً عن الرجلين. لقد اختفيا. إنه إنذار كاذب. بدأ خفقان قلبي يتباطأ. عدت للتنفس مجدداً. ابتسمت.

*

"أعذرني أيها الشاب الصغير". رفعت رأسي لأجد شرطياً يبتسم لي. "أظن أنه عليك المجيء معي".

لا! قلت لنفسي. أرفض التحرك. غاصت أطراف أصابعي في أسفل الكرسي. حاولت العثور على مارك. لا أصدق أنه اتصل بالشرطة. بدا لي هادئاً جداً. لقد أعطاني كولا ووعدني ببعض الطعام. لماذا فعل ذلك؟ بقدر ما أصبحت أكره مارك الآن، أكره نفسي أكثر. عرفت أنه كان يجدر بي متابعة المشي في الشارع. لم يكن يجدر بي أبداً الدخول إلى محلّ البيتزا. عرفت أنه كان يجدر بي الخروج من البلدة بأسرع وقت ممكن. كم كنت غبياً!

علمت أني أصبحت تائهاً. شعرت باستنزاف كل القوى الباقية لديّ. أردت العثور على فتحة للتقوقع داخلها والنوم. انزلقت عن كرسي البار. سار الشرطي خلفي. "لا تقلق"، قال لي. "سوف تكون على ما يرام". بالكاد سمعت ما قاله. كل ما استطعت التفكير به هو أنها تنتظرني في مكان ما هناك. سوف أعود إلى المنزل- أعود إلى أمي. قادني الشرطي إلى الباب الأمامي. "شكراً لك على الاتصال"، قال الشرطي لمارك.

حدّقت في الأرض. كنت غاضباً جداً. رفضت النظر إلى مارك. تمنيت لو أني غير منظور.

"هاي، أيها الولد"، ابتسم مارك فيما وضع علبة بيضاء رقيقة بين يديّ. "قلت لك إني سأعطيك بيتزا".

خفق قلبي. ابتسمت له. بدأت أهزّ رأسي للقول لا. أعرف أني لا أستحقها. دفعت العلبة مجدداً إلى مارك. شعرت للحظة أنه لا يوجد

أي شيء آخر في عالمي. نظرت إلى قلبه. علمت أنه يفهم. أخذت العلبة. نظرت أكثر في عينيه وقلت له: "شكراً سيدي". مرر مارك يده في شعري، فيما التهمت أنا الرائحة الصادرة من العلبة.

"هذا هو اتفاقنا. وكن قوياً أيها الولد... سوف تكون على ما يرام"، قال مارك فيما كنت أشق طريقي خارج الباب ممسكاً بجائزتي. نجحت علبة البيتزا في تسخين يديّ. كان الضباب الرمادي يغطي الشارع في الخارج حيث ركنت سيارة الشرطة وسط الطريق. أمسكت العلبة قرب صدري. شعرت بالبيتزا وهي تنزلق إلى أسفل العلبة فيما فتح الشرطي الباب الأمامي لسيارته حتى أدخل. استطعت سماع الصوت الخافت لجهاز التدفئة في لوحة القيادة. حرّكت أصابع قدميّ حتى أشعر بالدفء. راقبت الشرطي وهو يتجه نحو كرسي السائق. دخل إلى السيارة ثم رفع مذياعاً. أجاب صوت أنثوي ناعم على اتصاله. استدرت للنظر مجدداً إلى حانة البيتزا. كان مارك يرتجف مع مجموعة من الرجال فيما هم واقفين خارجاً. وفيما ابتعدت سيارة الشرطة ببطء، رفع مارك يده في إشارة السلام، ثم لوّح الوداع. ابتسم الآخرون، الواحد تلو الآخر، فيما انضموا إليه.

شعرت بالضيق في حنجرتي. استطعت تذوق الملح فيما انهمرت الدموع على وجهي. عرفت بطريقة ما أني سأشتاق إلى مارك. حدّقت في حذائي وحرّكت أصابع قدميّ. كان أحدها خارجاً من فتحة.

"إذاً"، قال الشرطي. "أول مرة في سيارة شرطة؟"

"نعم سيدي"، أجبته. "وأنا... أوه... أعني أني أوجه مشكلة، سيدي؟"

ابتسم الشرطي. "لا. نحن فقط خائفون. لقد تأخر الوقت وأنت شاب صغير وسوف تبقى خارجاً لوحدك. ما هو اسمك؟"

نظرت إلى إصبع قدمي الوسخ.

"هيا بك. لا ضير في أن تخبرني ما اسمك".

نظفت حنجرتي. لا أريد التحدث إلى الشرطي. لا أريد التحدث إلى أي شخص. أعرف أنه كلما فتحت فمي، أصبح أقرب إلى مخالب أمي الشريرة. لكني قلت لنفسي ما الذي أستطيع فعله؟ أعرف أن كل الفرص التي أتيحت لي للفرار إلى النهر تبددت الآن. لا آبه بذلك. طالما عليّ العودة إليها.. بعد بضعة ثوانٍ، أجبت الشرطي: "دا... دا... دافيد، سيدي. اسمي دافيد".

ضحك الشرطي. ابتسمت بدوري. قال لي إني صبي جميل. "كم عمر؟"

"تسعة، سيدي".

"تسعة؟ صغير جداً، أليس كذلك؟"

بدأنا نتحادث. لا أصدق كم كان الشرطي مهتماً بي. شعرت في الحقيقة أنه يحبني. ركن السيارة أمام مركز الشرطة وقادني عبر سلّم إلى الأسفل نحو غرفة فارغة فيها طاولة في الوسط. جلسنا قرب الطاولة، وقال لي الشرطي: "هاي، دافيد، فلنأكل هذه البيتزا قبل أن تبرد".

تحرك رأسي صعوداً ونزولاً. فتحت العلبة. انحنيت إلى الأسفل وتنشقت الرائحة. "إذاً دافيد"، سألني الشرطي، "أين تعيش؟"

أصبت بالجمود. انزلقت الطبقة العلوية للبيتزا عن مكانها. استدرت. كنت آمل أن ينسى نوعاً ما سبب اقتيادي إلى هنا.

"هيا يادافيد. أنا مهتم بك فعلاً". تسمّرت عيناه على عينيّ. لا أستطيع الهروب. أعدت قطعة البيتزا خاصتي بهدوء إلى العلبة. تمدد الشرطي للمس يدي. جفلت على نحو لاإرادي. وقبل أن يحاول الشرطي مجدداً، حملته على الإذعان. كنت أصرخ داخل رأسي. ألا تفهم؟ أمي لا تريدني، لا تحبني، لا تكترث بي! حسناً؟ إذاً... هلا تركتني وشأني. أستطيع الاعتماد على نفسي. واضح؟

أبعد الشرطي كرسيه عن الطاولة قبل أن يقول بصوت ناعم: "دافيد، أنا هنا لمساعدتك. عليك معرفة ذلك، وسوف أبقى هنا طالما تحتاج إلى ذلك". انحنى إلى الأمام ورفع ذقني بأصابعه. انهمرت الدموع من عينيّ. كان أنفي جارياً. أعرف الآن أنه لا مجال للفرار. لا أملك الجرأة للنظر إلى الشرطي في عينيه.

"جادة كريستلاين، سيدي"، قلت له في صوت خافت.

" جادة كريستلاين؟"، سألني الشرطي.

"نعم سيدي... 40 جادة كريستلاين"

"دافيد، لقد فعلت الصواب. مهما كانت المشكلة، أنا متأكد من أننا سنحلّها".

أطلعته على رقم الهاتف فاختفى الشرطي للحظات. وحين عاد، هجم على البيتزا مجدداً.

*

أمسكت بقطعة البيتزا نفسها. إنها باردة وفطيرة. أردت الأكل، لكن عقلي بعيد ملايين الأميال. عاد الشرطي وطمأنني بابتسامة. "سيكون كل شيء على ما يرام".

حسناً قلت لنفسي. إن الوقت الوحيد الذي شعرت فيه بالأمان والحماية هو حين كنت ولداً صغيراً. كان عمري خمس سنوات في ذلك اليوم حين انتظرتني العائلة فيما كنت أتسابق على التلة الصغيرة في آخر يوم دراسي لي في الحضانة. ما زلت أذكر وجه أمي يتألق حباً فيما كانت تصرخ: "هيا حبيبي. هيا دافيد". فتحت لي الباب بعد أن عانقتني بقوة. ثم أغلقت الباب قبل أن ينطلق أبي. المقصد: النهر. في ذلك الصيف، علمتني أمي كيفية الطفو على ظهري. كنت خائفاً لكن أمي بقيت معي حتى تعلمت كيفية فعل ذلك لوحدي. كنت فخوراً جداً حين أثبتت لأمي أني ولد كبير، أستحق انتباهها ومديحها. كان ذلك الصيف أفضل مرحلة في حياتي. لكن فيما أجلس الآن أمام الشرطي، أعرف أن الأمور لن تعود أبداً إلى ما كانت عليه. لقد أصبحت أوقاتي الحلوة مجرّد ذكريات.

نظر الشرطي إلى الأعلى. أدرت كتفيّ فوجدت والدي مرتدياً إحدى قمصانه القطنية الحمراء يقف خلفي. أومأ شرطي آخر إلى الشرطي الجالس قربي. "سيد بيلزر"، سأل الشرطي الجالس قربي.

أومأ والدي برأسه إيجاباً. اختفى الرجلان في مكتب. أغلق الشرطي الباب. تمنيت لو أني أستطيع سماع ما يقولانه. أنا واثق أن الحديث يدور عني وعن مشاكلي الدائمة مع أمي. شعرت بارتياح لأنها لم تأت. لكني أعرف بطريقة ما أنها لا تتجرأ أبداً وتكشف

نفسها أمام السلطة. أعرف أنها تستخدم والدي دوماً للأشياء القذرة. إنها تسيطر على والدي– تماماً مثلما تحاول السيطرة على الجميع. وفوق كل ذلك، أعرف أنها ملزمة بإخفاء السر. يجب ألا يعرف أحد أبداً بعلاقتنا السرية. لكني أعرف أنها تخطئ. إنها تفقد السيطرة. أحاول أن أفهم معنى ذلك. وإذا أردت الصمود، يجدر بي التفكير مسبقاً.

بعد عدة دقائق، فتح باب الغرفة. خرج والدي من الغرفة، وصافح الشرطي. اقترب الشرطي مني وانحنى صوبي قائلاً: "دافيد، كان مجرّد سوء تفاهم بسيط. أخبرني والدك الآن أنك غضبت حين لم تسمح لك أمك بالركوب على دراجتك. لكنك لا تحتاج إلى الهرب من المنزل لمثل هذا الشيء. لذا، إذهب الآن إلى المنزل مع والدك، وسوف تسوّي الأمور مع والدتك. يقول والدك هنا إنها قلقة جداً عليك". ثم غيّر نبرة صوته فيما وجّه إصبعه نحوي. "ولا تضع أهلك في مثل هذا الموقف مجدداً. آمل أن تكون تعلمت درسك. قد يكون أمراً مخيفاً، أليس كذلك؟"، سأل الشرطي فيما يشير إلى خارج المبنى.

وقفت أمام الشرطي غير مصدق. لا أستطيع تصديق ما أسمع. الركوب على دراجتي؟ أنا لا أملك أية دراجة! ولم أركب على واحدة قبلاً. أريد الدوران لمعرفة ما إذا كان يتحدث إلى ولد آخر غيري. نظر إليّ والدي من الخلف. كانت عيناه فارغتين. أدركت أنها مجرد قصة أخرى من قصص أمي.

"ودافيد"، أضاف الشرطي، "عامل أهلك باحترام وجلال. لا تعرف كم أنت محظوظ". أصبح عقلي مشوشاً. كل ما أستطيع

سماعه داخل رأسي هو: "كم أنت محظوظ... كم أنت محظوظ...." مراراً وتكراراً. ارتجفت حين أغلق والدي باب السيارة من جهة السائق. تنفس بعمق قبل أن ينحني صوبي. "يا إلهي، دافيد!"، بدأ القول فيما كان يدير مفتاح السيارة ويدوس على دواسة الوقود. "بماذا تفكر بحق الجحيم؟ هل لديك أية فكرة عما فعلته؟ هل تعلم بماذا شعرت أمك؟"

استدار رأسي نحو أبي. شعرت هي؟ ماذا عني أنا؟ ألا يهتم أحد بي؟ لكن... قلت لنفسي... ربما انهارت. قد تكون فعلاً مهتمة بي. يحتمل أنها أدركت فداحة ما ارتكبته؟ تخيلت أمي للحظة وهي تبكي بين ذراعيّ والدي، تتساءل عن مكاني، وما إذا كنت حياً أو لا. تخيلت من ثم أمي وهي تركض فيما الدموع في عينيها وتطوّقني بحنان، وتغمرني بالقبلات، والدموع تنهمر على وجهها. أستطيع تقريباً سماع أمي تقول الكلمتين الأكثر أهمية التي أتوق إلى سماعهما. وسوف اكون مستعداً لقول الكلمات الثلاث الأكثر أهمية: "أنا أحبك أيضاً".

"دافيد!"، أمسك والدي بذراعي. قفزت من مكاني وارتطم رأسي بأعلى السيارة. "هل لديك أية فكرة عما كانت تفعله أمك؟ لا أستطيع الاستمتاع بلحظة هدوء في هذا المنزل. صدقني أن الأمور كانت مجرّد جحيم منذ أن غادرت. ألا تستطيع البقاء بمنأى عن المشاكل؟ ألا تستطيع المحاولة لجعلها سعيدة؟ ابقَ بعيداً عن طريقها ونفذ ما تريده. هل تستطيع فعل ذلك؟ هل تستطيع فعل ذلك لي؟ موافق؟" صرخ والدي ورفع صوته عالياً جداً بحيث ارتعش جلدي.

أومأت برأسي إيجاباً ببطء. لا أتجرأ على إصدار أي صوت لأني أبكي في داخلي. أعرف أني مخطئ. إنها غلطتي، كما هي الحال على الدوام. استدرت نحو والدي فيما كنت أهز رأسي صعوداً ونزولاً. انحنى والدي ليربّت على رأسي.

"حسناً"، قال لي بصوت خافت، "حسناً. هذا هو نمري. فلنعد الآن إلى المنزل".

وفيما كان والدي يقود السيارة صعوداً في الشارع نفسه الذي نزلته قبل بضعة ساعات، جلست في طرف السيارة بحيث يتكئ وزن جسمي على الباب. شعرت أني حيوان مسجون يريد شق طريقه عبر الزجاج. وكلما اقتربنا من المنزل، ازداد شعوري بالارتجاف في داخلي. أريد الذهاب إلى الحمام. المنزل، قلت لنفسي. حدّقت في يديّ. ترتجف أصابعي من الخوف. أعرف أني سأعود بعد لحظات قليلة إلى حيث بدأ كل شيء. وفي الإجمال، لم يتغير أي شيء، ولن يتغير أي شيء. أتمنى لو كنت شخصاً، أي أحد غير أنا. أتمنى لو كان لي حياة وعائلة ومنزل.

أدخل والدي السيارة إلى الكاراج. التفت إليّ قبل فتح الباب. "حسناً، ها قد وصلنا"، قال لي بابتسامة زائفة. "نحن في المنزل".

نظرت إليه على أمل أن يشعر بخوفي وألمي الداخلي. المنزل؟ قلت لنفسي.

أنا لا أملك أي منزل.

الفصل

2

ملاك اسمه الآنسة غولد

في 5 آذار 1973، تلقيت الإجابة التي انتظرتها طويلاً في صلواتي. لقد أنقذت. تدخل أساتذتي وبقية الموظفين في مدرسة توماس إديسون الابتدائية وأبلغوا الشرطة.

حدث كل شيء بسرعة البرق. بكيت من كل قلبي حين قلت الوداع النهائية لأساتذتي. أدركت بطريقة ما أني لن أراهم أبداً مجدداً. ومن خلال الدموع في عيونهم، أدركت أنهم فهموا حقيقتي- الحقيقة الفعلية. لماذا كنت مختلفاً عن بقية الأولاد، لماذا كانت رائحتي كريهة وثيابي بالية، لماذا كنت أصعد إلى سلات المهملات بحثاً عن لقمة طعام.

وقبل المغادرة، انحنى أستاذي السيد زيغلر ليقول لي وداعاً. صافح يدي وطلب مني أن أكون ولداً صالحاً. ثم همس في أذني أنه سيطلع صفي على حقيقتي. وكانت عبارة السيد زيغلر تعني العالم بالنسبة إليّ. أردت كثيراً أن يحبني الآخرون، وأن أكون مقبولاً في صفي ومدرستي- من الجميع.

توجب على الشرطي دفعي برفق عبر باب المدرسة. "هيا بنا يا دافيد، علينا الذهاب". مسحت أنفي قبل الخروج من الباب. تسارعت ملايين الأفكار إلى رأسي، وكلها أفكار سيئة. خشيت من العواقب حين تكتشف أمي الأمر. فما من أحد صادف مثل هذه الأم قبلاً.

وحين علمت بالأمر، أدركت أن هناك الكثير لتدفعه.

فيما أخذني الشرطي إلى سيارته، سمعت أصوات كل تلاميذ المدرسة وهم يلعبون في الملعب أثناء فرصة الغداء. وفيما ركبنا في السيارة، استدرت في مقعدي لألقي نظرة على ملعب المدرسة للمرة الأخيرة. غادرت مدرسة توماس إديسون الابتدائية من دون أن يكون لي صديق واحد. لكن أسفي الوحيد هو اني لم أتمكن من وداع أستاذتي في اللغة الانكليزية، السيدة وودورث، لأنها كانت مريضة ذلك اليوم. فحين كنت سجين أمي، كانت السيدة وودورث تساعدني على الفرار من وحدتي من خلال استعمال الكتب، من دون أن تدري هي ذلك. فقد أمضيت مئات الساعات في الظلام أقرأ كتب المغامرات. وقد خفف ذلك نوعاً ما من ألمي.

بعد ملء بعض الاستمارات في مركز الشرطة، اتصل الشرطي بأمي ليعلمها بأني لن أعود إلى المنزل بعد ظهر اليوم وأنها تستطيع الاتصال بسلطة الأحداث المحلية إذا كان لديها أية أسئلة. جلست مثل الصنم، أشعر بالرعب والإثارة فيما الشرطي يتحدث على الهاتف. تخيّلت ما يمكن أن يجري في رأس أمي. فيما كان الشرطي يتحدث بصوت جاف على الهاتف، استطعت مشاهدة قطرات العرق تغطي جبينه. وبعد إغلاق سماعة الهاتف، تساءلت للحظة ما إذا كان عانى التجربة نفسها بعد التحدث إلى أمي. بدا لي أن الشرطي مصرّ جداً على مغادرتنا المركز على الفور. لكنني لم أساعده البتة بمضايقاتي المتكررة إذ كنت أقفز صعوداً ونزولاً وأقول: "ماذا قالت؟ ماذا قالت؟" رفض الشرطي الإجابة. بدا لي أنه أصبح يتنفس بسهولة

أكبر ما إن غادرنا حدود المدينة. ثم انحنى إليّ وقال: "دافيد، أنت حرّ. لن تؤذيك أمك أبداً بعد اليوم".

لم أفهم تماماً أهمية عبارته. تمنيت أن يأخذني إلى نوع من السجن، مع بقية الأولاد السيئين– تماماً مثلما برمجتني أمي طوال سنوات. قررت منذ زمن بعيد أني أفضل العيش في السجن على أن أعيش دقيقة واحدة إضافية معها. استدرت بعيداً عن الشمس. انهمرت دمعة واحدة على وجهي.

أذكر أني كنت أمسح دموعي على الدوام وأنزوي في داخلي. لكني رفضت هذه المرة مسح الدمعة. شعرت الدمعة وهي تصل إلى شفتيّ، وتذوقت الملح، وتركت الدمعة تجف على بشرتي فيما أشعة الشمس تسطع عبر الزجاج الأمامي. أردت التذكر أن تلك الدمعة ليست دمعة خوف أو غضب أو أسى، وإنما دمعة فرح وحرية. أدركت في تلك اللحظة أن كل شيء في حياتي سيكون جديداً.

أخذني الشرطي إلى المستشفى المحلي. تم اصطحابي على الفور إلى غرفة المعاينة. بدت الممرضة مصدومة حين شاهدت مظهري. غسلت كل جسمي بأكبر لطف ممكن، من الرأس وحتى أخمص القدمين، باستعمال اسفنجة طرية قبل أن يفحصني الطبيب. لم أستطع النظر إليها. شعرت بخجل شديد فيما أنا جالس على أعلى الطاولة المعدنية الباردة، مرتدياً ثيابي الداخلية الوسخة المليئة بالثقوب. وحين غسلت الممرضة وجهي، استدرت وأبقيت جفنيّ مغلقين بإحكام قدر الإمكان. حين انتهت، نظرت إلى الغرفة الصفراء اللون المليئة بشخصيات سنوبي. نظرت إلى مختلف أنحاء جسمي. كانت

ذراعاي وساقاي مزيجاً من الأصفر والبني. فالدوائر الداكنة للرضوض الأرجوانية اختفت فوق الدوائر الجديدة للرضوض الزرقاء- إذ كنت أتعرض للضرب والصفع على أرض المطبخ. وحين جاء الطبيب إلى الغرفة، بدا مهتماً جداً بيديّ وذراعيّ. كانت أصابعي جافة وخشنة وحمراء نتيجة مرور سنوات على استعمال مزيج من مواد التنظيف الكيميائية لإتمام الواجبات المنزلية. وخز الطبيب أطراف أصابعي وسألني إذا كنت أشعر بالضغط. هززت رأسي سلباً. مضى وقت لم أتمكن فيه من الإحساس بأطراف أصابعي. هزّ رأسه، زاعماً أنه لا داعي للقلق، ولذلك لم أفكر أكثر في الأمر.

بعد ذلك، قادني الشرطي بلطف إلى مجموعة من الردهات فيما نحن نشق طريقنا من غرفة إلى أخرى للخضوع للكثير من الفحوصات، والتحاليل، واختبارات الدم، وصور الأشعة. وجدت نفسي أتحرك في متاهة. شعرت أني أراقب حياة شخص آخر عبر عينيّ. أصبحت خائفاً جداً لدرجة أني سألت، ومن ثم توسلت، الشرطي للتحقق من كل زاوية والدخول إلى كل غرفة قبل أن أفعل أنا ذلك. عرفت أن أمي ستكون قابعة في مكان ما، جاهزة للانقضاض عليّ. رفض الشرطي في البداية. وحين أصبحت خائفاً جداً لدرجة أني لم أستطع التنفس أو التحرك، أذعن الشرطي لطلباتي. أدركت في قرارة نفسي أن الأمور تحدث بسرعة كبيرة- كان من السهل عليّ الفرار من أمي.

بعد ساعات عدة، عدنا إلى الممرضة نفسها التي تولت تنظيفي.

انحنت صوبي لتقول شيئاً. انتظرت. حدّقت في عينيّ، ثم أدارت وجهها بعد بضعة لحظات. استطعت سماعها وهي تدمدم. سار الطبيب خلفي، وربّت على كتفي وأعطاني كيساً محتوياً على مرهم ليديّ. علّمني من ثم كيفية إبقاء ذراعيّ نظيفين قدر الإمكان وقلت له إن الأوان قد فات لحمايتهما. نظرت إلى الشرطي، ومن ثم إلى ذراعيّ. لم أفهم. بالنسبة إليّ، بدت ذراعاي مثلما هما على الدوام- لونهما أحمر داكن مع القليل من الجلد. كنت أشعر ببعض الحكاك في كلا الذراعين، لكن هذا طبيعي بالنسبة إلي. وقبل أن نهمّ بالمغادرة، أنا والشرطي، جاء الطبيب وقال للشرطي: "تأكد من حصول دافيد على الكثير من الطعام. وتأكد من حصوله على الكثير من الوقت تحت أشعة الشمس". ثم اقترب الطبيب منه أكثر وسأله: "أين هي؟ لن ترسله مجدداً إلى...؟"

نظر الشرطي مباشرة إلى عينيّ الطبيب. "لا داعي للقلق أيها الطبيب. لقد أقسمت أمام الولد. لن تؤذيه أمه *أبداً* بعد اليوم".

منذ تلك اللحظة، أدركت أني أصبحت في أمان. وقفت قرب الشرطي وأردت معانقة ساقه، لكني أدركت أنه لا يجدر بي فعل ذلك. لمعت عيناي فرحاً. أصبح الشرطي بطلي.

بعد بضعة دقائق على مغادرتنا المستشفى، أبطأ سرعة سيارته فيما كان يقود عبر الهضاب في الطرقات الضيقة. اقتربت من النافذة وحدّقت بذهول في الهضاب البنية المنحدرة والأشجار الطويلة. بعد لحظات قليلة، أوقف الشرطي السيارة. "حسناً، دافيد، ها قد وصلنا". حدّقت جيداً في أجمل منزل رأته عيناي. شرح لي الشرطي أني

سأعيش هنا لبعض الوقت وسيكون هذا منزل التربية الجديد. لم أسمع قبلاً *بمنزل التربية*، لكني عرفت أني سأحب المنزل. بدا لي مثل كوخ خشبي عملاق فيه الكثير من النوافذ المفتوحة. لاحظت أنه يوجد خلف المنزل فناء عملاق، حيث تعلو أصوات الصراخ والضحك.

قالت المرأة العجوز التي كانت تدير منزل التربية المؤقت إنها تدعى "العمة ماري: وألقت عليّ التحية عند باب المطبخ. شكرت الشرطي بأقوى مصافحة ممكنة. شعرت بالأسى لأنه عمل ساعات إضافية بسببي. ركع وقال لي بصوت عميق: "دافيد، إن الأولاد أمثالك جعلوني أفكر في ان أصبح شرطياً". من دون تفكير، أمسكت بعنقه. في هذه اللحظة، شعرت أن ذراعيّ في النار. لكني لم آبه. "شكراً لك سيدي".

"هاي، أيها الولد، لا مشكلة في ذلك"، أجابني. ثم سار في ذلك الممشى المتعرّج وحيّاني من سيارته قبل الانطلاق بعيداً. لم أعرف حتى اسمه.

بعد أن أطعمتني العمة ماري عشاء لذيذاً من شرائح سمك موسى، عرّفتني إلى الأولاد السبعة الآخرين الذين لم يعودوا يعيشون مع أهلهم، لسبب أو لآخر. حدّقت في وجه كل واحد منهم. كانت بعض العيون مجوفة، وبعضها مليء بالقلق، والبعض الآخر مليء بالارتباك. لم أكن أعلم أن هناك أولاداً آخرين غير مرغوب في وجودهم أيضاً. فقد شعرت طوال سنوات أني وحيد. تصرفت في البداية في خجل، لكن بعد طرح بقية الأولاد بعض الأسئلة عليّ، اختفى خجلي. "لماذا أنت هنا؟"، سألوني. "ماذا حدث لك؟"

أحنيت رأسي قبل الإجابة بأن أمي لا تحبني لأني كنت دوماً أواجه المشاكل. شعرت بالخزي. لم أكن أرغب في إطلاعهم على السر الموجود بيني وبين أمي. لكن هذا الأمر لا يهمهم لأني مجرّد وجه آخر في الزحام. تم قبولي على الفور بينهم. شعرت بفورة من الطاقة تنبثق من داخلي. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت ولداً وحشياً. ركضت في كل أرجاء المنزل كما لو كان سروالي مشتعلاً. رحت أمزح وأضحك وأصرخ بفرح، مطلقاً سنوات العزلة والصمت.

خرجت عن السيطرة. ركضت من غرفة إلى غرفة، وقفزت فوق كل فراش في المنزل. قفزت عالياً جداً بحيث ارتطم رأسي مراراً وتكراراً بالسقف. لم أتوقف إلا حين شاهدت النجوم. لم أهتم. صفق لي بقية الأولاد بأيديهم. لم تكن ضحكاتهم باردة، مثل الملاحظات الساخرة التي كنت أتلقاها في المدرسة، وإنما مفعمة بالسرور والرضى.

انتهى مرحي فجأة حين دخلت مسرعاً إلى غرفة الجلوس، لدرجة أني أوشكت على كسر المصباح. أمسكت العمة ماري ذراعي على نحو لاإرادي. وكانت على وشك توبيخي حين نظرت إليّ. غطيت وجهي وبدأت ركبتاي ترتجفان. كانت العمة ماري امرأة عجوز صارمة، تصرّ على موقفها، لكنها لا تصرخ أبداً. في ذلك المساء، انتهى نشاطي المفرط بسرعة كبيرة تماماً مثل يخرج الهواء من البالون. أفلتت العمة ماري قبضتها وركعت قربي لتسألني: "ماذا فعلت لك؟"

"أنا آسف"، تمتمت بصوت منخفض. كنت لا أزال غير واثق من

نوايا العمة ماري. عدت إلى موقفي الوقائي. "كنت ولداً سيئاً واستحقيت ما نلته".

في وقت لاحق من ذلك المساء، جاءت العمة ماري إلى سريري. بدأت أبكي وأخبرتها أني أخاف من أن تأتي أمي وتأخذني بعيداً. طمأنتني أني في أمان وبقيت معي حتى شعرت بالأمان. حدّقت في السقف الخشبي الداكن. ذكّرني بالكوخ القديم في غيرنيفيل. خلدت إلى النوم وأنا أعرف أن أمي موجودة هناك، في مكان ما، تنتظرني.

بقيت لوحدي في أحلامي ووجدت نفسي أقف في نهاية ممر طويل ومظلم. ظهر خيال شخص في الطرف المقابل. تحول ذلك الوجه إلى *أمي*. بدأت تسير نحوي. ولسبب ما، بقيت جامداً في مكاني. لم أستطع الحراك، لا بل إني لم أحاول. وكلما اقتربت أمي مني، رأيت بوضوح أكبر وجهها الأحمر المليء بالكراهية. كانت أمي تحمل سكيناً لامعاً فوقها، ومستعدة لطعني به. استدرت وركضت في الممر السرمدي. ركضت بكل ما لي من قوة وبأكبر سرعة ممكنة، بحثاً عن ضوء. ركضت إلى الأبد. كان الممر يلتف وينعطف كلما بحثت عن مخرج. استطعت الإحساس بالنفس الكريه لأمي على عنقي وسماع صوتها يردد أنه لا مجال للفرار وأنها لن تدعني أبداً أفلت.

استفقت من حلمي. كان وجهي وصدري مغطيين بعرق بارد ودبق. لم أعرف ما إذا كنت لا أزال أحلم، فغطيت وجهي. وحين بدأ نَفَسي يهدأ، نظرت من حولي بخوف شديد. ما زلت في غرفة النوم. ما زلت أرتدي البيجاما التي أعطتني إياها العمة ماري. تحسست

نفسي بحثاً عن أية جروح. *إنه حلم*، قلت لنفسي. *حلم سيء، هذا كل ما في الأمر*. حاولت السيطرة على تنفسي لكني لم أستطع التخلص من المشهد. ما زالت كلمات أمي ترنّ في أذني: *لن أدعك تفلت أبداً. أبداً!*".

قفزت عن السرير واندفعت مذعوراً في الظلمة لارتداء ملابسي. عدت إلى رأس السرير ووضعت ركبتيّ بالقرب من صدري. لم أستطع العودة إلى النوم. فقد كانت تعيش أمي في ذلك المكان- أي في أحلامي. شعرت أن إبعادي كان خطأ كبيراً، وأدركت أني سأعود إليها سريعاً. في تلك الليلة، والليالي التي تلت، كنت أجلس على ركبتيّ، فيما الجميع نائمون، وأتأرجح إلى الأمام والخلف وأتمتم لنفسي. كنت أحدق عبر النافذة وأستمع إلى الأشجار وهي تتمايل مع نسيم الليل. قلت لنفسي إني لن أشاهد ذلك الكابوس أبداً مرة ثانية.

كان لقائي الأول مع وكالة خدمة حماية الأولاد عبر ملاك اسمه الآنسة غولد. فشعرها الطويل والأشقر اللامع ووجهها المشرق تطابقا فعلاً مع اسمها. "مرحبا"، قالت مبتسمة. "أنا مساعدتك الاجتماعية". هكذا، بدأت الجلسات الطويلة والمتتالية التي توجب عليّ خلالها شرح أمور لم أفهمها تماماً. وفي بداية جلستنا الأولى، جلست في زاوية الأريكة فيما جلست الآنسة غولد في الطرف الآخر. ومن دون معرفتي، راحت تقترب مني شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت قريبة كفاية مني لتمسك لي يدي. كنت خائفاً جداً في البداية للسماح لها بلمسي. فأنا لا أستحق لطفها. لكن الآنسة غولد تشبثت

بيدي، ولاطفت راحة يدي، وأكدت لي أنها هنا لمساعدتي. في ذلك اليوم، بقيت معي لأكثر من خمس ساعات.

كانت الزيارات الأخرى طويلة أيضاً. في بعض الأحيان، كنت أخشى التحدث مما أفضى إلى لحظات طويلة من الصمت. وفي أحيان أخرى، من دون سبب ظاهري ومن دون أن أفهم السبب، كنت أنفجر في البكاء. لم تهتم الآنسة غولد بذلك. كانت تضمني ببساطة وتؤرجحني، وتهمس في أذني ان كل شيء سيكون على ما يرام. في بعض الأحيان، كنا نستلقي على طرف الأريكة فيما أنا أتحدث عن أمور لا علاقة لها أبداً بماضيّ السيء. في تلك الأوقات، كنت ألعب بالخصلات الذهبية لشعر الآنسة غولد. كنت أنام بين ذراعيها وأتنفس عطرها الجميل. بدأت أثق سريعاً في الآنسة غولد.

أصبحت صديقتي المفضلة. بعد المدرسة، حين أشاهد سيارتها، كنت أركض بسرعة لأصل إلى منزل العمة ماري، وأنا واثق من أن الآنسة غولد أتت لرؤيتي. كنا ننهي جلساتنا على الدوام بعناق طويل. كانت من ثم تنحني صوبي وتؤكد لي أني لا أستحق أبداً المعاملة التي لقيتها وأن الغلطة لم تكن غلطتي وإنما غلطة أمي. لقد سمعت كلمات الآنسة غولد قبلاً، لكني لم أكن واثقاً جداً بعد سنوات من غسل الدماغ. لقد حدث الكثير بسرعة. وذات مرة، سألت الآنسة غولد عن سبب حاجتها لكل تلك المعلومات عني وعن أمي. قالت لي إن المقاطعة ستستخدم هذه المعلومات ضد أمي. "لا"، قلت لها. "يجب ألا تعرف أبداً أني أخبرتك! *أبداً*".

أكدت لي الآنسة غولد أنها تفعل الصواب، لكن حين تركتني

وحيداً لأفكر، توصلت إلى نتيجة مختلفة. أذكر أني واجهت المشاكل على الدوام. لطالما تلقيت العقاب لسبب أو لآخر. وحين كان يتقاتل والداي، كان اسمي يرنّ دوماً في أذنيّ. هل كانت فعلاً غلطة أمي؟ فأنا أستحق ربما كل ما نلته خلال الأعوام الماضية. لقد كذبت وسرقت الطعام. وكنت أعرف السبب الذي دفع أمي وأبي إلى عدم العيش معاً. هل سترمي المقاطعة بأمي في السجن؟ ماذا سيحلّ عندئذ بإخوتي؟ بعد أن غادرت الآنسة غولد في ذلك اليوم، جلست لوحدي على الأريكة. تسارعت الأسئلة إلى عقلي. شعرت بأمعائي تتحول إلى كتلة. *يا إلهي! ما الذي فعلته*؟

بعد عدة أيام، بعد ظهر يوم الأحد، وفيما كنت خارجاً أتعلم لعبة كرة السلة، سمعت الصوت المألوف لسيارة أمي. شعرت أن قلبي توقف عن الخفقان. أغلقت عينيّ، وفكرت أني في أحلام اليقظة. وحين استجاب دماغي، التفتت وركضت إلى داخل منزل العمة ماري لأرتمي في أحضانها. "إنها.... أم...."، تمتمت.

"نعم، أعرف"، أجابت العمة ماري بهدوء فيما كانت تمسك بي. "سوف تكون على ما يرام".

"لا! أنت لا تفه... سوف تأخذني بعيداً! لقد وجدتني!"، صرخت. حاولت إفلات نفسي من قبضة العمة ماري بحيث أتمكن من الخروج والعثور على مكان آمن للاختباء.

لكن قبضة العمة ماري بقيت قوية. "لا أريد أن أزعجك"، قالت العمة ماري. "سوف تضع بعض الثياب. أنت ذاهب إلى المحكمة يوم الأربعاء وتريدك أمك أن تبدو جميلاً".

"لا"، قلت باكياً. "سوف تأخذني! سوف تأخذني معها!"

"دافيد، إبقَ ساكناً. سأكون هنا إذا احتجت إليّ. والآن إهدأ من فضلك أيها الشاب!". بذلت العمة ماري كل ما بوسعها لتهدئتي. لكن عينيّ جحظتا حين شاهدت أمي تسير في الممشى *وأولادها* الأربعة معها.

جلست قرب العمة ماري. تم تبادل التحيات، وعدت إلى ذاتي القديمة- أي إلى الولد الذي اسمه "هو". تحولت بلمح البصر من صبي حماسي إلى العبد غير المنظور لأمي.

لم تلاحظ أمي وجودي. التفتت بدل ذلك إلى العمة ماري وقالت لها: "أخبريني إذاً، كيف حال *الولد*؟"

نظرت إلى وجه العمة ماري. بدت مذهولة. اضطربت عيناها للحظة. "*دافيد*؟ أوه، دافيد بخير. شكراً لك. إنه هنا، تعلمين ذلك"، أجابت العمة ماري وهي تمسكني بقوة.

"نعم"، قالت أمي بصوت جاف. "أستطيع رؤية ذلك". شعرت بكره أمي يحترق داخلي. "وكيف هو حاله مع بقية الأولاد؟"

أمالت العمة ماري رأسها إلى جانب واحد. "جيد. *دافيد* مهذب جداً ويساعد كثيراً في المنزل. إنه يحاول دوماً المساعدة"، أجابت وهي تدرك تماماً أن أمي لا تريد التحدث معي مباشرة.

"حسناً... يجدر بك توخي الحذر"، حذرتها أمي. "لقد حاول إيذاء بقية الأولاد. فهو لا يتفق كثيراً مع الآخرين. *الولد* عنيف. إنه يحتاج إلى رعاية خاصة وانضباط قوي. أنت لا تعرفين *الولد*".

شعرت بعضلات ذراع العمة ماري تتحول إلى كتلة صلبة.

انحنت إلى الأمام، ومنحت أمي أفضل ابتساماتها- تلك الابتسامة التي تحب العمة ماري صفع أمي بها. "*دافيد* شاب مهذب. قد يكون دافيد صعب المراس... لكن هذا متوقع نظراً لما عاناه *دافيد*!"

أدركت فجأة ما يحدث. كانت أمي تحاول السيطرة على العمة ماري، لكن أمي تخسر معركتها. أحنيت كتفيّ إلى الأمام ونظرت إلى أمي على نحو خجول فيما رحت أحدق في السجادة. لكن في الداخل، أصبحت أذناي مثل رادار يلتقط كل العبارات والحروف. أخيراً، قلت لنفسي، *نجح أحدهم في وضع أمي في مكانها الصحيح. نعم!*

كلما سمعت نبرة العمة ماري تتغير تجاه أمي، ازداد إشراق وجهي. كنت أستمتع في ذلك. رفعت رأسي قليلاً إلى الأعلى. نظرت مباشرة إلى عينيّ أمي. ابتسمت في داخلي. *حسناً، أليس هذا جميلاً. إنه بشأن الوقت*، قلت لنفسي. وفيما كنت أصغي إليهما، بدأ رأسي يتمايل من اليسار إلى اليمين، مراراً وتكراراً، كأني أشاهد مباراة في كرة المضرب. حاولت العمة ماري مجدداً دفع أمي للاعتراف بي. حنيت رأسي امام أمي كما لو أني أوافق علناً مع العمة ماري.

بدأت أشعر بثقة كبيرة. أنا *شخص*. أنا إنسان، قلت لنفسي. أحسست أن أنحاء جسمي بدأت تسترخي. لم أعد مذعوراً أبداً. وأخيراً، أصبح كل شيء على ما يرام- إلى أن سمعت الهاتف يرنّ. استدار رأسي إلى اليمين فيما كان هاتف المطبخ يرنّ. أحصيت الرنات، على أمل أن يأتي أحدهم ويرفع السماعة. أصبحت متوتراً

بعد الرنة الثانية عشرة. استدارت العمة ماري نحو المطبخ. أمسكت بذراعها. *هيا*، قلت لنفسي. *الرقم خطأ*. أقفل الخط. لكن الهاتف استمر في الرنين- 16، 17، 18 مرة. أقفل! أقفل! شعرت أن العمة ماري تنحني إلى الأمام لتنهض. أبقيت يدي على ذراعها، محاولاً إجبارها على البقاء. وحين وقفت، تبعتها. تشبثت يدي اليمنى بذراعها الأيسر. توقفت في منتصف الطريق وأفلتت يدي، الإصبع تلو الآخر. "دافيد، أرجوك. إنه الهاتف فقط. بحق السماء، لا تكن فظاً. عد الآن إلى هناك". وقفت جامداً. نظرت إلى عينيّ العمة ماري لبرهة. فهمت العمة ماري. أومأت برأسها. "حسناً"، قالت بصوت منخفض. "هيا، يمكنك البقاء معي".

تنفست الصعداء فيما تبعت قدميها إلى المطبخ. فجأة، شعرت أن ذراعي اليسرى ترتدّ إلى الخلف. فقدت توازني تقريباً. ناضلت بقوة لاسترداد توازني. أغلقت عينيّ وعضضت شفتي. بدأت ساقاي ترتجفان. كانت أمي على مسافة إنشات مني. جعلني نَفَسها الثقيل والكريه أرتعش. طغى اللون الأحمر الداكن على وجه أمي. عرفت أن عينيها تتقدان شراً من وراء نظارتها. حاولت البحث عن مخلصي، لكن العمة ماري دخلت إلى المطبخ.

حدّقت في السجادة، وتمنيت أن تبتعد عني. ضغطت أمي بقوة على ذراعي. "أنظر إليّ!". أصبت بالجمود. أردت الصراخ، لكن صوتي أصبح أخرساً فجأة. ثبتت عينيها الشريرتين في عينيّ. أغلقت عينيّ حين شعرت أن رأس أمي يميل أكثر نحو وجهي. أصبح صوت أمي الرتيب شريراً فجأة. "ولد حقير، أليس كذلك؟

حسناً، لا تبدو طويلاً جداً الآن، أليس كذلك؟ ماذا جرى؟ هل تركتك العمة ماري"، قالت بصوت ساخر. ثم جعلتني أمي قريباً جداً من وجهها بحيث استطعت شمّ نفسها والشعور بقطرات لعابها تتساقط على وجهي. أصبح صوت أمي بارداً جداً. "هل تعرف ما الذي فعلته بحق الجحيم؟ هل تدرك؟ الأسئلة التي طرحوها عليّ؟ هل تدرك الإحراج الذي كلّفته *لهذه العائلة*؟"، سألت أمي فيما بسطت يدها اليسرى فوق إخوتي الجالسين قربها.

بدأت ركبتاي ترتجفان. أردت الذهاب إلى الحمام والتبويل. ابتسمت أمي وكشفت عن أسنانها الصفراء الداكنة. "يظنون أني حاولت إيذاءك. لماذا أفعل ذلك؟"

حاولت الالتفات نحو المطبخ، وبالكاد سمعت صوت العمة ماري على الهاتف.

"أيها الولد"، قالت أمي. "إفهم ذلك جيداً. لا أهتم بما يقولونه! لا أهتم بما يفعلونه. لم تنتهِ من ذلك بعد! سوف أعيدك! هل تسمعني؟ سوف *أعيدك*!"

حين سمعت العمة ماري تغلق السماعة، أفلتت أمي يدي ودفعتني بعيداً. جلست في الكرسي العريض وشاهدت مخلّصتي تدخل إلى غرفة الجلوس وتجلس قربي. "أنا آسفة بشأن ذلك"، قالت العمة ماري.

أخفضت أمي عينيها ولوّحت بيدها. فجأة، أصبحت مهيبة. "ماذا؟ الهاتف؟ لا مشكلة. عليّ... أعني، علينا الذهاب في أية حال".

نظرت خلسة إلى إخوتي. كانت عيونهم جامدة. حدّقت فيهم،

وتساءلت عن رأيهم فيّ. وباستثناء كيفن، الذي ما زال يدبّ على الأربعة، بدا أن الثلاثة الباقين أرادوا قذفي خارجاً والبصق عليّ. أعرف أنهم يكرهونني، وشعرت أني أستحق ذلك لأني كشفت سرّ العائلة.

حاولت تخيّل معنى العيش بالنسبة إليهم مع أمي في الوقت الحاضر. صلّيت كي يسامحني إخوتي نوعاً ما. شعرت أني شاذ عن القانون. صلّيت أيضاً حتى لا تكون عدوى الكراهية انتقلت إليهم. شعرت بالأسى تجاههم، إذ توجب عليهم العيش في جحيم حقيقي.

بعد جولة أخرى من المزاحات والتحذيرات النهائية من أمي إلى العمة ماري، رحلت العائلة. وحين سمعت صوت عجلات سيارة أمي تدوس على الصخور أثناء ابتعادها، بقيت ملتصقاً بالكرسي. جلست في غرفة الجلوس طيلة فترة بعد الظهر، وأنا أتأرجح على الكرسي وأكرر إنذار أمي مراراً وتكراراً: "سوف أعيدك. سوف أعيدك".

في ذلك المساء، لم أستطع الأكل. تقلّبت كثيراً في السرير إلى أن جلست أخيراً ممسكاً بركبتيّ. كانت أمي محقة. عرفت في قرارة نفسي أنها ستعيدني. حدّقت خارج نافذة غرفتي. استطعت سماع صوت الرياح وهي تنفخ أعلى الأشجار فتحتك الأغصان ببعضها البعض. بدأ صدري يضيق. رحت أبكي. عرفت في تلك اللحظة أنه لا مجال لي للفرار.

في اليوم التالي، لم أستطع التركيز في المدرسة. تجوّلت في ملعب المدرسة مثل الميت. وفي فترة لاحقة من بعد الظهر، التقيت بالآنسة غولد في منزل العمة ماري. "دافيد، سوف نذهب إلى

المحكمة بعد يومين. أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة لتوضيح قضيتنا. موافق عزيزي؟" سألتني فيما الابتسامة تعلو وجهها.

رفضت الكلام وجلست في طرف الأريكة. لم أستطع النظر إلى الآنسة غولد. تمتمت بصوت منخفض: "لا أعتقد أنه يجدر بي قول أي شيء".

تعرضت الآنسة غولد لصدمة كبيرة. بدأت تتكلم، لكني رفعت يدي وقاطعتها. أنكرت من ثم قدر ما أستطيع من الحقائق، زاعماً أني كذبت بشأن كل شيء. لقد سببت كل مشاكل المنزل. قلت لها إني وقعت عن السلم، وارتطمت بمقابض الأبواب، وضربت نفسي، وطعنت نفسي. ثم بكيت أمام الآنسة غولد قائلاً إن أمي كانت امرأة جميلة ولطيفة، تدير البستان المثالي، والمنزل المثالي، والعائلة المثالية، وإني أتوق للاستحواذ على انتباهها بسبب إخوتي. كل المشاكل هي غلطتي.

عجزت الآنسة غولد عن الكلام. جاءت بسرعة إلى حيث أجلس. حاولت مرات عدة الإمساك بيدي. لكني أبعدت أصابعها الجميلة. شعرت بإحباط كبير لدرجة انها بدأت تبكي. وبعد ساعات عدّة ومحاولات عدّة، نظرت إليّ الآنسة غولد فيما خطوط الدموع الجافة وبقع الكحل الأسود غطت وجهها. "دافيد، حبيبي"، شهقت. "أنا لا أفهم. لماذا لا تتحدث معي؟ أرجوك حبيبي".

حاولت من ثم تبديل الأسلوب. "ألا تدرك مدى أهمية هذه القضية بالنسبة إليّ؟ ألا تعرف أني لا أتحدث في مكتبي إلا عن ولد صغير وجميل له الشجاعة الكفاية لإخباري سرّه؟"

نظرت إلى الآنسة غولد وأجبتها ببرودة: "لا أظن أني أريد قول أي شيء".

انحنت صوبي الآنسة غولد وحاولت إجباري على النظر في وجهها. "دافيد، أرجوك..." توسلتني.

لكنها لم تكن موجودة بالنسبة إليّ. أدركت أن مساعدتي الاجتماعية تبذل كل ما بوسعها لمساعدتي، لكني كنت أخشى تهديد أمي أكثر من أقوال الآنسة غولد. فمنذ أن قالت لي أمي "سأعيدك"، أدركت أن كل شيء في عالمي الجديد ضاع.

تمددت الآنسة غولد لتمسك بيدي. لكني سحبت أصابعي بعيداً وأدرت لها ظهري. "دافيد جايمس بيلزر!"، صرخت بصوت عالٍ. "هل لديك أية فكرة عما تقوله؟ هل تفهم ما تقوم به؟ من الأفضل لك أن تخبر قصتك بأمانة! سوف يتوجب عليك اتخاذ قرار حاسم عما قريب، ومن الأفضل أن تكون مستعداً له!"

جلست الآنسة غولد مجدداً على الأريكة، وأقحمتني بين ركبتيها وطرف الأريكة. "دافيد، عليك أن تفهم أن هناك بعض اللحظات القليلة المهمة في حياة الشخص، بحيث أن القرارات والخيارات التي تتخذها الآن قد تؤثر فيك لبقية حياتك. أنا أستطيع مساعدتك، لكن فقط إذا سمحت لي بذلك. هل تفهم؟"

استدرت بعيداً عنها. فجأة، نهضت الآنسة غولد بقوة عن الأريكة. أصبح وجهها أحمر اللون وبدأت يداها ترتجفان. حاولت حبس مشاعري، لكن نوبة من الغضب انبثقت فجأة مني. "لا!"، صرخت. "ألا تفهمين؟ ألا تستوعبين؟ سوف تأخذني مجدداً. سوف

تفوز. إنها تفوز دوماً. ما من أحد قادر على وقف أمي. لا أنتِ ولا أي شخص آخر. سوف تأخذني مجدداً".

أصبح وجهها خالياً من أي تعبير. "أوه، ياإلهي!"، قالت الآنسة غولد متعجبة فيما كانت تنحني للإمساك بي. "هل هذا ما قالته لك؟ دافيد، حبيبي...". امتدت ذراعاها لتطويقي.

"لا!"، صرخت. "هلا تركتني وشأني؟ فقط... إذهبي... بعيداً!"

وقفت الآنسة غولد فوقي لبضعة لحظات، ثم استدارت وخرجت من الغرفة. وبعد بضعة لحظات، استطعت سماع صوت باب المطبخ وهو يغلق بقوة. هرعت إلى المطبخ من دون تفكير، لكني وقفت جامداً وراء الباب. شاهدت عبر الزجاج الآنسة غولد وهي تنزل في الممشى المنحدر. أفلتت الأوراق من قبضتها وحاولت التقاط بعضها في الهواء. "اللعنة!"، صرخت بقوة. تناثرت الأوراق فيما كانت تحاول يائسة جمعها في كومة واحدة. وما إن نهضت عن الأرض حتى سقطت مجدداً وجرحت ركبتها اليمنى. استطعت مشاهدة الأسى على وجهها فيما كانت تضع يدها فوق فمها. حاولت الآنسة غولد مجدداً الوقوف، وإنما هذه المرة بحذر أكبر، فيما كانت تتجه نحو السيارة. أغلقت باب السيارة بقوة وأحنت رأسها فوق عجلة القيادة. وفيما وقفت وراء الباب الزجاجي، استطعت سماع الآنسة غولد –ملاكي– وهي تبكي من دون أية سيطرة. وبعد بضعة دقائق، أدارت سيارتها وانطلقت بسرعة.

وقفت وراء الباب الزجاجي في المطبخ وبكيت في داخلي. عرفت أني لن أسامح نفسي أبداً، لكن الكذب على الآنسة غولد كان

الأسهل بين الحلين. وقفت لوحدي، مرتبكاً، وراء الباب الزجاجي. شعرت أني وفرت الحماية لأمي من خلال الكذب وأني فعلت الشيء الصحيح. أدركت أن أمي ستعيدني إليها ولا يستطيع أحد منعها. لكن حين تذكرت مدى لطافة الآنسة غولد في كل شيء، أدركت فجأة الموقف الرهيب الذي وضعتها فيه. لم أقصد أبداً أن أؤذي أحداً، خصوصاً الآنسة غولد. أصبحت كالصنم فيما أنا واقف وراء الباب الزجاجي. تمنيت فقط لو أني أستطيع الزحف تحت صخرة والاختباء للأبد.

الفصل

3

المحاكمة

بعد يومين، أخذتني الآنسة غولد إلى محكمة المقاطعة. بدأت الرحلة في صمت تام. جلست عند الطرف الأقصى للمقعد بمحاذاة الباب، ورحت أحدق في المشاهد الطبيعية. توجهنا شمالاً على الطريق السريع رقم 280 بمحاذاة قناة المياه، تلك القناة التي اعتادت العائلة على المرور قربها أثناء توجهنا إلى منتزه النصب التذكاري قبل أعوام. وأخيراً، كسرت الآنسة غولد الجليد، وشرحت بصوت لطيف أن القاضي سيقرر اليوم ما إذا كنت سأصبح "تابعاً دائماً للمحكمة" أو سأعود إلى وصاية أمي. لم أفهم جيداً معنى "التابع للمحكمة"، لكنني أدركت ما تعنيه العودة إلى وصاية أمي. ارتعشت عند سماع الجزء الأخير من عبارة الآنسة غولد. نظرت إليها وتساءلت ما إذا كنت سأعود مع الآنسة غولد بعد المحاكمة أو سأجلس في سيارة أمي. سألت الآنسة غولد ما إذا كانت هناك إمكانية بأن تعيدني أمي معها اليوم. مدّت الآنسة غولد يدها لتمسك بيدي وأومأت برأسها إيجاباً. انحنى رأسي إلى الأمام. لم أكن أملك الطاقة للمقاومة أكثر. لم أستطع النوم منذ لقائنا الأخير. وكلما اقتربت الآنسة غولد من المحكمة، شعرت أني أفلت أكثر فأكثر من زمام أمانها لأعود إلى مخالب أمي.

تحوّلت يداي إلى قبضة محكمة. بدأ الآن العد العكسي.

أحسست بملاطفة ناعمة على يدي اليسرى. ارتفعت ذراعاي لحماية وجهي. لكني احتجت إلى برهة لأدرك أني في أحلام اليقظة. أخذت نفساً عميقاً وحاولت تهدئة نفسي. "دافيد"، بدأت الآنسة غولد، "أصغِ إليّ جيداً. إنها بام التي تتحدث إليك وليس الآنسة غولد، مساعدتك الاجتماعية. هل تفهم؟"

تنهّدت بعمق. أدركت أننا أصبحنا على بعد أميال فقط من المحكمة. "نعم، سيدتي. أفهم".

"دافيد، ما فعلته أمك معك كان خطأ، خطأً كبيراً. فما من ولد يستحق مثل هذه المعاملة. إنها مريضة". كان صوت بام ناعماً وهادئاً. بدت على وشك البكاء. "هل تذكر بعد ظهر يوم الاثنين حين قلت لك إنه سيتوجب عليك يوماً ما اتخاذ قرار؟ حسناً، هذا هو ذاك اليوم. والقرار الذي تتخذه اليوم سيؤثر في بقية حياتك. وحدك تستطيع تقرير مصيرك. لقد بذلت كل ما بوسعي. وقد بذل الجميع كل ما بوسعهم- أساتذتك، ممرضة المدرسة، العمة ماري، الجميع. لقد حان الآن دورك.

"دافيد، لقد شاهدت فيك الكثير. أنت شاب شجاع جداً. فلا يستطيع عدد كبير من الأولاد إخبار أسرارهم. سوف تنسى كل هذه التجربة يوماً ما". توقفت الآنسة غولد لبرهة. "دافيد، أنت شاب شجاع جداً".

"حسناً، لا أشعر أني شجاع جداً يا آنسة غولد. أشعر... أني... خائن".

"دافيد"، ابتسمت بام. "لست خائناً! ولا تنسَ ذلك!"

"إذا كانت مريضة"، سألتها، "ماذا إذاً عن بقية إخوتي؟ هل ستساعدينهم أيضاً؟ ماذا لو ألحقت الأذى بأحدهم؟"

"حسناً، ينحصر الآن كل اهتمامي فيك أنت. لا أملك أية معلومة مفادها أن أمك تلحق الأذى بإخوتك. علينا الانطلاق من مكان ما. لذا، فلنعالج كل خطوة على حدة. موافق؟ ودافيد...". أطفأت الآنسة غولد السيارة. لقد وصلنا إلى المحكمة.

"نعم سيدتي؟"

"أريدك أن تعلم أني أحبك".

نظرت في أعماق عينيّ الآنسة غولد. كانتا نقيتين جداً. "أنا أحبك فعلاً"، قالت وهي تلاطف جانب وجنتي.

رحت أبكي وأحنيت رأسي. رفعت الآنسة غولد ذقني بأصابعها. ضغطت برأسي على يدها. بكيت لأني أدركت أني سأخون حب بام بعد دقائق معدودة.

بعد بضعة دقائق، دخلنا إلى قاعة الانتظار في محكمة المقاطعة، وأمسكت الآنسة غولد بيدي. كانت أمي والأولاد ينتظرون على أحد المقاعد. أومأت الآنسة غولد برأسها إلى أمي أثناء مرورنا أمامها. نظرت خلسة إليها. كانت أمي ترتدي فستاناً جميلاً وصففت شعرها. كان رون يضع جبيرة على ساقه.

لم يدرك أحد حضوري، لكني أحسست بكره أمي. جلست أنا والآنسة غولد في انتظار دورنا. كان الانتظار لا يحتمل. وضعت رأسي تحت ذراعي اليمنى وتمتمت للآنسة غولد طالباً منها قلماً وورقة. باشرت في كتابة ملاحظة صغيرة.

إلى أمي،

أنا آسف جداً. لم أشأ أبداً الوصول إلى هذا. لم أقصد إفشاء السر. لم أقصد إيذاء العائلة. هلا سامحتني؟

ابنك، دافيد

قرأت الآنسة غولد الملاحظة وأومأت برأسها، فمنحتني الإذن لأسلّم الملاحظة إلى أمي. توجهت نحو أمي، وأصبحت مجدداً ولداً اسمه "هو" - فقد التصقت يداي بجانبي وانحنى رأسي نحو الأرض. انتظرت أمي حتى تقول شيئاً ما، أو تصرخ في وجهي، أو تصفعني بأصابعها أو أي شيء. لكنها لم تلاحظ وجودي. رفعت رأسي إلى الأعلى، وتأملت جسمها بعينيّ، ثم رفعت يدي ممسكاً بالملاحظة. انتزعت أمي الورقة، قرأتها، ثم مزقتها إلى قسمين. أحنيت رأسي قبل العودة إلى الآنسة غولد التي وضعت ذراعها حول كتفي.

بعد دقائق عدّة، دخلت أنا والآنسة غولد وأمي وإخوتي الأربعة إلى المحكمة. جلست وراء طاولة داكنة، وحدّقت ملياً في الرجل الواقف أمامي الذي كان يرتدي فستاناً أسود. "لا تخف"، همست في أذني الآنسة غولد. "قد يطرح عليك القاضي بعض الأسئلة. من المهم جداً أن تخبره الحقيقة"، قالت وهي تشدد على الجزء الأخير من عبارتها.

أدركت تماماً أنه سيتم تقرير مصيري النهائي خلال الدقائق القليلة التالية. مددت يدي ونقرت بعصبية على يد الآنسة غولد. "أنا

آسف جداً للمشاكل التي سببتها لك...". أردت إخبارها الحقيقة- الحقيقة الفعلية- لكني لم أملك الشجاعة. فقد نجحت قلّة النوم في استنزاف كل قوتي الداخلية. ابتسمت لي الآنسة غولد لطمأنتي، كاشفة عن أسنانها البيضاء اللؤلؤية. فجأة، ملأت رأسي رائحة خفيفة وإنما مألوفة. أغلقت عينيّ وأخذت نفساً عميقاً...

وقبل أن أدرك الأمر، بدأ كاتب المحكمة بتلاوة رقم وذكر اسمي. وعند ذكر اسمي، رفعت رأسي نحو القاضي الذي عدّل نظاراته وألقى نظرة خاطفة عليّ. "نعم، أوه.... قضية بيلزر. نعم. أفترض أن ممثل المقاطعة موجود؟"، سأل القاضي.

تنحنحت الآنسة غولد وغمزتني. "ها قد بدأنا. تمنَّ لي التوفيق".

أومأ القاضي إلى الآنسة غولد. "توصيات؟"

"شكراً لك أيها القاضي. بما أن المحكمة مدركة تماماً للقضية من خلال التقارير المسهبة لفحوصات طبيب الأطفال، والمقابلات مع الأساتذة السابقين للقاصر، والمقابلات الأخرى وتقاريري، توصي المقاطعة بأن يصبح دافيد بيلزر تابعاً دائماً للمحكمة".

حدّقت في الآنسة غولد. بالكاد كنت أسمع صوتها. كنت أعلم أنها هي التي تتحدث، لكن صوتها كان أجشاً. نظرت بسرعة إلى تنورتها. كانت ركبتاها ترتجفان. أغلقت عينيّ. *أوه، يالهي*، قلت لنفسي. وحين فتحت عينيّ، كانت الآنسة غولد قد عادت إلى مقعدها وغطّت يديها المرتعشتين.

"سيدة بيلزر؟ هل من شيء تودّين ذكره؟"، سأل القاضي.

التفتت كل الرؤوس إلى اليمين وتوقفت عند أمي. في البداية، ظننت أن أمي لم تسمع القاضي. فقد كانت تحدّق ببساطة في مقعده فيما وجهها خالٍ من أي تعبير. وبعد لحظات، أدركت ما كانت أمي تفعله. كانت تحاول حمل القاضي على الإذعان.

"أوه... سيدة بيلزر؟ هل ترغبين في قول أي شيء يتعلق بابنك، دافيد؟"

"ليس لديّ شيء لأقوله"، قالت أمي بنبرة باردة.

فرك القاضي جبينه ثم هزّ رأسه. "حسناً، شكراً لك سيدة بيلزر".

التفت القاضي من ثم إلى الآنسة غولد. "إنها قضية مربكة وغير اعتيادية. لقد قرأت ملياً كل البيانات، وشعرت بالارتباك نتيجة..."

فقدت الإحساس بالوقت حين بدأ القاضي يتحدث على نحو غير مترابط. وجدت نفسي أنقبض من الداخل. عرفت أن المحاكمة ستنتهي في غضون دقائق وسأعود مجدداً إلى أمي. اختلست النظر إلى اليمين لمشاهدة أمي. كان وجه أمي بارداً وجامداً. أغلقت عينيّ، وتخيلت نفسي مجدداً في أسفل السلم، جالساً على متن يدي، جائعاً- مثل حيوان على وشك الموت. لم أعرف ما إذا كان يجدر بي العودة إلى تلك الحياة مجدداً. أردت فقط أن أكون بعيداً عن الألم والذل.

"دافيد؟"، همست في أذني الآنسة غولد فيما راحت تلكزني. "دافيد، يريدك القاضي أن تنهض".

جمعت أفكاري بوضوح. لقد غفوت مجدداً. "ماذا؟ لا أفهـ...".
أمسكت الآنسة غولد بمرفقي. "هيا دافيد. القاضي ينتظر".

حدّقت في القاضي الذي أومأ إليّ بضرورة الوقوف. شعرت كأن تفاحة علقت في حنجرتي. وفيما دفعت الكرسيّ إلى الخلف، أمسكت الآنسة غولد بيدي اليسرى. "كل شيء على ما يرام. ما عليك سوى إخبار القاضي بالحقيقة".

"حسناً، أيها الشاب"، بدأ القاضي. "الخلاصة هي التالية: إذا رغبت المحكمة في ذلك وإذا وجدت أن العيش في منزلك غير مرغوب... يمكن أن تصبح تابعاً دائماً للمحكمة، أو يمكنك العودة والعيش مع أمك في منزلك".

توسّعت عيناي. لم أصدق أن اللحظة الحاسمة أتت أخيراً. التفت جميع من في الغرفة الصغيرة نحوي. ثمة سيدة مميزة بشعرها الأبيض الرمادي أوقفت أصابعها فوق آلة كاتبة غريبة المظهر. فكلما كان يتحدث شخص ما، كانت هذه السيدة تضغط على المفاتيح الشبيهة بأدوات الضغط. ابتلعت بصعوبة وشبكت يديّ. شعرت من جهة اليمين بأن رادار الحقد عند أمي بات قيد التشغيل.

حاولت النظر إلى القاضي. ابتلعت بصعوبة مرة أخرى قبل أن أباشر في تلاوة عباراتي المكررة عن كيفية كذبي وتسببي كل المشاكل في المنزل وعدم إساءة أمي إليّ أبداً. ومن زاوية عيني اليمنى، استطعت مشاهدة عينيّ أمي وهما شاخصتين فيّ.

تجمّد الوقت. اغلقت عينيّ وتخيلت نفسي عائداً إلى المنزل مع أمي، حيث تبدأ بضربي وأجبر على العيش في أسفل السلم، منتظراً المجموعة الثانية من الإعلانات، متمنياً لو أني أستطيع الفرار يوماً ما لأصبح ولداً عادياً يسمح له التخلص من الخوف واللعب خارجاً...

*

من دون معرفة الآنسة غولد، التفتت إليها وتنشقت مجدداً. فجأة، لفحني عطر الآنسة غولد. إنه العطر نفسه الذي استعملته حين عانقتني أو أمسكتني حين جلسنا عند طرف الأريكة. شاهدت نفسي ألعب بشعرها.

فجأة تبدّل عقلي وشاهدت نفسي ألعب خارجاً، أضحك مع بقية الأولاد، ألعب كرة السلة، وأبحث عن رفاقي في لعبة المخبأ، وأركض بسرعة فائقة في منزل العمة ماري. وفي نهاية النهار، يتم سحبي إلى الداخل بعد الانتهاء من صيد الأفاعي أو اللعب قرب الجدول. فتحت عينيّ وألقيت نظرة خاطفة على يديّ. ليستا محمرّتين. بالفعل، اكتسب جلدي اسمراراً خفيفاً.

شعرت برادار أمي يخترقني. شعرت أني أنحني إلى اليمين، فيما الخوف يعتريني. تنشقت عطر الآنسة غولد مرة أخرى.

حبست أنفاسي لبرهة، وقبل أن تختفي شجاعتي، صرخت عالياً: "انتم سيدي! أريد العيش معكم! أنا آسف! أنا آسف جداً! لم أقصد الإفشاء! لم أقصد تسبيب أية مشكلة!"

ازدادت قوة رادار الحقد عند أمي. حاولت البقاء ثابتاً، لكن ركبتيّ بدأتا ترتجفان.

"إذاً، فليكن ذلك!"، أعلن القاضي بسرعة. "توصي هذه المحكمة بأن يصبح القاصر دافيد جايمس بيلزر تابعاً للمحكمة ويبقى كذلك حتى عيد ميلاده الثامن عشر. أغلقت هذه القضية!"، قال القاضي بسرعة، فيما هو يطرق على قطعة خشبية.

شعرت أني مشلول. لم أكن واثقاً مما جرى. جاءت إليّ الآنسة

غولد وعانقتني بقوة لدرجة أني أحسست أنها ستسحق ضلوعي. لم أستطع سوى مشاهدة غابة من الخصل الشقراء، وانسدّ فمي بكتل من شعر الآنسة غولد. وبعد لحظات قليلة، استعادت الآنسة غولد هدوءها. مسحت دموعي وأنفي الجاري. نظرت إلى مقعد القاضي. ابتسم القاضي إليّ. ردّيت له الابتسامة. ولبرهة قصيرة، أحسست أنه غمزني بعينه.

شعرت أن رادار الحقد عند أمي اضطرب ثم انطفأ. أمسكت الآنسة غولد بكتفيّ. "دافيد! أنا فخورة جداً بك!". وقبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر، همست قائلاً: "أنا آسف جداً. لم أقصد الكذب عليك في ذلك اليوم. أنا آسف لأني جعلتك تبكين. هلا سامحتني؟ أريد فقط أن..."

رفعت الآنسة غولد شعري عن عينيّ. "شش! كل شيء على ما يرام. فهمت ما كنت تقوم به. لكن أمك تريد الآن..."

"لا"، صرخت. "سوف تأخذني بعيداً!"

"تريد فقط أن تقول لك وداعاً"، أكدت لي الآنسة غولد.

فيما كنا نشق طريقنا، أنا والآنسة غولد، خارج المحكمة، شاهدت أمي تبكي أيضاً. دفعتني الآنسة غولد برفق إلى الأمام. ترددت إلى أن تأكدت من أن الآنسة غولد ستبقى قريبة مني. وكلما اقتربت أكثر من أمي، ازداد بكائي. ثمة جزء مني لم يكن يرغب في ترك أمي. فتحت لي أميّ ذراعيها. ركضت إليهما. عانقتني أمي كما لو كنت طفلاً. كانت مشاعرها صادقة.

أفلتتني أمي وأمسكت بيدي واصطحبتني إلى سيارتها. لم أشعر

بأي خوف. ملأت أمي السيارة بثياب جديدة والكثير من الألعاب. كنت مذهولاً. فتحت فمي على الملأ فيما تابعت أمي ملء ذراعيّ.

خانني صوتي فيما كنت أقول الوداع لإخوتي الذين هزوا رؤوسهم استجابة لي. شعرت أني خائن، وظننت أنهم يكرهونني لأني أفشيت سر العائلة.

"سوف أفتقدك"، قالت أمي باكية.

وقبل أن أفكر، أجبتها: "سأفتقدك أنا أيضاً".

صحيح أني كنت سعيداً بقرار القاضي، لكن الحزن غمرني. شعرت أني ممزق بين حريتي وانفصالي عن أمي والعائلة. كانت الأمور جيدة لدرجة لا تصدق- حريتي، الثياب الجديدة، الألعاب. لكن الشيء الوحيد الذي بقي عالقاً في ذهني هو دفء عناق أمي.

"انا آسف جداً لكل شيء"، قلت لها. "أنا فعلاً آسف. لم أقصد إفشاء السر".

"ليست.. "، بدأت أمي. تغيرت عيناها. "لا بأس". أصبح صوت أمي جامداً. "الآن، أصغِ إليّ. لديك فرصة جديدة. إنها بداية جديدة لك. أريدك أن تكون ولداً جيداً".

"سأفعل"، قلت لها فيما كنت أمسح دموعي.

"لا!"، قالت بصوت بارد. "أنا أعني ذلك! يجب ألا تكون فقط ولداً جيداً، وإنما ولداً أفضل!".

نظرت إلى عينيها المنتفختين. شعرت أن أمي تريد الأفضل لي. أدركت أنه قبل دخول أمي إلى المحكمة، كانت تعرف النتيجة مسبقاً.

"سأكون جيداً. سأبذل ما بوسعي"، قلت لها فيما كنت أسوّي كتفيّ

مثلما كنت أفعل في الدور السفلي قبل أعوام. "سأجعلك فخورة بي. سأبذل ما بوسعي لجعلك فخورة".

"هذا ليس مهماً"، قالت أمي. وقبل أن تذهب بعيداً، عانقتني للمرة الأخيرة. "*عش حياة سعيدة*".

مسحت المخاط الجاري من أنفي. لم أنظر إلى الخلف. فكرت في آخر عبارة قالتها أمي. عش حياة سعيدة. شعرت أنها تتخلى عني وكدت أنهار قبل أن أصل إلى الآنسة غولد التي ساعدتني على وضع ممتلكاتي الجديدة في سيارتها. وقفنا معاً فيما ابتعدت أمي في السيارة. لوّحت للجميع، لكن أمي هي الوحيدة التي ردّت لي التحية. كانت نافذتها مرفوعة لكني راقبت شفتيّ أمي فيما كانت تكرر: "عش حياة سعيدة".

"ما رأيك في البوظة؟"، سألت الآنسة غولد، كاسرة التوتر.

وقفت منتصباً وابتسمت. "نعم سيدتي".

أمسكت بام يدي برفق، ولفت أصابعها الطويلة حول أصابعي وأخذتني إلى الكافيتريا. تجولنا ببطء أمام السيارات الأخرى وبعض الأشجار المتناثرة. تنشقت عبير الأشجار، ثم توقفت لأحدق في الشمس. وقفت جامداً لبرهة، أتأمل محيطي. هبّ نسيم ناعم في شعري. لكني لم أرتعش. كان العشب براقاً ولونه أخضر مائل إلى الأصفر. أدركت أن عالمي بات مختلفاً الآن.

توقفت الآنسة غولد للنظر إلى الشمس أيضاً. "دافيد، هل ستكون على ما يرام؟"

"نعم"، ابتسمت. "أريد فقط ألا أنسى اليوم الأول في بقية حياتي!"

الفصل

4

بداية جديدة

بعد انتهاء مفاعيل المحاكمة، أصبحت لامبال.

أدركت تماماً أن أمي لن تستطيع إيذائي جسدياً. لكني ما زلت أحسّ بشعور غريب يقول لي إن أمي موجودة هناك في مكان ما، متأهبة مثل الأفعى، تنتظر الانقضاض والانتقام.

لكن جزءاً آخر مني أدرك أني لن أشاهد أمي أو إخوتي أبداً بعد اليوم. شعرت بالارتباك، وأحسست أني لا أستحق العيش معهم، وأني عديم الجدوى، وأن أمي رمتني بعيداً. حاولت بذل ما بوسعي لأخبر نفسي أني بدأت مرحلة جديدة في حياتي بفضل الخدمات الاجتماعية للمقاطعة ونظام المحكمة. حاولت ما بوسعي لعزل ماضيّ، ودفن تجاربي المريرة في أعماق قلبي. تخيّلت نفسي وأنا أرمي كل ماضيّ.

اعتدت بسرعة على الروتين في منزل العمة ماري، وكذلك على مدرستي الجديدة. ورغم أني كنت عفوياً وحراً في منزل العمة ماري، بقيت مفتقداً إلى الحيوية ومعروفاً بخجلي بين رفاقي في الصف. بدا لي صعباً عقد الصداقات. كنت أجفل بشدة، خصوصاً حين يسألني الأولاد لماذا لا أعيش مع أهلي. وحين كان يصرّ بعض رفاقي، كنت أتمتم وأبتعد. لم أستطع النظر في عيونهم.

وفي أحيان أخرى، كنت أقول بمرح: "أنا ولد ربيب!". كنت

فخوراً لكوني فرد من عائلتي الجديدة. بدأت أكرر هذا القول إلى أن جاء إليّ يوماً أحد الأولاد الأرباب الأكبر سناً في المدرسة وحذرني من إخبار الآخرين بحقيقتي لأن "...الكثير من الأشخاص لا يحبون نوعنا".

"نوعنا؟ ما الذي تقصده؟"، سألته. "نحن لم نرتكب أي خطأ".

"لا تقلق ياأخي الصغير. سوف تعرف قريباً ما يكفي. حافظ على هدوئك وابق فمك مغلقاً". أطعت الأمر وأدركت أني أعيش الآن في عالم آخر من التحيز.

أثناء الفرصة، راقبت بقية الأولاد وهم يضحكون أثناء لعب كرة اليد، فيما بقيت لوحدي أتجول حول المدرسة. مهما بذلت من جهد، ما زال عقلي يذكرني بمدرستي الأخرى في مدينة دالي. تذكرت السيد زيغلر ورسومه المتحركة التي كان يرسمها على أوراقي، وكذلك الاختبارات اللغوية للسيدة وودورث، والركض إلى المكتبة حيث كانت الآنسة هويل تسمع أغنية "حديقة الأخطبوط" لفريق البيتلز على مسجلتها.

لقد فقدت كل اهتمام في مدرستي الجديدة. لم أعد أستوعب المواضيع مثلما كنت أفعل قبل بضعة أسابيع. كنت أجلس وراء المقعد الفولاذي الرمادي، أخربش على أوراقي، وأعدّ الدقائق التي تفصلني عن انتهاء اليوم الدراسي. فما كان يوماً ملاذي أصبح اليوم سجناً يحول بيني وبين اللعب في منزل التربية. لقد تشتت انتباهي وتحول خطي، الذي كان في ما مضى مرتباً وأنيقاً، إلى خربشة حقيقية.

وفي منزل العمة ماري، جعلني حسّي الكبير للدعابة واهتياجي البريء شعبياً بين الأولاد الأرباب الأكبر سناً. وحين كان يؤذن لبعضهم بمغادرة منزل العمة ماري خلال بعد الظهر، كان يسمح لي بمرافقتهم. كانوا يسرقون ألواح الحلوى في بعض الأحيان من المتاجر المحلية. وبما أني لقيت القبول التام واعتدت على سرقة الطعام طوال أعوام، حذوت حذوهم على الفور. فإذا سرق أحدهم لوحين من السكاكر، كنت أسرق أربعة. بدا لي الأمر سهلاً جداً لدرجة أني أصبحت أسطورة بين المجموعة في رحلات بعد الظهر. كنت مدركاً تماماً أني أرتكب خطأ. أدركت أيضاً أن الأولاد الأكبر سناً كانوا يستغلونني، لكني لم أهتم لذلك. فبعد سنوات من العزلة، أصبحت مقبولاً أخيراً ضمن مجموعة.

كانت سرقتي تطال منزل التربية أيضاً. فقد كنت أنتظر حتى يصبح الجميع خارجاً، فأتسلل إلى المطبخ وأسرق شرائح الخبز لأخبئها تحت وسادتي. وفي أواخر الليل، كنت أجلس على سريري وألتهم كنزي، تماماً مثلما تلتهم الفأرة قطعة جبنة. وبعد ظهر يوم أحد، سئمت من الخبز وقررت سرقة قطع الجاتوه من الثلاجة. وفي ساعات الصباح الأولى، استيقظت لأجد جيشاً من النمل يتوجه إلى مقدمة سريري. توجهت بأكبر سرعة وهدوء ممكنين إلى الحمام، ورميت الحلوى في المرحاض مع النمل. في اليوم التالي، فيما كانت العمة ماري تحضّر لنا الغذاء للمدرسة، اكتشفت اختفاء الحلوى واتهمت تيريزا، إحدى الأولاد الأرباب.

ورغم أن تيريزا لقيت عقاباً قاسياً واحتجزت في غرفتها بعد

ظهر ذلك اليوم، بقيت صامتاً. فأنا لم أسرق من منزل العمة ماري لمجرد الإثارة، وإنما للحصول على مخزون من الطعام في حال شعرت بالجوع.

لم تحتج العمة ماري إلى وقت طويل حتى تكتشف أني الشخص المسؤول عن اختفاء الطعام. ومنذ ذلك الحين، باتت العمة ماري تراقبني جيداً في كل أرجاء منزلها وتبذل ما بوسعها للحدّ من مغامراتي بعد الظهر. شعرت بالخجل في البداية لأني خنت ثقتها ولطافتها. لكني من جهة أخرى لم أهتم كثيراً في رأي العمة ماري تجاهي. فهمي الوحيد كان قبولي التام بين بقية الأولاد الأرباب.

انتهى الترحيب بي في منزل العمة ماري قبل حلول الأسبوع الأول من شهر تموز، إذ جرى نقلي إلى أول منزل تربية دائم بالنسبة إليّ. وكما حدث في السابق، حين اصطحبني الشرطي إلى منزل العمة ماري للمرة الأولى، لم أستطع الانتظار حتى أشاهد المنزل الجديد. ألقت أمي الجديدة بالتربية، ليليان كاتنزي، التحية عليّ وعلى الآنسة غولد عند الباب. وفيما كنت أتبع السيدة كاتنزي والآنسة غولد على السلم العريض المؤدي إلى غرفة الجلوس، كنت أمسك جيداً بكيس بني يحتوي على كل ممتلكاتي الخاصة. حرصت في الليلة الفائتة على التأكد من توضيب كيسي وإبقائه بالقرب مني.

فقد عرفت من تجاربي أنه إذا تركت أي شيء خلفي، لن أراه مجدداً. أصبت بصدمة كبيرة حين شاهدت للمرة الأولى الأولاد الأرباب يتحولون إلى وحوش مسعورة كلما غادر ولد منزل العمة ماري. فبعد ثوانٍ على رحيل الولد، ينقضّ الآخرون على غرفته،

فيتحققون تحت السرير، وفي الخزائن وداخل الأدراج- وفي كل مكان- بحثاً عن الثياب والألعاب وكل الأشياء القيّمة. وكانت الجائزة الكبرى تتجلى في العثور على مال نقدي. اكتشفت بسرعة أن حاجة السارقين إلى الأغراض غير مهمة أبداً. فامتلاك شيء ما، مهما كان، يعني مقايضته بأشياء أخرى- مثل الأعمال المنزلية، حلوى آخر الليل أو تبادل المال. وكالعادة، تكيفت بسرعة مع هذا الوضع وكنت أنضم إلى العصابة كلما غادر ولد المنزل. تعلمت أنه بدل اصطحاب الولد إلى السيارة وتمني الحظ الجيد له، يجدر بي قول الوداع في منزل العمة ماري... ومن ثم البقاء قرب غرفة الولد المغادر بحيث أتمكن من الدخول إليها قبل بقية الأولاد. لكن علامة للاحترام، كنا نلتزم جميعاً بعدم الدخول إلى الغرفة قبل رحيل الولد. تعلمت أيضاً أن الصفقات تتم عادة في الليلة التي تسبق، ويكون رفيق الغرفة أول الحاصلين على الغنائم. لذا، قررت أنا أيضاً التخلي عن بعض القمصان والألعاب.

وفيما بدأت أتخيل بقية الأولاد الأرباب وهم ينقضّون على غرفتي القديمة، سمعت السيدة كاتنزي تسألني: "حسناً، دافيد، ما رأيك؟"

كنت لا أزال أمسك بكيسي، فحرّكت رأسي صعوداً ونزولاً قبل أن أجيب: "إنه منزل جميل جداً ياسيدتي".

لوّحت السيدة كاتنزي بإصبعها أمام وجهي. "علينا الآن حسم هذا الموضوع. الجميع هنا ينادونني "ليليان" أو "ماما". يمكنك مناداتي "ماما"".

أومأت برأسي مرة أخرى، وإنما هذه المرة لكلا المرأتين. لم أشعر بالارتياح في مناداة السيدة كاتنزي، وهي سيدة التقيتها قبل بضعة لحظات، بتاتاً.

فيما كانت المرأتان تتحدثان مع بعضهما لبضعة دقائق، انحنت ليليان صوب الآنسة غولد لتستوعب كل كلمة وتهزّ برأسها من جانب إلى آخر. "لا اتصال؟ أبداً؟"، سألت.

"صحيح"، كررت الآنسة غولد. "لا يجدر بدافيد إجراء أي اتصال مع أمه أو إخوته إلا إذا قامت السيدة بيلزر بالمبادرة".

"والوالد؟"، سألت ليليان.

"لا مشكلة. إنه يملك رقم هاتفك ويفترض أن يتصل بك قريباً. لم يشارك والد دافيد في الدعوى القضائية لكني أطلعته على وضع دافيد".

انحنت السيدة كاتنزي أكثر صوب الآنسة غولد. "هل من شيء خاص يجدر بي معرفته؟"

"حسناً"، بدأت الآنسة غولد. "لا يزال دافيد في مرحلة التعديل. إنه شديد الانفعال ويتدخل في كل شيء- وأنا أقصد كل شيء. إنه رشيق الأصابع إذا كنت تفهمين ما أقصد".

كنت جالساً على الأريكة وتصرفت كأني لا أنتبه لهما، لكني استطعت سماع كل كلمة.

"دافيد"، قالت السيدة كاتنزي، "لماذا لا تنتظرنا في المطبخ وسوف أكون معك بعد بضعة لحظات".

تبعت السيدة كاتنزي إلى المطبخ، فيما لا أزال أمسك بكيسي. جلست أمام الطاولة وشربت كوباً من الماء فيما كانت ليليان تغلق الباب

الفاصل بين الغرفتين. استطعت سماع السيدة كاتنزي وهي تجلس مجدداً، لكن المرأتان بدأتا تهمسان. راقبت أرقام ساعة الراديو وهي تزداد كلما مرت دقيقة. وقبل أن أنتبه للأمر، انفتح الباب الفاصل.

ابتسمت لي الآنسة غولد قبل أن تعانقني. "أظن أنك ستحب العيش هنا فعلاً"، قالت لي. "هناك ملعب عام في الجوار، وسيكون لديك الكثير من الأولاد الأرباب لتلعب معهم. سوف أتحقق من وضعك بأسرع وقت ممكن، لذلك تصرف كما يجب".

عانقت الآنسة غولد مرة أخرى بسرعة، وظننت أني سأراها بعد أيام قليلة، فلوّحت لها الوداع من نافذة أعلى السلم. وقبل أن تنطلق الآنسة غولد في الشارع، لوّحت لي للمرة الأخيرة ثم وجهت لي قبلة. حدّقت في النافذة من دون أعرف ما الذي يجدر بي فعله.

"حسناً"، سألت السيدة كاتنزي، "هل ترغب في مشاهدة غرفتك؟"

أشرقت عيناي فيما أمسكت بيدي. "نعم سيدتي".

"تذكر ما قلته لك"، قالت ليليان بنبرة تحذير.

أومأت برأسي. "أنا آسف. أنسى الأشياء في بعض الأحيان".

أخذتني السيدة كاتنزي إلى أول غرفة في الردهة. وبعد وضع ثيابي جانباً، جلست بقربها على السرير المزدوج. "أريد أن أشرح لك بعض الأشياء- أي قواعد المنزل. يجدر بك إبقاء غرفتك نظيفة والمساعدة في إتمام الواجبات المنزلية. لا تدخل إلى غرفة شخص آخر من دون إذنه أولاً. لا يسمح بالكذب أو السرقة في هذا المنزل. إذا أردت الذهاب إلى مكان ما، عليك سؤالي أولاً وإخباري إلى أين ستذهب ومدة غيابك.."

"تقصدين أني أستطيع الذهاب إلى حيث أشاء؟"، سألتها مذهولاً نظراً لتمتعي فجأة بهذا القدر من الحرية غير المتوقعة.

"ضمن المعقول، طبعاً"، أجابت ليليان. "فهذا المنزل ليس سجناً. وطالما أنك تتصرف بمسؤولية، سوف تعامل على هذا النحو. هل كلامي واضح؟"

"نعم، سيدة كاتنزي"، قلت لها بصوت ناعم ومنخفض، علماً أني ما زلت أشعر بالإحراج لمناداتها ماما.

ربّتت السيدة كاتنزي على ساقي قبل مغادرة الغرفة وإغلاق الباب. انحنيت إلى الخلف على السرير لأشم الرائحة العطرة للوسادة. حاولت التركيز على أصوات السيارات التي تجوب الشارع بسرعة إلى أن استسلمت أخيراً للنوم. وفيما بدأ عقلي ينام، بدأت أشعر بالأمان والطمأنينة في موقعي الجديد.

استيقظت لاحقاً على أصوات آتية من المطبخ. بعد مسح عينيّ، خرجت من غرفة النوم متوجهاً إلى المطبخ.

"هل هذا هو؟" سأل شاب له شعر أشقر طويل. "هذا ليس ولداً. إنه قزم".

انحنت ليليان وصفعت المراهق الأشقر الطويل على ذراعه. "لاري! إنتبه إلى كلامك! أرجوك يادافيد إعذره". وتابعت فيما هي تحدّق في لاري: "إنه لاري جونيور. سوف تتعرف إلى لاري الكبير في غضون دقائق".

"هيا يالاري. إنه صغير لكنه ظريف. مرحباً. أنا كوني. ولا أريدك أن تبحث في الأشياء الموجودة في غرفتي. هل فهمت ذلك؟".

وفيما انحنت كوني صوبي، استطعت شمّ عطرها. كانت تملك شعراً لامعاً أسود اللون وأهداباً طويلة، وترتدي فستاناً قصيراً. لم أستطع تمالك نفسي فيما كنت أنظر إلى ساقيها. تراجعت كوني إلى الخلف وأصبح وجهها أحمر اللون. "أمي، إنه منحرف صغير!"

التفتت إلى السيدة كاتنزي. "ما معنى منحرف؟".

ضحكت ليليان. "الشخص الذي لا يجدر به النظر إلى فساتين الشابات!"

لم أفهم. أردت أن أعرف معنى ذلك. باشرت في طرح السؤال نفسه مجدداً حين قاطعتني السيدة كاتنزي. "هذا هو لاري الكبير".

نظرت إلى الأعلى فشاهدت رجلاً عملاقاً له شعر أسود جعد ويضع نظارات محاطة بإطار أسود. كان يملك وجهاً لطيفاً وناعماً. ابتسم لاري الكبير أثناء مصافحتي. "أمي"، قال، "سوف أذهب إلى الاستعراض الليلة. هل تمانعين إذا أخذت دايف معي؟"

ابتسمت ليليان. "لا أمانع، لكن إحرص على الاعتناء به".

"نعم"، تمتم لاري جونيور. "إحرص جيداً كي لا يخاف أو يشاهد شيئاً... كريهاً!"

بعد ساعة تقريباً، بدأنا أنا ولاري الكبير رحلتنا إلى مسرح السينما. أدركت أنه بريء وخجول. أحببته على الفور. وفيما كنا نجوب الشوارع اللامتناهية لمدينة دالي، تحدثنا معاً عن أشياء غير مهمة. كنا نعرف نوعاً ما كيفية تفادي سؤال الآخر عن سبب وجوده في عائلة بالتربية. كان ذلك نوعاً من الشفرة تعلمته أثناء وجودي في منزل العمة ماري. وكلما اقتربنا من المسرح، أصبح لاري الكبير صديقي أكثر فأكثر.

قال لاري إنه شاهد فيلم *العيش والموت* عشرات المرات، ولذلك لم أفهم سبب إصراره على مشاهدته مجدداً. لكن بعد مرور 10 دقائق فقط على بداية العرض، أصبت أنا أيضاً بالجمود. أصبحت مسمّراً أمام مشاهد العنف والموسيقى السريعة التي رافقت الفيلم. بعد سنوات من عيش مغامرة مظلمة ومخيفة، شاهدتها أخيراً على فيلم سينما. فيما كان لاري يحدّق في فتيات البيكيني، تململت بعصبية في مقعدي منتظراً بفارغ الصبر جايمس بوند ليقوم بقراره التالي من الموت، منقذاً في الوقت نفسه العالم من الهلاك. بعد مشاهدة هذا الفيلم، أصبحت شخصية جايمس بوند عالقة في ذهني، تماماً مثلما كان سوبرمان قبل بضعة أعوام.

كان اليوم التالي مميزاً أيضاً. فقد ملأ رودي، زوج ليليان، السيارتين بالأولاد الأرباب وبجبال من الأطعمة للاحتفال بيوم الرابع من تموز في نزهة في الطبيعة في حديقة جونيبيرو سيرا- الحديقة نفسها التي ذهبت إليها حين كنت ولداً صغيراً ما زال يعتبر فرداً من عائلة أمي. حين وصلنا إلى الحديقة، ساعدت في حمل الأوعية والأكياس المليئة بالأغراض، من دون أن أعرف أين أضعها. "ماذا أفعل بهذه"، موجهاً السؤال إلى لا أحد بالضبط.

"دافيد، ضعها في أي مكان"، أجاب رودي.

"لكن الطاولات مليئة كلها بأغراض من بقية الأشخاص"، قلت منتحباً.

وقفت ليليان قرب رودي. شبكا أيديهما. "نعم، دافيد، نعلم ذلك"، قالت. "هؤلاء الأشخاص هم عائلتنا".

نظرت إلى الكبار الذين يشربون الصودا والبيرة. كان الأولاد يركضون في كل اتجاه أثناء لعبة الاختباء. "واو، كل هؤلاء الأشخاص هم أولادك؟".

فجأة، صرخت امرأة. حاولت بالكاد الاختباء في درعي الواقي فيما كانت المرأة تركض باهتياج شديد نحوي وهي تنتعل حذاء خشبياً سميكاً ومضحكاً. "أمي، أبي!"، صرخت المرأة. حاولت من ثم تطويق ذراعيها حول ليليان ورودي. حدقت ملياً في وجهها. لم تكن تشبه السيد أو السيدة كاتنزي.

بكت ليليان ومسحت أنفها، ثم أعطت المنديل إلى المرأة وأغلقت عينيها لبرهة لتستعيد هدوءها. "دافيد، إنها كاتي، إحدى أوائل أولادنا بالتربية".

الآن فهمت. برمت رأسي من جانب إلى آخر، وأنا أجهد عينيّ للنظر إلى أرتال الأشخاص المتدفقين صوب رودي وليليان.

"أمي، أبي. لقد حصلت على وظيفة. أنا متزوجة. أنا أذهب إلى المدرسة الليلية وهذا... هو طفلي الجديد!"، أعلنت كاتي فيما كان رجل شاب له لحية يضع طفلاً ملفوفاً ببطانية صفراء بين ذراعيّ رودي. "أوه، أمي، أبي، أنا سعيدة جداً لرؤيتكما!"، قالت كاتي باكية.

احتشدت مجموعة من الكبار حول آل كاتنزي. تدفقت أرتال من الأولاد الذين راحوا يقفزون صعوداً ونزولاً، ساعين إلى لفت الانتباه، أثناء تبادل الأطفال والقبلات. بعد بضعة دقائق، استأذنت من المجموعة وتوجهت إلى حافة الهضبة. جلست هناك، أحدق في الطائرات التي تقلع من المطار المجاور.

•

"جميل جداً، أليس كذلك؟"، قال صوت مألوف.

التفتت لأشاهد لاري الكبير.

"إنه الشيء نفسه في كل عام، وإنما مع مزيد من الأشخاص. أعتقد أنه يمكنك القول إنهما يحبان الأولاد. ما رأيك؟"، سأل لاري.

"واو! لا شك أنه يوجد مئات الأقارب هنا!" قلت متعجباً. "هل جئت قبلاً إلى هنا؟"

"نعم، السنة الماضية. ماذا عنك أنت؟".

توقفت لبرهة لأتامل طارة الجامبو وهي تدير جانحها إلى الغرب. "حين كنت ولداً..."، قلت فجأة وأنا غير واثق ما إذا كنت أريد قول أي شيء. لقد احتفظت بالكثير لمدة طويلة. نظفت حنجرتي بالتنحنح قبل المتابعة. "كان أهلي- أي أمي وأبي الحقيقيان- يصطحبانني دوماً مع إخوتي الصغار إلى هذه الحديقة حين كنا أولاداً"، قلت مبتسماً. "كنا نمضي النهار بأكمله عند الهضبة، ونلعب على الأرجوحة..."، أغلقت عينيّ لأشاهد نفسي مع رون وستان نلعب كأولاد سعداء. تساءلت عما يفعلانه الآن...

"دايف! هاي، دافيد! بحق الله يادافيد، تعال إلى هنا"، صرخ لاري فيما شبك يديه ببعضهما، كما لو أنهما أصبحتا بوقاً للنفخ.

"آسف"، أجبت بصورة تلقائية. "أظن... أظن أني سأقوم بنزهة".

بعد طلب الإذن من ليليان، نزلت إلى أسفل الهضبة المرصوفة. وبعد دقائق معدودة وجدت نفسي واقفاً على المساحة العشبية نفسها التي كنت أقف عليها قبل زمن. في ذلك الحين، كنت فرداً من عائلة مثالية. أما اليوم فما زلت ولداً يبحث عن ماضيه. توجهت إلى

الأرجوحة وجلست على واحدة سرداء. ركلت الرمل وملأت نعل حذائي ببعض منه. بدأ عقلي يتشتت تدريجياً.

"هاي، سيدي؟ أتريد اللعب أم ماذا؟" سألني ولد صغير.

نزلت عن الأرجوحة وتوجهت بعيداً. شعرت أن أحشائي فارغة. وجدت أمامي، تحت ظلال الأشجار، ثنائياً شاباً يجلس على الطاولة نفسها التي جلس عليها أبي وأمي قبل أعوام. نهضت المرأة ونادت أولادها فيما تضع يديها على ركبتيها- تماماً مثلما كانت تفعل أمي حين تنادي أولادها. التقت أعيننا لبرهة. ابتسمت لي السيدة وأحنت رأسها قليلاً. وحين سمعت أصوات الأولاد يركضون من جهة الأرجوحة، أغلقت عينيّ وتمنيّت لو أني أجد الإجابة على سبب عدم سير الأمور كما يجب معي ومع أمي.

وثمة سؤالان رواداني على الدوام وهما ما إذا كانت أمي أحبتني يوماً ولماذا عاملتني بهذه الطريقة.

في فترة لاحقة من ذلك المساء، أردت التحدث بشدّة مع السيدة كاتنزي لكني لم أستطع. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت متأخراً ودخلت إلى المطبخ. "ليست هنا أيها القزم"، قال لاري جونيور. "عليك إطعام نفسك".

لم أعرف ما الذي يجدر بي فعله. فأنا لا أعرف كيف أطهو، ولا أعرف أين توجد أوعية الحبوب، ولا حتى مكان الحبوب نفسها.

"إذاً"، بدأ لاري جونيور، "سمعت أن أمك كانت تضربك بشدة. أخبرني، كيف كان ذلك؟ أقصد أن يلطّخ أحدهم وجهك بالتراب؟"

لم أصدق ما سمعته. فكلما تواجدت مع لاري جونيور، كان يسعى

دوماً إلى إذلالي. كظمت غيظي وحاولت التفكير في شيء لأقوله. لكني لم أعثر على إجابة لطيفة. بدأت نوبة الغضب تثور في داخلي.

"إذاً، أخبرني أيها الرجل، كيف كان ذلك؟ أقصد، أنا فضولي. فعلاً، كيف يتصرف المرء حين يكون منبوذاً؟ لماذا لم تقاوم؟ ما هو طبعك؟ هل أنت أحمق؟"

استدرت بعيداً عنه وركضت إلى غرفتي. استطعت سماعه وهو يضحك خلفي بعد أن أغلقت الباب. دفنت رأسي في سريري ورحت أبكي من دون أن أعرف السبب. بقيت في الغرفة طوال اليوم.

"سيدة كاتنزي، هل أنا أحمق؟" سألتها في اليوم التالي فيما كانت تقودني إلى المتجر الكبير.

"أحمق؟ دافيد، أين سمعت هذا؟"

لم أرغب في الوشاية بلاري جونيور. لكنه كان وغداً، ولم أحبه في أية حال. كنت لا أزال أشعر بالغضب بسبب رأيه ورأي بقية الأولاد الكبار فيّ. ابتلعت بصعوبة قبل الإجابة على ليليان.

"لا تكترث أبداً للاري"، قالت السيدة كاتنزي. "إنه شاب مضطرب جداً. دافيد، لدينا مجموعة كبيرة من..."

نظرت إليها بدهشة.

""... مزيج كبير من الشبان الذين لهم... حاجات مختلفة. ولاري يمرّ الآن في مرحلة يكون فيها منتفضاً. يريد مواجهة الجميع وأي شيء. تقبّله بصدر رحب. إنه يرفض وجودك وحسب. إمنحه بعض الوقت. موافق؟"

"نعم، سيدتي. أنا أفهم، لكن هل أنا أحمق لأني لم أقاوم؟ أعني،

هل من الملائم محاربة أمك؟"

أوقفت السيدة كاتنزي السيارة في الموقف أمام متنزّه تانفوران. التفتت إلى اليمين وخلعت نظاراتها. "لا، دافيد"، قالت بصوت حازم. "أنت لست أحمقاً لعدم مقاومتك. أنا لا أعرف كل الذي حدث، لكني أعرف أنك لست أحمقاً. تعال الآن معي. أملك هنا شيكاً بقيمة 127 دولاراً من المقاطعة لأشتري لك فيها بعض الثياب. و.."، ابتسمت ليليان. "أخشى أن أنفقه كله. الدرس الأول: إلى التسوق!"

حين أمسكت ليليان بيدي، ارتعشت. "واو! 127 دولاراً! هذا كثير!"

"ليس بالنسبة إلى ولد نامٍ. وأنت تنوي النمو، أليس كذلك؟ هذا كل المال الذي أعطونا إياه هذه السنة. إنتظر حتى يصبح لك أولاد"، قالت ليليان، فيما فتحت باب المتجر.

بعد مرور ساعتين وحمل ثلاثة أكياس من البضاعة، عدنا أنا وليليان إلى المنزل. ابتسمت ابتسامة عريضة أثناء إغلاقي باب غرفتي، ثم بسطت كل ثيابي بأكبر ترتيب ممكن. رتبت القمصان حسب ألوانها، ووضعت ثيابي الداخلية وجواربي مباشرة تحتها. جلست عند قدم السرير لبضعة لحظات قبل ان أفتح الأدراج وأعيد ترتيب ثيابي مجدداً. وفي المرة الرابعة، فتحت الأدراج ببطء. أخرجت منها بهدوء قميصاً كحلياً. كانت يداي ترتعشان. تنشقت رائحة القطن. نعم! قلت لنفسي. *إنها ثيابي!* ثياب لم يلمسها أو يرتديها أحد قبلي. إنها ليست ثياباً بالية أجبرتني أمي على ارتدائها أو ثياباً أعطتني إياها شفقة منها، كانت قد خبأتها منذ الميلاد الماضي، أو ثياباً من العمة ماري ارتداها بقية الأولاد الأرباب قبلي.

"نعم!"، صرخت بصوت عالٍ. ومن دون تفكير، فتحت الأدراج ووضعت كل الأشياء مجدداً على السرير. رحت أعيد توضيب ثيابي إلى ما لا نهاية. ولم أكترث للأمر لأني كنت أستمتع.

بعد بضعة أيام، وقبل موعد الغداء، رفعت ليليان سماعة الهاتف في المطبخ قبل أن تناديني من أمام التلفزيون. "إذاً"، سألتني. "كيف تشعر اليوم؟"

هززت كتفيّ. "جيد، كما أعتقد". اتسعت عيناي. "هل ارتكبت خطأ؟ هل أواجه مشكلة؟"

"لا، لا"، قالت بصوت هادئ. "توقف عن الآن عن هذا. لماذا تقول دوماً ذلك كلما طرح عليك أحدهم سؤالاً بسيطاً؟"

هززت رأسي. فهمت ما قالته، لكني لا أعرف لمَ كنت أشعر دوماً أني على شفير الهاوية كلما طرح عليّ أحدهم سؤالاً. "أنا آسف".

أومأت ليليان برأسها. "فلنذهب لتناول الغداء. لقد طردت لاري جونيور. وسوف يقتصر الأمر علينا نحن الاثنين. موافق؟"

أشرق وجهي. "طبعاً!". كنت أستمتع جداً حين أبقى أنا والسيدة كاتنزي لوحدنا. كنت أشعر أني مميز.

حضّرت ليليان شطيرتين وحملت أنا كيساً من رقاقات البطاطا المقلية. حذّرتني في البداية، ثم أمرتني بإبطاء وتيرة أكلي واستعمال أساليب أفضل على المائدة. استجبت لأوامرها بعدم التهام كل شيء دفعة واحدة أو إقحام الكثير من الطعام في فمي. ابتسمت لها مثبتاً أني أستطيع المضغ فيما فمي مغلق.

بدا أن السيدة كاتنزي تأخذ وقتها فيما كانت تمضغ شطيرتها

ببطء. كنت على وشك سؤالها عن سبب مضغها ببطء حين سمعت ضربة قوية على الباب. من دون تفكير، قلت بسرعة: "أنا سأفتح". كنت لا أزال أمضغ طعامي حين نزلت السلم وفتحت الباب. وفي غضون أقل من ثانية، كدت أبصق طعامي. توقف دماغي عن العمل. لم أستطع إبعاد ناظريّ عنها.

"حسناً، ألن تدعونا إلى الدخول؟" قالت أمي بصوت لطيف.

استطعت سماع ليليان وهي تنزل السلم مسرعة. "مرحبا... أنا ليليان كاتنزي. لقد تحدثنا اليوم على الهاتف. نحن على وشك الانتهاء من الغداء".

"أنت قلت الواحدة ظهراً، أليس كذلك؟"، سألت أمي بنبرة قوية.

"أوه... نعم، لقد فعلت. أرجوك تفضلي"، قالت ليليان.

دخلت أمي إلى المنزل، يليها الأولاد. كان ستان آخر الداخلين وظهرت ابتسامة عريضة على وجهه أثناء إدخاله دراجتي التي اشترتها لي جدتي في عيد الميلاد الماضي. تذكرت ذلك اليوم حين سمحت لي أمي بالركوب على الدراجة مرتين. لم أركب قبلاً على أية دراجة، ولذلك سقطت مرات عدة قبل أن أجيد سرّ الركوب. وفي نهاية ذلك اليوم، دست فوق مسمار وأصبح الدولاب الأمامي مسطحاً. والآن، فيما يدخل ستان الدراجة إلى منزل ليليان، لاحظت فوراً أن كلا الدولابين مسطحان وأن هناك أجزاءاً ناقصة من الدراجة.

لكني لم أهتم. فالدراجة الصفراء والحمراء مع مقعدها الأحمر المعدني كانت ملكي. وصدمت فعلاً لأن أمي قررت منحي إياها.

دامت زيارة أمي والأولاد بضعة دقائق فقط، لكن ليليان أصرّت

على البقاء بجانبي. ورغم أن موقف أمي بدا أكثر استرخاء- فلم تكن باردة ومتعالية مثلما كانت حين جاءت لمقابلتي في منزل العمة ماري- لكنها ما زالت ترفض التحدث إليّ. كان لديّ الكثير لأقوله لها. أردت أن أريها غرفتي، وثيابي الجديدة، والأشغال اليدوية التي نفذتها في المدرسة. وأكثر من كل شيء، أردت أن اثبت لأمي أني أستحق قبولها.

"حسناً، قالت أمي فيما كانت تنهض عن الأريكة. "أردت فقط المرور. تذكر يادافيد أني سأتحقق منك من وقت إلى آخر. لذا... كن *جيداً*"، قالت أمي بنبرة ماكرة.

رفعت ليليان يدها وأوقفتني قبل أن أتمكن من قول أي شيء. "شكراً لمرورك سيدة بيلزر. وتذكري أن تتصلي *إذا* أردت المرور مجدداً"، أجابت ليليان فيما كانت أمي تخرج من الباب.

تسلّقت السلم. توقفت أمام نافذة طويلة وبقيت أحدّق عبر الزجاج فيما أراقب أمي والأولاد يصعدون إلى سيارتها الرمادية القديمة. حين ابتعدت أمي، لوّحت باهتياج شديد لكن أحداً لم يراني. عرفت في قرارة نفسي أن جهودي ضاعت سدى. تمنيت لو أن واحداً فقط يبتسم لي ويلوّح لي مرة واحدة فقط.

تنفست ليليان بعمق ثم وضعت يديها على كتفيّ. "إذاً، هذه أمك؟ هل أنت على ما يرام؟"

أومأت برأسي إيجاباً. نظرت إلى ليليان. كانت الدموع تنهمر على وجهي. "إنها لا تحبني، أليس كذلك؟ أقصد... أنا لا أفهم. لماذا؟ لماذا لا تتحدث إليّ؟ هل أنا بهذا السوء؟ لماذا لم تخبريني أنها آتية؟ لماذا؟"

"لقد سئمت من معاملتها لي كأني... لا شيء. لقد سئمت منها، ومن إخوتي، ومن ذلك الوغد لاري...". وجّهت إصبعي نحو النافذة. "لم تتحدث إليّ. إنها لا تتحدث أبداً إليّ. أبداً". التفتت نحو ليليان. "هل أنا بهذا السوء؟ أحاول أن أكون لطيفاً. أحاول أن أكون جيداً. لم أطلب منها المجيء، أليس كذلك؟" بدأت أتحدث بصخب، ملوّحاً بيدي في الهواء، فيما أنا متوجه إلى غرفة الجلوس. "هل قلت لها أن تضربني... ألا تطعمني لأيام... أو تدعني أعيش وأنام في الكاراج مثل... مثل... *الحيوان*؟"

"في الليل، لم تكن تعطيني بطانية. كنت أشعر أحياناً ببرد شديد... حاولت الحفاظ على الدفء. لقد حاولت ذلك فعلاً"، قلت باكياً فيما كنت أهزّ رأسي.

مسحت أنفي الجاري بإصبعي وأغلقت عينيّ. شاهدت نفسي لبرهة واقفاً أمام مجلى المطبخ في ذلك المنزل. واستطعت شمّ رائحة محرمة ورقية وردية عطرة. أخذت نفساً عميقاً قبل أن أفتح عينيّ. "أتذكر.. بعد ظهر يوم سبت... جلبت لي طعاماً للكلاب... كنت في المطبخ، وهي في غرفة الجلوس مستلقية على الأريكة تشاهد برامجها. هذا ما تفعله على الدوام، طوال اليوم، كل يوم: مشاهدة برامجها. في أية حال، لم يكن عليّ سوى رمي الأكل في سلة النفايات، ولم تعرف أبداً. علمت أنه إذا عثرت عليه، يكون فات الأوان. أقصد أنه حين تسمعني أفتح سلّة النفايات، يكون الوقت قد فات. لكني تناولت الأكل لأنها طلبت مني ذلك. وحين فعلت ذلك، رحت أبكي في داخلي، ليس بسبب... وإنما لأنها جعلتني أفعل ذلك. طوال تلك الأعوام، تركتها تعاملني مثلما تريد. طوال أعوام، شعرت بخجل شديد".

بدأت أنتحب. "لم أخبر أحداً بذلك. لم أخبر أحداً بذلك... قد يكون لاري محقاً. أنا أحمق ربما".

"أوه، دافيد! ياإلهي!"، قالت ليليان باكية. "لم نكن نعلم..."

"أنظري إلى هذا"، قلت ممسكاً بقميصي. "لقد طعنتني هنا. لم تقصد ذلك. كان ذلك حادثاً. لكن هل تعلمين لماذا؟"

اختفى الدم من وجه ليليان. أغلقت عينيها قبل أن تغطي فمها بيدها. "لا، دافيد. لا أعرف. لماذا؟"

"قالت إنها ستقتلني إذا لم أنظف "الصحون اللعينة خلال 20 دقيقة". أليس هذا استبداداً؟ والمضحك أني أردت أن أقول لها منذ الحادث أني أعرف أنها لا تقصد قتلي وأني أعرف ان هذا حادث. صلّيت حتى يعمل هذا الحادث على جمعنا- أردت أن تدرك بطريقة ما أنها تمادت جداً وأنها لا تستطيع إخفاء السر بعد اليوم. أردتها أن تعلم أني سامحتها.

"لكن لا! أنا الولد السيء. إنها لا تتحدث إليّ، كما... كما لو أني أنا الشخص السيء!" شعرت أن ذراعيّ تنقبضان وتتحول يداي إلى قبضتين. حدّقت في السيدة كاتنزي فيما أدرت رأسي ببطء من جانب إلى آخر. "اللعنة! إنها لا تريد التحدث إليّ! لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟"

ركعت ليليان أمامي. كانت تبكي هي أيضاً. "دافيد، لم أكن أعلم. عليك أن تتحدث إلى شخص ما، إلى شخص يستطيع مساعدتك. أنت تحتاج إلى الخروج من هذه الحلقة. أنت تحتاج إلى شخص مؤهل... يعرف ما يجب فعله. سوف نرتب لك أنا والآنسة غولد موعداً للتحدث إلى شخص يساعدك في العثور على بعض الأجوبة. موافق؟"

وجدت نفسي أبتعد في تفكيري. ركّزت على فم ليليان وهو يتحرك، لكني لم أفهم ما الذي كانت تقوله. أمسكت بيدي وأخذتني إلى غرفتي. وحين استلقيت في السرير، مشطت شعري، وهمست: "كل شيء على ما يرام. أنا هنا. سيكون كل شيء على ما يرام".

بعد ساعات عدّة، استيقظت منتعشاً وتبعت السيدة كاتنزي فيما كانت تنزل السلّم لفحص دراجتي. بعد لحظات قليلة، هززت رأسي اشمئزازاً. "لقد فعل ستان ذلك"، قلت. "السيد المخترع. إنه أسلوبه لإعادتي".

"حسناً، دافيد"، قالت ليليان بصوت حازم. "السؤال هو: هل ستجلس هنا وتقطّب جبينك أم ستفعل شيئاً ما". توقفت لبرهة كما لو أنها تريد استلهام فكرة. "أنت تعرف أنه إذا أردت... يمكنك ربما جني بعض المال الإضافي وإصلاح دراجتك. هذا إن أردت ذلك".

بعد دقائق معدودة، صعدت إلى الطابق العلوي وألقيت نفسي على الأريكة. أصبحت الآن مشغولاً في إصلاح دراجتي. حين عاد لاري الكبير من العمل إلى المنزل، ركضت إلى غرفته طلباً لنصيحته. وفي المساء، وضعنا أنا ولاري أسرع خطة لتحقيق هدفي. في العاشرة ليلاً، توصلنا إلى الخطة المثالية، وكانت خطة ممتازة بحيث أكّد لي لاري أن دراجتي ستعود للعمل في غضون 30 يوماً أو أقل. وأكّد لاري، الذي قال إنه "مخطط من الدرجة الأولى"- لم تكن لديّ فكرة عما يعنيه قوله- إنه حين يشاهدني أمي وأبي عائداً، سيرشقونني حتماً بالنقود.

"واو!"، قلت متعجباً. "هذا رائع فعلاً!"

وقبل انتهاء اليوم، أطلقنا أنا ولاري الكبير اسماً على خطتنا "العملية: إزعاج الأهل"

في اليوم التالي، بقيت ملتصقاً بليليان طالباً منها بعض العمل الإضافي. وبعد ساعة، رفعت ذراعيها في الهواء. "حسناً! أنا أستسلم! خذ هذه السجادات ونظف الحمام. أنت تعرف كيف تنظف الحمام، أليس كذلك؟"

ابتسمت وقلت لنفسي *لن تصدقي ذلك*! وفيما كنت أحدّق فيها، أحنيت عنقي إلى جانب واحد. "كم؟"

نظرت ليليان بدهشة. "ماذا؟"

"كم ستدفعين لي لتنظيف الحمام؟" قلت بصوت جاد.

أومأت السيدة كاتنزي برأسها. "أوه، أفهم. حسناً، أيها الرجل الصغير. سأقول لك. سأدفع لك ربع...."

وقبل أن تكمل ليليان عبارتها، أجبت: "لا! هذا اليس كافياً".

"أيها الجشع. حسناً، كم تريد؟"

شعرت بنفسي أتراجع في الداخل. لم يعلّمني لاري الكبير ما الذي يجدر بي فعله في هذه الحالة. "أنا..."، قلت فيما شعرت بثقتي تتزعزع.

"سأقول لك ماذا"، قالت وهي تحوم حولي. "سأعطيك 30 سنتاً. إما تقبل بهذا ،و تبطل الصفقة".

عرفت مما علمني إياه لاري الكبير أنه حين يقول لك أحدهم "إما تقبل بهذا أو تبطل الصفقة"، يجدر بي القبول والهروب. أومأت برأسي منتصراً. "اتفقنا. فلنتصافح".

حين نظرت إلى ليليان، أدركت أنها لم تكن مستعدة لبراعتي في عقد الصفقات. شعرت أني خدعتها، ليس فقط بالدفع لي، وإنما أيضاً بمنحي مالاً أكثر مما كانت تدفع عادة.

احتجت إلى ساعتين تقريباً لتنظيف الحمام- مثلما أرادت السيدة كاتنزي، "حسب معايير رب العمل". شعرت أنها استفادت مني نوعاً ما. وفيما كنت أفرك الأرضية للمرة الثالثة، عرفت أنه يجدر بي التحدث ذلك المساء مع لاري الكبير وأشكو خطتنا الحمقاء.

اختفت مشاعري المختلطة فجأة حين وضعت ليليان خمسة سنتات وربع دولار في راحة يدي. نسيت أن أشكرها، وهرعت إلى غرفتي، بحثت عن وعاء زجاجي خبأته، ووضعت المال فيه. كنت أحدّق في الوعاء كل يوم. وفي أقل من شهر، جنيت أكثر من أربعة دولارات- أي أكثر مما ينبغي حسب تصوري لإصلاح دراجتي. أخيراً، وبعد فرض المقدار الملائم من الإزعاج، اصطحبني طوني، ابن ليليان، في شاحنته "الشيفي" البرتقالية إلى متجر الدراجات. عرف طوني كل القطع التي أحتاج إليها، من دون أن ازعجه. ولم ألاحظ حين جاءت الفاتورة كيف دفع طوني مالاً أكثر مما كنت أملك.

في ذلك اليوم، ومن دون الحصول على إذن، اقترضت بعض الأدوات التي وجدتها وبدأت أجمع دراجتي. وبعد عشرات المحاولات لإقحام الأنابيب الداخلية في العجلتين، مسحت أصابعي المكسوة بالدم، وركبت على دراجتي، ورفعت شارة النصر لأول مرة في حياتي فيما كنت أجوب الشارع غير مكترث بأي شيء في العالم.

أذكر أن 21 آب 1973 هو *يومي على دراجتي*. في ذلك اليوم، شعرت للمرة الأولى أني ولد عادي، مأخوذ في روعة يوم لا ينتهي. سمعت طوال أعوام عدّة أصوات الأولاد وهم يجوبون الشارع ويصرخون فرحاً أثناء الركوب على دراجاتهم. في ذلك اليوم، لا بد أني جبت الشارع صعوداً ونزولاً ألف مرة. توجب على السيدة كاتنزي جرّي إلى الداخل. "دافيد بيلزر. لقد أظلمت الدنيا منذ أكثر من ساعة! أدخل دراجتك الصغيرة إلى هنا، الآن!"، صرخت عالياً فيما كنت أمرّ قربها مستخفاً بصراخها.

على رغم الألم الذي شعرت به في ساقيّ نتيجة الركوب على دراجتي في الشارع، لم أرغب في أن ينتهي ذلك اليوم المميز. وفيما وقفت ليليان واضعة يديها على وركيها، نزلت عن دراجتي وأدخلتها معي إلى المنزل. عرفت من شكل وجهها انها كانت على وشك الصراخ في وجهي. لكني هزمتها بمنحها أفضل ابتسامة لديّ.

"حسناً"، قالت فيما تطوّقني بذراعها. "ادخل إلى هنا. لا تقلق. فغداً هو يوم آخر. بعدما تنتهي من واجباتك، يمكنك أخذ دراجتك إلى المتنزّه.

أطبقت كفيّ بانتصار. "نعم!"، صرخت عالياً.

في صباح اليوم التالي، أثناء نزولي من السرير، اكتشفت أني بالكاد أستطيع حني ساقيّ. نظرت إلى المرآة وابتسمت.

"نعم!"

الفصل

5

إنسان بلا هدف

بعد تذوقي الأول للحرية، أمضيت قدر ما أستطيع من الوقت في الركوب على دراجتي. فما إن أنزل عن السرير، كنت أسرع إلى النافذة المفتوحة (لا أنام أبداً والستائر مغلقة) وأتحقق من الطقس. أنزل من ثم لتناول الفطور، وأنجز واجباتي، وأركض على السلالم وأغلق الباب الأساسي بقوة بعد القول للسيدة كاتنزي إني خارج.

كانت السيدة كاتنزي تراقب عادة خروجي عبر نافذة المطبخ. لم أكن أفوّت أبداً فرصة للظهور، فكنت ألوّح لها من خلف ظهري. في بعض الأحيان، كنت أنزل الشارع بسرعة كبيرة لدرجة أشعر أني أطير. وبعد دقائق، كنت أضع قدميّ على القضيب الوسطي وأغوص في العشب المجزوز حديثاً للحديقة العامة. وبعد ركن دراجتي، كنت أندفع بعجلة إلى الحصن الخشبي الهائل الثلاثي الطبقات. كنت أتسلّق كل الحبال، وأركض وأقفز على الجسر المتحرك. وبعد إرهاق نفسي، كنت أستلقي لالتقاط أنفاسي. كنت أتمدد دوماً إلى أقصى حدّ لأشعر بدفء أشعة الشمس فيما هي تعبر الحديقة.

وكلما سمعت ضحكة، كنت أختلس النظر فوق إفريز الحصن وأحدّق مذهولاً في بقية الأولاد، معظمهم أصغر مني، وهم يلعبون مع أصدقائهم أو أهلهم. أردت الانضمام إليهم، لكني كنت أفقد

شجاعتي قبل الاقتراب منهم. عرفت بطريقة ما أني لا أنسجم معهم.

كنت أبقى دوماً في الحديقة العامة حتى أصبح عاجزاً عن قمع معدتي الجائعة. أركب حينها على دراجتي متوجهاً إلى منزل ليليان. وكالعادة، حين أصل أمام الباب الأمامي، أحبس أنفاسي وأصرخ من ثم: "لقد عدت!" كانت ليليان تجيب دوماً على ندائي، لكنها لم تفعل ذلك ذات يوم. تسلقت السلم ودخلت إلى المطبخ.

انعطفت فجأة حين سمعت صوت أحد خلفي. "ليست هنا أيها القزم". كان لاري جونيور في مزاجه الاعتيادي.

أردت توبيخه بشدة، لكني كظمت غيظي وحدقت في الأرض، متصرفاً مثل ولد خجول، وأومأت برأسي من دون أن أنظر إلى الأعلى، مما أوحى بفوزه. وفيما كنت أحاول الانطلاق بسرعة بعيداً عنه للدخول إلى غرفتي وانتظار ليليان، اعترض طريقي. أمسك بذراعي من دون إنذار.

"إلى أين يذهب صغير الماما؟"، قالت بصوت منتحب فيما أحكم قبضته.

وجّهت نظرة حقد مباشرة إلى عينيه فيما كنت أحاول الإفلات من قبضته. "هاي، يارجل... أفلت!" قلت متعجباً.

"نعم، لار... لار... أفـــ... أفلت.... الولد"، تمتم كريس. التفتت نحو كريس، أحد إخوتي الأرباب. تفاجأت لرؤيته لأنه كان يبقى عادة في غرفته في الأسفل.

حافظ لاري جونيور على قبضته حول ذراعي، لكني أدركت من تعبيره المخادع أنه على وشك توجيه انتباهه إلى كريس. ضغط عليّ

للمرة الأخيرة قبل إزاحتي جانباً. "دا... دا... ما الذي يريده المتخلّف؟ ألا يجدر بالمتخلّف أن يختبئ في غرفته الصغيرة؟"، قال لاري بنبرة ساخرة.

كان كريس أول شخص أعرفه مصاباً بشلل دماغي. استطعت مشاهدة الألم في عينيه. عرفت ما معنى أن يتعرض الإنسان للسخرية، وكنت أكره ذلك. أدركت أيضاً أن متعة لاري الوحيدة تتجلى في إيذاء مشاعر كريس. اقترب كريس من لاري حتى أصبح مباشرة أمام وجهه. حرّك لاري حاجبيه فيما كان يؤرجح ذراعه اليمنى صعوداً ونزولاً. استطعت تخيل لاري يضرب كريس ويسحق أسنانه. ومن دون تفكير، صرخت: "لا! توقف! توقف!"

وجّه لاري جونيور ذراعه نحو كريس، لكنه في اللحظة الأخيرة وضع يده عبر شعره لتمشيطه. "اللعنة!"، قال لاري. "هاه! لا يكلّف الكثير لخداع مغفّلين، أليس كذلك؟"

شعرت بحرارة جسمي ترتفع. "إذهب إلى الجحيم!"، صرخت في وجهه.

اتسعت عينا لاري. "أوه، يملك ولد الماما الصغير فماً إذاً. أنا خائف جداً. سأقول لك أمراً أيها القزم"، تمتم لاري فيما راح يدفعني في اتجاه رف المطبخ. "لماذا لا تجعلني؟"

عرفت من حجمه أنه قادر على كسري مثل الغصن الطري. لكني لم أكترث. "تراجع يارجل"، قلت من غير تفكير. "لقد سئمت منك. فإذا كنت أكبر حجماً وسناً... لا يمنحك ذلك الحق لمعاملتنا بهذه الطريقة، أليس كذلك؟ كيف تشعر إذا ضايقك أحدهم؟"

بدا لاري مذهولاً للحظة. ثم هزّ رأسه. "ومن تظن مفسك- الدكتور سبوك؟" توقفت لبرهة للتفكير في قاله لاري للتو. سبوك؟ هل يقصد المتأنق في حرب النجوم؟ سألت نفسي.

"لو كنت مكانك"، تابع لاري، "لاكتفيت بأعمالي وركبت على دراجتي الصغيرة، وإلا.."، أضاف فيما الابتسامة العريضة تعلو وجهه، "قد أستعمل وجهك الصغير لأمسح به الأرض".

فقدت السيطرة على أعصابي. أردت التسلق على ساقيه وصفع وجهه. ركضت نحو لاري. "سئمت من التعرض لإهانات من أمثالكم. أنت... أنت... فارغ الرأس. تظن أنك كبير جداً. أنت أبله... أحمق. أنت لست... أنت لست وغداً. أنت قوي جداً، أليس كذلك؟ كما لو أن الأمر يحتاج إلى شخص قوي لمضايقة شخص مثل كريس. هل تريد العراك؟ حسناً، هيا، فلنفعل ذلك! أرني ما لديك. تعال أيها القوي! حسناً...؟"

شعرت بأصابعي تلتف. أدركت أن ما أفعله خطأ، لكن بعد كل تلك الأعوام من التعرض لإذلال الآخرين الذين يظنون أنهم متفوقون، أردت الانتقام. كما أن مشاهدة طريقة معاملة لاري جونيور لكريس جعلتني أفقد أعصابي. توجب عليّ القيام بشيء ما.

فيما أصبح تنفسي أكثر سرعة، عرفت أني أؤثر في لاري. أصبح وجهه مشدوداً فيما كنت أضايقه على نحو متواصل. كان لمرة واحدة على وشك الاستسلام. أحببت هذا الشعور. استدار وجه لاري من جانب إلى آخر حتى حاصرني بين رف المطبخ. شعرت برأسي يرتطم بشيء حاد، لكن الغضب تغلب على الألم.

وقبل أن يخرج لاري من المطبخ، رفع مقبضه على كريس. "هاي، أيها الرجل، من الأفضل أن تنتبه لنفسك، وإلا قد تجد نفسك في أحد هذه الأيام عالقاً تحت السلالم ورقبتك المتخلفة مكسورة. واعلم جيداً أنك بحاجة إلى أكثر من هذا القزم للدفاع عنك!

"وأنت!" توقف لاري فيما كان ينظر إليّ. "من الأفضل أن تنتبه لفمك. لو أردت... لكنت نظفت ساعتك... تماماً هكذا!"، قال متبجحاً وهو يشبك أصابعه. "ابتعدا كلاكما عن طريقي. هل تفهماني؟ أيها الجبانان!"

أبقيت يديّ على رف المطبخ إلى أن سمعت لاري يغلق باب غرفته بقوة شديدة بحيث اصطفقت النوافذ في الأعلى. أفلتت قبضتي أخيراً بعد ثوانٍ قليلة. أغلقت عينيّ فيما كنت أحاول السيطرة على تنفسي. بدا لي أني أحتاج إلى دهر حتى أعاود التنفس بصورة طبيعية.

فتحت عينيّ وبحثت عن كريس. لقد اختفى. ركضت خارج المطبخ ودخلت إلى غرفة الجلوس فسمعت صوت باب غرفة كريس يغلق أيضاً. نزلت السلم بسرعة وطرقت بعجلة على باب كريس قبل أن أدخل إلى الغرفة. كان جالساً عند قدم سريره، محدقاً في الأرض، والدموع تنهمر على وجهه. أحنيت رأسي إلى جانب واحد. "هل أذاك لاري؟"

"للل... لا! أستـ... أستطيع.... الاعتـ..ناء... بنفسي، أنت تعلم! لا أحتاج إلى قزم... صغير لـ..."، تمتم كريس.

"عما تتحدث يارجل؟" سألته. "لاري هو أكبر جبان في هذا الكوكب. لقد سئمت من مضايقته لي ولك طوال الوقت".

رفع كريس رأسه إلى الأعلى. "من... الأفـ... الأفضل أن تعتني بنفسك. فقد... تتورّط في... الكثير... من المشاكل. لو سمعتك... أمي... تشـ... تشتم... لكانت..."

رفضت كلام كريس بيديّ فيما كنت أراقبه وهو يتوجه نحو جهاز الستريو خاصته. أمسك بخرطوشة حمراء كبيرة ثم وضعها في مسجّلة كان يسميها مسجلة الثمانية أشرطة. لم أشاهد واحدة قبلاً. وبعد سماع بعض النقرات، بدأت فرقة غنائية اسمها "ليل الكلاب الثلاث" بإنشاد أغنية "فرح العالم". وفيما بدأت مكبّرات الصوت البالية تتذبذب، جلست قرب كريس على سريره. أدركت أن ما فعلته في الأعلى كان خطأ. "هاي يارجل"، قلت له. "أنا آسف. لقد فقدت أعصابي وحسب". أشار كريس إلى أنه سامحني. ابتسمت له. "هاي كريس، ما كان قصد لاري حين قال إنه "سينظف ساعتي؟"

ضحك كريس فيما اللعاب يسيل من جانب فمه. "يعني... أنه سيركل مؤخرتك!"

"لكن لماذا يضايقك. فأنت لم تزعجه أبداً. لا أفهم".

لمعت عينا كريس. "أوه، يارجل... أنت مضـــ... مضحك. أنظر إليّ. لا يحتاج إلى سبب. فأشخاص مثل لاري يزعجونني لأني مخـــ... مختلف. أنت... مختلف أيضاً. أنت صغير ولديك فم كبير".

انحنيت على سرير كريس فيما راح يشرح لي أن أهله الحقيقيين تخلوا عنه حين كان ولداً صغيراً وعاش في منازل التربية منذ ذلك الحين. قال لي إنه تنقّل بين أكثر من عشرة منازل مختلفة إلى أن انتقل للعيش مع رودي وليليان. وكان آل كاتنزي الأقرب إلى المنزل

الحقيقي بالنسبة إليه. أصغيت بإمعان فيما كان كريس يتحدث. ذكرتني تمتمته نوعاً ما بنفسي قبل بضعة أشهر. لكن كريس بدا خائفاً. فقد بدا مذعوراً من عينيه. قال لي كريس إن هذه سنته الأخيرة في منازل التربية.

"ماذا يعني ذلك؟"، سألته فيما كانت خرطوشة الشريط تغير مسارها.

ابتلع كريس بصعوبة، محاولاً التركيز قدر الإمكان قبل الإجابة. "أوه... يعني أنه حين يصبح عمرك... 18، عليك... الرحيل... والاعتناء بنفسك".

"وأنت عمرك 17؟" سألته

أومأ كريس إيجاباً.

"ومن سيعتني بك؟"

ألقى كريس نظرة خاطفة على الأرض. فرك يديه معاً لبضعة ثوانٍ. ظننت في البداية أنه لم يسمعني، لكن حين عاود النظر إليّ، أدركت سبب خوفه الكبير وسبب بكائه.

أومأت برأسي بدوري. الآن فهمت.

بعد شجاري مع لاري جونيور، اعتزلت الناس وحاولت البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع. وإذا لم يكن هناك أحد في الجوار ووجدت نفسي متجهاً نحوه، كنت أعبّر عن مشاعر الكراهية تجاهه من دون سبب ظاهري. كان يشتمني ببساطة في بعض الأحيان، فيما يطاردني في أرجاء المنزل في أحيان أخرى. كان لاري يمسك بي على الدوام ويثبتني على الأرض. وفي إحدى المرات، بعد ضربي

مرات عدة على الذراع، صرخ: "قل عمي!"

لم أفهم. استدرت من جانب إلى آخر، محاولاً التملّص من لاري فيما جلس على صدري واستمر في ضربي. "أبداً"، صرخت في وجهه.

بعد دقائق معدودة، شاهدت العرق يتقطر من جبينه. "قل عمي! قلها!"، أصرّ لاري. "استسلم يارجل!"

رغم أني كنت مرهقاً من النضال للتملص، شعرت أني أنهك لاري. "أبداً! أنت لست عمي. إبتعد الآن عني!"

أصدر لاري ضحكة كبيرة فيما ابتعد عني. ومن دون تفكير، ضحكت أنا أيضاً. ربّت بيده على ظهري. "هل أنت بخير أيها الولد؟". أومأت برأسي إيجاباً. "سأقول لك شيئاً أيها القزم: لديك أعصاب قوية. أنت لا تستسلم أبداً"، قال. "لكن الابن المجنون لـــ...."

فجأة، نضهت بقوة وأوقعت لاري على الأرض بكل قوتي. وضعت إصبعي أمام وجهه، وبدا مذهولاً بتصرفاتي. "أنا لست مجنوناً! ولا تقل لي أبداً أبداً ذلك مجدداً!"، صرخت في وجهه فيما انفجرت في البكاء.

سمعت السيدة كاتنزي وهي تغلق باب المنزل. ثبّتت عينيّ على لاري قدر المستطاع قبل الاختفاء في غرفة نومي.

"ماذا يجري الآن؟" سألت ليليان بغضب. "هل تتشاجران مجدداً؟ سأقول لكما إنني سئمت منكما معاً".

"سيدة ك. هذا ليس أنا، وإنما القزم"، قال لاري بصوت منخفض. "ليس على ما يرام. أقصد إنه شخص معتوه. كنت ألعب معه وبدأ بضربي".

ابتعدت عن الباب ورحت أبكي.

لا أدري لماذا كنت غبياً جداً. لقد حاولت جاهداً فهم ما كان يقوله بقية الأولاد الأرباب لأتعلم- بحيث يتم قبولي ضمن مجموعة الأولاد الأكبر سناً. أردت كثيراً أن يحبني الآخرون. لكني ما زلت لا أفهم. *ربما*، قلت لنفسي، *أنا معتوه. ربما أنا مجنون.*

استدرت حين سمعت نقرة خفيفة على الباب. مسحت أنفي بسرعة بكمّ قميصي قبل فتح الباب. "هل أستطيع الدخول؟" قالت السيدة كاتنزي فيما الابتسامة تعلو وجهها. أومأت برأسي إيجاباً.

"إذاً، أنت ولاري مجدداً؟"، سألتني.

أومأت برأسي مرة أخرى، وإنما ببطء أكبر.

"حسناً، ما الذي يجدر بنا فعله برأيك؟"

أغلقت عيني فيما الدموع تنهمر على وجهي. "لا أدري لماذا أشعر بهذا السوء"، قلت باكياً.

طوّقت السيدة كاتنزي كتفيّ بذراعيها. "لا تقلق. سوف نعمل على حلّ هذه المسألة".

بعد بضعة أيام، أخذني رودي وليليان إلى عيادة طبيب. بقي رودي في سيارة الكرايزلر الزرقاء فيما اصطحبتني ليليان إلى العيادة. انتظرنا بضعة دقائق إلى أن جاءت امرأة عجوز وأخذت ليليان إلى غرفة أخرى. عادت ليليان بعد دقائق معدودة. ركعت وقالت لي إني سأشاهد طبيباً اختصاصياً سيجعلني أشعر بتحسن "هنا"، قالت ليليان فيما أشّرت إلى رأسي.

بعد لحظات قليلة، تبعت السيدة نفسها التي رافقت ليليان. فتحت

باباً عريضاً ولوّحت بيدها كما لو أنها تطلب مني الدخول. دخلت إلى الغرفة بحذر شديد. أغلقت السيدة الباب خلفي. وقفت وحيداً في غرفة مظلمة. بحثت عن نافذة مفتوحة، لكني عرفت أن الظلال كانت مرسومة. كان سقف الغرفة غريباً. بقيت واقفاً في وسط الغرفة لبضعة ثوانٍ إلى أن أمرني رجل، لم أشاهده حين دخلت، بالجلوس. قفزت حين سمعت صوت الرجل الغريب. أضاء الرجل مصباح مكتبه "تعال الآن. إجلس". أطعت أوامره وعثرت على كرسي كبير الحجم. جلست وحدّقت في الرجل. انتظرته حتى يقول شيئاً، أي شيء. *هل انا في الغرفة الصحيحة، في المكتب الصحيح؟ هل هو الطبيب؟ لا يمكن أن يكون الطبيب النفسي!*

تحولت الثواني إلى دقائق. وعلى رغم محاولاتي، لم أستطع تحديد قسمات وجه الرجل. فرك يديه معاً فيما بدا أنه يدرسني. تحرّكت عيناي من جانب إلى آخر. لاحظت أنه توجد أريكة طويلة بمحاذاة الجدار خلفي. وكانت بقية جدران الغرفة مغطاة برفوف مليئة بالكتب.

فيما استمر الرجل في التحديق بي من وراء المكتب، بدأت أتحسس يديّ. لم أستطع الانتظار أكثر. "أعذرني سيدي، هل أنت الطبيب النفسي؟ هل تريدني أن أستلقي على الأريكة، أو يمكنني الجلوس هنا؟" سألته بصوت خافت.

شعرت أن كلماتي تتلاشى فيما انتظرت جواباً منه. شبك يديه. "لماذا طرحت هذا السؤال"، سأل الرجل بنبرة باردة.

أحنيت رأسي لأتمكن من السماع بصورة أفضل. "سيدي؟"، سألته.

نظف الرجل حنجرته بالتنحنح. "قلت، لماذا طرحت هذا السؤال؟"، قال وهو يشدّد على كل كلمة.

شعرت أن طولي أصبح 10 إنشات. لم أعرف ما أقوله. بدا لي أني احتجت إلى دهر قبل أن أجيب" "لا أعرف".

بلمح البصر، أمسك الرجل قلم رصاص وبدأ يخربش على ورقة. اختفى قلم الرصاص بعد برهة. ابتسم، وابتسمت. عرفت أن عبارتي الأخيرة كانت حمقاء، ولذلك حاولت التفكير في شيء ذكي لأقوله. أردت أن يحبني الرجل. لم أرغب في أن يظنني أحمقاً. أومأت برأسي بثقة. "الدنيا مظلمة هنا، هوه؟"

"حقاً؟"، باشر الطبيب في الكتابة مجدداً بسرعة فائقة. أدركت بعدها أنه كلما قلت شيئاً، فإن الرجل- الطبيب، حسب ما أعتقد، يدوّن كل شيء.

"ولماذا طرحت هذا السؤال؟"، سأل الطبيب.

فكرت ملياً قبل الإجابة. "لأن... الدنيا مظلمة"، قلت وأنا أبحث عن الموافقة.

"وأنت تخاف من الظلمة- نعم؟"، قال الطبيب كما لو أنه عثر على إجابته الخاصة.

مجنون، قلت لنفسي. *يظن أني مجنون*. ارتبكت في مقعدي، من دون أن أعرف كيف أجيب. بدأت أفرك يديّ. تمنّيت لو أن السيدة كاتنزي تدخل من الباب وتأخذني بعيداً.

تبع ذلك مرحلة طويلة من الصمت. شعرت أنه من الأفضل لي ألا أحفر قبري أكثر. نظرت إلى أصابعي المتحركة. نظف الطبيب

حنجرته. "إذا، اسمك دانيال؟"

"دافيد، سيدي. اسمي دافيد"، قلت بفخر فيما انحنى رأسي إلى الأمام. كنت أعرف اسمي على الأقل.

"وأنت في الرعاية بالتربية، أهذا صحيح؟"

"نعم... سيدي"، أجبت ببطء فيما بدأت أفكر إلى أين ستقود أسئلته.

"أخبرني، ما هذا؟"، سأل الطبيب فيما كان يشبك يديه وراء رأسه وينظر إلى السقف.

لم أكن واثقاً من السؤال. "سيدي؟"، سألته بصوت مكتوم.

أحنى الطبيب رأسه نحوي. "أخبرني يا دافيد الشاب، لمَ أنت في الرعاية بالتربية"، سألني مع بعض الاهتياج في صوته.

كان سؤال الطبيب مثل طعنة في الوجه. شعرت أني أرتعش. لم أقصد أن أثير جنونه، لكني لم أفهم سؤاله. "أنا... أوه...لا أعرف، سيدي".

رفع قلم الرصاص وبدأ ينقر بالممحاة على مكتبه. "هل تقول لي إنك لا تملك أية فكرة عن سبب وجودك في الرعاية بالتربية؟ هل هذا ما تريد قوله لي؟"، سألني فيما كان يدوّن المزيد من الملاحظات.

أغلقت عينيّ، محاولاً التفكير في إجابة. لم أستطع التفكير في الجواب الصحيح، ولذلك انحنيت في اتجاه مكتب الطبيب. "ماذا تكتب، سيدي؟"

قذف الطبيب ذراعه بقوة على مكتبه وغطى ملاحظاته. أدركت

أني أغضبته. جلست جامداً في الجهة الخلفية للمقعد. ثبت عينيه على عينيّ. "يجدر بي ربما تحديد قواعد العمل. أنا أطرح الأسئلة. أنا الطبيب النفسي. وأنت"، قال فيما يؤشر بقلم الرصاص نحوي، "المريض. هل نفهم الآن بعضنا البعض؟". أومأ برأسه كما لو أنه يطلعني على ضرورة قبولي وابتسم لي حين استجبت له. "إذاً"، قال في صوت أكثر نعومة، "أخبرني عن أمك".

فيما كنت ألملم أفكاري، بقي فمي مفتوحاً. شعرت بإحباط كبير. لم أكن ربما ذكياً جداً، لكني لم أظن أني أستحق المعاملة مثل أبله. درس الطبيب كل تعابيري فيما كان يدوّن المزيد من الملاحظات. "حسناً"، بدأت فيما كنت أبحث عن الكلمات، "أمي... لا أظن فعلاً... أنها كانت..."

قاطعني بتلويحة من يده. "لا! هنا *أنا* أجري التحليلات *وأنت* تجيب على الأسئلة. أخبرني الآن، لماذا كانت أمك تسيء معاملتك؟"

تنفست بعمق. نظرت عيناي إلى أبعد من مكتبه. حاولت تخيّل ما يوجد خلف ستائر النافذة. استطعت سماع أصوات السيارات وهي تمرّ قرب المبنى. تخيّلت رودي، وهو جالس في سيارته الضخمة، يستمع إلى إذاعة الراديو التي تبثّ الأغاني القديمة..."

"أيها الشاب؟ دانيال! هل أنت معي اليوم؟"، سأل الطبيب بصوت عالٍ وعميق.

غصت أكثر في الجهة الخلفية للكرسي، وشعرت بالخجل لأني تهت في أحلام اليقظة في حضور طبيب. شعرت بالخجل لأني تصرفت مثل ولد صغير.

"سألتك، *لماذا* تسيء أمك *معاملتك*؟". من دون تفكير، تراجعت إلى الخلف. "كيف أعرف؟ *أنت* الطبيب. تصوّر الأمر. أنا لا أفهم... أسئلتك... وكل مرة أجيب عليها، تقاطعني. لماذا يجدر بي إخبارك عني فيما لا تعرف حتى *اسمي*؟"

توقفت لالتقاط نفسي حين سمعت صوت أزيز. ضغط الطبيب على زر، ورفع سماعة الهاتف، أومأ برأسه، ثم أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها. لوّح بيده أمامي فيما كان يدوّن ملاحظة أخرى قبل القول: "هلا احتفظت بهذه الفكرة لي؟ هذا هو كل الوقت الذي لدينا لهذا الأسبوع، وسوف... دعني أرى... سأحدد لك موعداً في الأسبوع المقبل. ما رأيك؟ أظن أننا باشرنا في انطلاقة جيدة هنا، دانيال، موافق؟ أراك إذاً في الأسبوع المقبل. وداعاً الآن"، قال فيما أحنى رأسه فوق مكتبه.

حدّقت فيه وأنا غير مصدّق. كان عقلي مشوشاً جداً لدرجة أني لم أعرف كيف أتصرف. *هل تنتهي الجلسة مع الطبيب النفسي بهذه الطريقة عادة*؟ سألت نفسي. ثمة خطب ما، وشعرت أن هذا الخطب هو أنا. جلست بلا حراك لبضعة ثوان، ثم انزلقت عن الكرسي ومشيت نحو الباب. وحين فتحته، تمتم الطبيب متمنياً لي نهاراً سعيداً. التفتت إليه وابتسمت. "شكراً لك، سيدي"، قلت بصوت مرح.

"حسناً"، قالت السيدة كاتنزي، "كيف جرت الأمور هناك؟"

"لا أعرف. لا أظن أني أبليت حسناً. أظن أنه يعتقد أني أبله"، قلت فيما أخذتني ليليان إلى السيارة. "يريد أن يراني الأسبوع المقبل".

"حسناً إذاً. لا بد أنك تركت انطباعاً جيداً. استرخِ. أنت تقلق كثيراً. تعال الآن، فلنذهب إلى المنزل".

جلست في المقعد الخلفي لسيارة رودي. أصبحت تائهاً فيما إشارات الشوارع تومض أمامي. شعرت بغضب أكثر من قبل. أردت إطلاع ليليان على شعوري، لكني أدركت أنه إذا فعلت ذلك ستكون كلماتي خاطئة وأجعل نفسي أحمقاً أمامها وأمام رودي.

أفسدت ليليان تركيزي. "إذاً، كيف تشعر؟"

شبكت ذراعيّ بقوة فوق صدري. "مرتبك"، قلت بنبرة حاسمة.

"حسناً"، قالت فيما كانت تحاول العثور على الكلمات الصحيحة لجعلي أشعر بتحسن. "تحتاج هذه الأمور إلى الوقت".

كانت جلستي التالية غريبة أيضاً.

"اليوم، دعنا نبدأ جلستنا بإخباري... دانيال، كيف شعرت حين كانت أمك تسيء معاملتك؟ أعرف أنها في وقت من الأوقات كانت...". تصفّح الطبيب ملفاً مفتوحاً تصوّرت أنه يخصني. بدأ بالتمتمة لنفسه إلى أن أغلق الملف. "نعم"، قال لنفسه. "كان عمرك ثمانية أعوام حين قامت أمك..."- وضع نظاراته فيما بدأ يقرأ ورقة من الملف- "بوضع ذراعك، ذراعك اليمنى..."، أومأ مجدداً، وإنما لي، "فوق الفرن. هل هذا صحيح؟"

انفجرت قنبلة داخل معدتي. بدأت يداي ترتعشان. فجأة شعرت أن كل جسمي أصبح مثل المطاط.

حدّقت في حركات وجهه فيما كان يستبدل الورقة الموجودة على مكتبه- ورقة احتوت على المراحل الأكثر فظاعة من حياتي. *إن*

الخربشة الموجودة على هذه الورقة هي حياتي- حياتي التي يمسكها الطبيب العظيم بين يديه- وما زال لا يعرف حتى اسمي! ياإلهي! صرخت لنفسي. هذا هراء!

"دانيال، لمَ تظن أن أمك أحرقتك ذلك اليوم؟ أنت تذكر تلك الحادثة، أليس كذلك... دانيال؟" توقف لبرهة.

مسّدت ساعدي الأيمن فيما شعرت أني أتأرجح.

"أخبرني"، أضاف، "ما هو شعورك تجاه أمك؟"

"دافيد"، قلت بصوت بارد. "اسمي هو *دافيد*!"" صرخت. "أظن انها مريضة وكذلك أنت!"

لم يومض عينه. "أنت تكره أمك، أليس كذلك؟ هذا طبيعي جداً. عبّر عن نفسك. هيا، أخبرني. علينا الانطلاق من مكان ما بحيث نتمكن من العمل على هذه الأمور والمشاكل بهدف..."

لم أعد أسمع صوت الطبيب. بدأت ذراعي اليمنى تؤلمني. حككتها مثلما فعلت قبلاً قبل أن ألقي نظرة خاطفة إلى الأسفل. وحين فعلت ذلك، رأيت ذراعي اليمنى ملتهبة بالنار. قفزت من مقعدي فيما رحت أهزّ ذراعي محاولاً إخماد النار. أحكمت قبضة معصمي فيما كنت أنفخ على اللهب. أوه، *ياإلهي، لا*! صرخت لنفسي. *لا يمكن أن يحدث هذا! أرجوك ساعدني! أرجوك*! حاولت الاستغاثة بالطبيب النفسي. ابتعدت شفتاي عن بعضهما، ولكن من دون أن يخرج أي شيء. شعرت أن جانبيّ وجهي مغطيان بالدموع فيما اللهب البرتقالية والزرقاء ترقص على ذراعي...

"نعم، هذا هو المطلوب!"، صرخ الطبيب. "جيد! أخرج

مشاعرك! هذا جيد، دانيال. الآن، أخبرني يادانيال، كيف تشعر في الوقت الحاضر؟ هل أنت... غاضب؟ هل تشعر بالعنف؟ هل تريد صبّ عدوانيتك على شخص أو شيء ما؟"

نظرت إلى ذراعي. لقد اختفت النار. وعلى رغم محاولاتي، لم أستطع منع نفسي من الارتعاش. طوّقت ذراعي بيدي الأخرى ونفخت عليها برفق كما لو أني أريد جعل نفسي بحال أفضل. انحنيت إلى الأمام للنهوض، فيما لا أزال ممسكاً بذراعي اليمنى. مسحت وجهي قدر المستطاع قبل فتح الباب للمغادرة.

نهض الطبيب من خلف مكتبه. "حسناً، يمكنك المغادرة باكراً. لقد أحرزنا تقدماً اليوم. لا تدع هذا يغضبك. سوف أحدد لك موعداً يوم..."

أوه! أغلقت الباب بكل قوتي.

في المكتب الخارجي، قفزت السكرتيرة العجوز عن كرسيها. توقفت قرب مكتبها لبرهة. بدا وكأن المرأة كانت على وشك توبيخي إلى أن ألقت نظرة مطوّلة على وجهي. توقفت واستدارت بعيداً للإمساك بالهاتف. أدار المريض التالي رأسه أيضاً فيما خرجت من المكتب.

أغلقتُ باب سيارة ليليان بقوة عن غير قصد. أوقعت كتابها في الهواء. "دافيد! ماذا...؟ أتيت باكراً. هل كل شيء على ما يرام؟"

شبكت يديّ معاً. "لا! لا! لا!"، صرخت. "ذلك الرجل"، أشرتُ بإصبعي إلى المبنى في الجهة الثانية من الشارع، "مريض!". لقد طرح عليّ أسئلة غريبة. سألني اليوم عن شعوري حين..."

"حسناً، دافيد"، قالت بصوت حازم. "هذه وظيفته. إنه الطبيب. أنا أكيدة من أنه يحاول المساعدة..."

"لا!"، انفجرت فيما هززت رأسي. "لا يطرح أسئلة مثلك أو مثل الآنسة غولد، وإنما أسئلة مريضة، مثل: *ما هو الشعور عند الاحتراق بالفرن؟ ومن الطبيعي جداً أن أكره أمي*"، قلت وأنا أقلّد صوت الطبيب. "لا أعرف ما الذي أقوله أو أفعله معه. إنه غريب. إنه الشخص الذي يحتاج إلى المساعدة، وليس أنا. إنه المريض".

"هل هذا هو سبب غضبك الأسبوع الماضي؟ هل عاملك هكذا في المرة الأخيرة؟" سألت ليليان.

أومأت برأسي. "لا أعرف. أشعر أني أحمق ودنيء. أعني، أعرف ما حدث مع أمي، وكنت مخطئاً وأحاول فعلاً نسيان كل ذلك. أعني، قد تكون أمي مريضة. أعرف أنه الإسراف في الشرب، لكن أريد أن أعرف: هل أنا مريض أيضاً؟ هل سأنتهي مثلها؟ أريد أن أعرف فقط. أريد أن أعرف لماذا حدث كل ذلك بهذه الطريقة؟ كنا العائلة المثالية. ماذا حدث؟"

فيما كنت أنفّس عن غضبي، تمددت في المقعد الخلفي. انحنت ليليان فوقي. "هل أنت أفضل الآن؟"

"نعم سيدتي"، أجبتها. انطلقت ليليان في السيارة. شعرت أني على وشك النوم. أمسكت ذراعي اليمنى مباشرة فوق معصمي. أجبرت نفسي على البقاء مستيقظاً قليلاً بعد. "سيدة كاتنزي، لا أريد أبداً العودة إلى هناك- أبداً"، قلت. ثم تحول عالمي إلى سواد.

بقيت لوحدي في غرفتي في الأيام القليلة التالية. سألني بعدها

لاري الكبير ما إذا كنت أريد مشاهدته وهو يلعب البولينغ. وافقت بسرور، وانطلقنا مرة أخرى أنا وأخي الربيب الكبير في مغامرة جديدة. تعرّفت إلى مقصدنا فيما عبرنا بدراجتينا بمحاذاة مدينة دالي. نزلنا أنا ولاري عبر الشارع الصغير المؤدي إلى موقف مدرسة توماس إديسون الابتدائية. أبطأت دراجتي وشاهدت الأولاد وهم يلعبون على الأرجوحة. توقفت قليلاً وتنشقت رائحة اللحاء النضرة. بدا لي أنه مضى دهر منذ ان كنت ولداً يلعب بسعادة في الملعب نفسه أثناء الفرصة.

خيّم ضباب كثيف فوق المدرسة قبل أن ينخفض. اختفت أشكال الأولاد فيما بدا أن الضباب الرمادي يبتلعهم أيضاً. وبعد دقائق قليلة، بقيت أصوات ضحكاتهم تخبرني بأن الأولاد ما زالوا موجودين هناك.

تخلصت من أفكار الماضي فيما صعدت بدراجتي على هضبة أخرى بعيداً عن مدرستي القديمة. وبعد 10 دقائق تقريباً، توقفنا أنا ولاري عند متجر سكايلاين- أي المتجر نفسه الذي سرقت منه حين هربت من المدرسة أثناء فرصة الغداء. بقيت بالقرب من لاري. ظننت أن أحدهم سيتعرّف حتماً إليّ. "هل أنت على ما يرام؟"، سأل لاري فيما كنا نسير في أجنحة المتجر.

"نعم"، أجبته بصوت منخفض. حدّقت عيناي في كل زاوية. مشيت بخطى بطيئة وامسكت بحزام لاري لأطلب منه إبطاء مشيته. فأنا الآن في ميدان أمي.

"هاي يارجل، ما هي مشكلتك؟"، سأل لاري.

"شش. لقد عشت هنا"، همست له.

"حقاً؟ جيد"، قال لاري، فيما كان يلتهم فطيرة فاكهة أثناء خروجنا من المتجر. "ألهذا السبب تصرفت بشكل غريب في المدرسة؟"

"أعتقد ذلك"، أجبته.

بعد أن انتهى لاري الكبير من تناول فطيرتين بالقشدة، وبعض ألواح الشوكولاته وزجاجتين من الصودا، توجهنا إلى ملعب البولينغ. أصبح الوصول إلى جادة البوابة الشرقية بعيداً جداً بالنسبة إليّ. نزلت عن دراجتي وحدّقت في الشارع الذي اجتزته للتو. "توقف!"، صرخت من دون سابق إنذار.

لاري كان يلهث خلفي مثل الكلب. "ما الأمر؟"

"أسدِ لي خدمة"، قلت له. "فلنأخذ فرصة وننزل إلى هذا الشارع". خرجت سحابة من الضباب من فمه. "نعم، حسناً. لماذا؟"، سألني.

"تعدني بألا تخبر أحداً؟"

"نعم، يارجل، ما الأمر؟"

"لا تخبر أحداً... لكني كنت أعيش في هذا الشارع". استدار رأس لاري في اتجاه الشارع مجدداً. "رائع! أي منزل؟"

"المنزل الأخضر الداكن. في الجهة اليسرى، في وسط المبنى"، قلت فيما كنت أؤشر إلى أسفل الشارع.

"هاي، يارجل. أنا لا أفهم ذلك"، قال وهو يهزّ رأسه. "لكانت أمي قالت لا حتماً. لذا، ليست فكرة جيدة! ماذا لو كانت أمك أو إخوتك في الخارج؟"

أوقفت دراجتي قرب كومة من الأشجار الصغيرة، وبقيت بالقرب منها فيما رحت أحدّق في الشارع. استطعت سماع لاري وهو يتعثر خلفي. تسارع خفقان قلبي. عرفت أن ما أقوم به خطأ وخطير. "إذا قررت قبول هذه المهمة..."، همس لاري، كما لو أننا كنا ننفذ معاً واجباً من *المهمة المستحيلة*.

"تعال، الطريق مفتوح"، قلت وأنا أعطي لاري إشارة الانطلاق.

هزّ لاري رأسه. "لا أدري".

"تعال"، توسلت إليه. "لم أطلب منك يوماً أي شيء. لن تعرف السيدة كاتنزي أبداً. بالإضافة إلى ذلك، سأنجز... سأنجز واجباتك على مدى أسبوع كامل. موافق؟ أرجوك؟"

"حسناً، ياصغير. موافق."

ركبت على دراجتي واستمريت في الضغط على المكبح فيما بدأت النزول ببطء. لم يظهر أحد في الخارج. لاحظت أن باب الكاراج المؤدي إلى منزل أمي كان مغلقاً. وفيما اقتربنا من المنزل الأخضر والأسود، تنفست الصعداء. *هذا ممتع فعلاً*، قلت لنفسي. فجأة، ظهر رأسان من نافذة غرفة نوم إخوتي. "شت"، همست.

"ما الخطب؟"، سأل لاري

"إذهب فقط"، تمتمت

"ماذا؟"

"قلت، إذهب!"

"هاي، يارجل، ما المشكلة؟"

"ليس الآن!" صرخت. "تعال! إذهب! إذهب! إذهب!"

انحنيت إلى الأمام على مقبض الدراجة ودوّست بقوة لدرجة ظننت أن السلسلة ستنقطع. توقفت عند أسفل الشارع. بدا لي أن قلبي عالق في حنجرتي. انتظرت حتى يفتح باب الكاراج وتخرج منه سيارة أمي أو دراجات إخوتي لمطاردتي في الشارع. رحت أفكر في طرق فرار عدّة.

"هل شاهدت ذلك؟"، سألت.

"شاهدت ماذا؟ ما الخطب معك يارجل؟" سأل لاري.

"النافذة!"، قلت فيما لا أزال أصعد في الشارع. "إخوتي... لقد رأوني!". بقيت عيناي شاخصتين على كل صوت وكل حركة من المنزل.

لم يحدث أي شيء.

"يارجل"، انتحب لاري الكبير، "هناك الكثير من أفكار جايمس بوند معششة في رأسك. لم أشاهد أي شيء. أنت تتخيل الأشياء. هيا، فلنذهب، وتذكر"، قال لاري فيما هو يدوّس على دراجته، "الاتفاق هو اتفاق".

"شرط ألا تعرف السيدة كاتنزي بالأمر!"، أجبته فيما كنت أحاول التقاط أنفاسي.

بعد بضعة ساعات، شعرت ببرد كبير أثناء عودتنا أنا ولاري إلى منزل ليليان. "ما الذي يجري؟"، همست إلى لاري. نظر إليّ بطريقة توحي بأنه لا يعرف شيئاً.

"هاي"، قال لي. "سوف أصعد إلى الأعلى، أتناول بعض الطعام ثم أتحقق لك من الوضع، موافق؟"

وافقت بشوق فيما كنت أراقب لاري من أسفل السلم. فجأة، ظهرت السيدة كاتنزي. اختبأت في الظلال بدافع الغريزة. "لاري!"، قالت بصوت عالٍ. "أخرج وجهك الآن في هذه اللحظة! وأنت"، موجهة إصبعها نحوي، "أستطيع مشاهدتك! يمكنك انتظاري في غرفتك. تحركا الآن! كلاكما".

أصبحت عيناي بحجم النقود المعدنية. ابتسمت ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسناني فيما وجهت إصبعي نحو صدري. "أنا؟"، سألت. أعادت لي الابتسامة. لاحظت أن يديها فوق وركيها. في تلك اللحظة، أدركت أني وقعت في ورطة كبيرة. انتظرت في غرفتي وتساءلت عما فعلته. لم أسرق أي لوح شوكولاته من المتاجر المحلية في الأيام القليلة الماضية. وكنا أنا ولاري بعيدين عن بعضنا. ليس لديّ أية فكرة عن الخطأ الذي ارتكبته.

لم أحتج إلى إجهاد أذنيّ لسماع ما يجري. "... يفترض بك أن تكون مسؤولاً حين يكون دافيد معك. إنه مجرد طفل. لقد شاهدت ما هو عليه".

"أرجوك ياماما. إنه في الثانية عشرة. وهو يجيد الاعتناء بنفسه. بالإضافة إلى ذلك، لم نفعل أي شيء"، قال لاري. ما زلت لا أعرف الخطأ الذي ارتكبناه أنا ولاري.

"لا؟ لماذا اتصلت بي إذاً أم دافيد، الأم الحقيقية، طوال بعد الظهر؟"

أوه، أوه، قلت لنفسي فيما ابتلعت بصعوبة. سمعت من الخارج صوت باب سيارة يغلق بقوة. قفزت إلى النافذة لأشاهد رودي يلوّح لي. عدت بسرعة إلى سريري منتظراً دوري.

"سيد بيلزر... تعال إلى هنا، الآن!"، صرخت ليليان.

نهضت بلمح البصر وركضت إلى المطبخ. عرفت أني كنت في وضع مثير. ورغم أني كنت في ورطة، لم أشعر أن السيدة كاتنزي ستضربني. حين دخلت إلى المطبخ، شعرت بالقلق لمعرفة ما تضمره لي السيدة ليليان. كانت هذه المرة الأولى التي أجد فيها نفسي في ما يسميه لاري الكبير بـــ"منزل الكلب".

"أخبرني"، بدأت ليليان فيما يديها على وركيها. "أخبرني أنك لم تقنع هذه الجرثومة الموجودة هنا بأخذك إلى منزل أمك".

ابتلعت بصعوبة وحاولت مجدداً الكشف عن مفاتني فمنحت السيدة كاتنزي أفضل ابتسامة لديّ. "جرثـــ...؟"

"حشرة من دون أدمغة! وهذا ما ستكونان عليه إذا لم أحصل على أية أجوبة!"، صرخت ليليان.

"ما الذي يجري هنا بحق السماء؟" صرخ رودي فيما كان يدخل إلى المطبخ.

"توقفا. لا يتحرك أحد منكما!"، حذرت ليليان فيما التفتت إلى زوجها.

من دون معرفتها، وضعت يدي على فمي وأصدرت قهقهة. ظننت أن ملاحظتها بشأن لاري الكبير كانت مرحة. استطعت تخيله مع عينين كبيرين مثل الحشرة، وجناحين ضخمين، محلقاً في الجوار، محاولاً العثور على شيء لأكله. لم أشاهد ليليان بهذا القدر من الغضب قبلاً. وعرفت أنه يجدر بي مجاراة العاصفة. ما هي الغلطة الكبيرة؟ قلت لنفسي.

من جهة أخرى، بدا لاري وكأنه خرج لتوه من مغامرات شاقة.

توجهت ليليان مباشرة إلى رودي الذي تناوبت عيناه بيني وبين لاري. "لقد قام المغفلان الصغيران – دوفوس والولد المدهش- برحلة إلى منزل أمه".

"*ياإلهي!*"، قال رودي متعجباً.

وقفت أمام الثلاثة، من دون ان أفهم عواقب تصرفي. *ما هي الغلطة الكبيرة*؟ سألت نفسي مجدداً.

"أنا آسف"، انفجرت فجأة. "إنها غلطتي. لقد طلبت من لاري أن يفعل ذلك. وكل ما فعلناه هو التجول في الشارع. *أين هي المشكلة*؟"، سألت ببراءة.

"حسناً، لقد بقيت أمك على الهاتف طوال فترة بعد الظهر لتتحدث عنك بعنف وتلومك بقسوة"، قالت ليليان، وهي تؤشر بإصبعك نحوي، "لأنك كنت تبعث الرعب في الشوارع".

"لا!"، هززت رأسي. "إنها تكذب! كل ما فعلناه هو التجول في الشارع. لم نفعل أي شيء، فعلاً:، قلت وأنا أبذل جهدي لأبدو هادئاً.

"دافيد"، قالت ليليان فيما أطلقت نفساً عميقاً، "ألا تفهم؟ *لا يسمح لك* بالذهاب إلى أي مكان قرب منزلها أو قرب أولادها أو قربها".

رفعت يديّ في الهواء. "انتظري! توقفي. ماذا تقصدين *بأنه لا يسمح لي*؟"، صرخت فيما كنت أحاول الاستحواذ على انتباه ليليان. لكني لم أستطع وقفها. فقد كانت مهتاجة.

"هذه فقط نصف المسألة. فقد قالت لي أمك، الأم تريزا القديسة، إنه إذا *لم أفلح في السيطرة على الولد، سوف تعثر* على شخص آخر

قادر على فعل ذلك!"

ناضل عقلي لفرز الكلمتين مسموح و سيطرة.

انحنت ليليان إلى الأسفل. "لا تفعل ذلك أبداً أبداً مجدداً! أنت محاصر!"

"محاصر؟"

"هذا صحيح، أنت محاصر إلى أن... إلى أن أقرر فك حصارك!" أنهت ليليان بنوبة غضب قبل أن أستطيع سؤالها عما تقصده.

وقف لاري غير مصدق. "لقد قلت لك يارجل إنها فكرة سيئة".

"إذاً...؟ هذا كل شيء؟" سألت. عرفت أن ليليان كانت مجنونة، لكني توقعت... حسناً، لم أكن أعلم ما أتوقعه. *أستطيع تقبل هذا*، قلت لنفسي.

فيما مسح لاري الكبير جبينه، توجهت ليليان إلى المطبخ. "أبعد تلك الابتسامة المتكلّفة عن وجهك أيها الولد المدهش"، قالت فيما كانت تنظر إليّ. "لقد نسيت- سوف يأتي والدك غداً في السابعة صباحاً ولذلك عليك النهوض باكراً. يمكنك *فعل* ذلك، أليس كذلك؟" سألتني ليليان بابتسامة خبيثة.

"نعم، سيدتي. أستطيع *فعل* ذلك"، أجبتها بصوت وديع.

"وأنت!"، صرخت فيما حولت انتباهها إلى لاري. "إذهب إلى غرفتك!"

هزّ لاري كتفيه. "أوه، ماما، هل يجدر بي ذلك؟"

"تحرّك!"، صرخت ليليان بصوت عالٍ.

بعد أن غادر لاري المطبخ، مسحت ليليان عينيها. "تعال واجلس هنا. أصغِ الآن جيداً إليّ. أمك..."، توقفت لتنظيف حنجرتها. "دافيد، أنا أعتني بالأولاد منذ لا أدري كم من الوقت. لم أصادف يوماً شخصاً بارداً مثل أمك".

"تقولين لي هذا؟" قاطعتها.

"دافيد، ليس هذا الوقت للدعابة. عليك أن تفهم شيئاً: أنت ولد ربيب. *ولد ربيب*. ولهذا السبب، ثمة واجبان مطلوبان منك. عليك الانتباه إلى كل شيء تقوله وكل شيء تقوم به. وإذا وقعت في مشكلة... قد نخسرك".

أدركت من جدّية صوتها أن ما تخبرني إياه كان مهماً. لكني لم أفهم الرسالة ببساطة.

أومأت ليليان برأسها وتابعت تتكلم فوق رأسي. "دافيد، إذا وقعت في مشكلة، قد تنتهي في السجن- سجن الأحداث. فهم يرسلون الأولاد الأرباب الذين يقعون في مشاكل إلى ذلك المكان. إنه مكان لا تريد أبداً أن تذهب إليه. أنا لا أعرف ما تستطيع أمك فعله، لكن من الأفضل لك أيها الشاب أن تتعلم كيفية *السيطرة* على نفسك بصورة أفضل. وإلا سيتم حصارك لمدة سنة". ربّتت ليليان على ركبتيّ ثم خرجت من المطبخ.

عرفت أنها تستعمل أمي لإخافتي. عرفت أيضاً أن أمي لن تستطيع أبداً أخذي بعد أن أصبحت الآن ولداً ربيباً... *أتستطيع ذلك*؟

"هاي، سيدة كاتنزي"، صرخت عالياً، "ماذا يعني *محاصر*؟"

"أوه، لا تقلق. سوف تعرف ذلك قريباً"، ضحكت ليليان فيما

نزلت إلى أسفل القاعة للدخول إلى غرفتها. "*سوف تسيطر على نفسك!*"

في ذلك المساء، فكرت طويلاً وملياً في ما قالته لي ليليان. وبعد أن غادر رودي وليليان لتناول العشاء، شعرت برغبة كبيرة في الاتصال بأمي. أردت التحدث إليها، وسماع صوتها. رفعت سماعة الهاتف مرات عدة، لكني لم أستطع طلب رقمها.

مسحت دموعي حين دخلت كوني إلى المطبخ. "هاي، ما الذي يجري؟"

استسلمت وأخبرتها بما كنت أحاول فعله. من دون أن تلفظ أية كلمة، أخذت كوني سماعة الهاتف وطلبت رقم أمي. بعد لحظات، شعرت بصدمة كبيرة حين سمعت المسجلة تقول إن رقم أمي "... لم يعد في الخدمة".

ثابرت كوني وطلبت عامل الهاتف الذي أكّد لها أن هذا الرقم بات الآن خارج نطاق الاستعمال.

وقفت أمام كوني، من دون أن أعرف ما يجب قوله أو فعله. لم أعرف كيف يجدر بي أن أشعر. عرفت أن أمي غيّرت رقم هاتفها ليكون ذلك "لعبة" جديدة– فمن *غير المسموح* أن أعرف رقمها.

بعد أن جاء صديق كوني لاصطحابها، جلست وحيداً أحدق في التلفزيون. لم أكن قط لوحدي في المنزل قبلاً. رحت أعدّ الساعات قبل أن يأتي والدي لاصطحابي في صباح اليوم التالي. خلدت إلى النوم فيما كنت أشاهد رقصة الثلج بالأسود والأبيض على شاشة التلفزيون.

في صباح اليوم التالي، نزلت عن السرير فيما كنت أفرك عينيّ، وتوجهت بعدها إلى نافذة الغرفة. التفتت ونظرت خلفي. لا أذكر كيف جئت إلى السرير. وبعد أن ارتديت ثيابي وغسلت وجهي، مرتين، ركضت إلى نافذة غرفة الجلوس. وقفت طويلاً وأنا أنتظر والدي.

بعد بضعة دقائق، شعرت بالألم في كتفيّ، لكني بقيت منتصباً فيما أعلنت الساعة في غرفة الجلوس أنها السابعة. في السابعة وخمس وثلاثين دقيقة، سمعت الصوت المميز لسيارة والدي الفولسفاكن. علت الابتسامة وجهي بعدما تأكدت أن شعري مرتب. شاهدت سيارة فولسفاكن بنية تدخل إلى الشارع. لكن السيارة تابعت طريقها. حسناً، *ربما لا يملك العنوان الصحيح*، قلت لنفسي. *سوف يعود بعد بضعة لحظات*.

في السابعة وخمس وخمسين دقيقة، سمعت صوت سيارة فولسفاكن أخرى تمرّ قرب منزل ليليان.

أقنعت حينها نفسي أني سمعت التوقيت الخطأ– وأن والدي سيأتي لاصطحابي في الثامنة وليس في السابعة، وأني ارتكبت خطأ آخر. أوه، *يالغبائي*، قلت لنفسي.

جاءت الساعة الثامنة ورحلت، ومرّت أكثر من عشر سيارات قرب المنزل. وكلما كانت تدخل سيارة جديدة إلى الشارع، كنت أعرف في قرارة قلبي أن السيارة التالية ستكون حتماً سيارة والدي.

وفي التاسعة تقريباً، تثاءبت ليليان فيما كانت تدخل إلى المطبخ. "دافيد، ألا تزال هنا". أومأت برأسي إيجاباً. "حسناً، دعني أتحقق من

الروزنامة. أعلم أن والدك قال السابعة صباحاً. لقد دوّنت ذلك بحق السماء".

"أعرف ياسيدة كاتنزي"، قلت محاولاً عدم إظهار مشاعري. "سوف يكون هنا في أية....". قفز رأسي إلى النافذة حين سمعت هدير سيارة فولسفاكن أخرى متوجهة إلى الشارع. "هل ترين؟ ها هو!"، صرخت عالياً فيما كنت أؤشر إلى النافذة. أمسكت بيد ليليان. أردت لفت نظرها فيما كان والدي يدخل إلى الشارع. "نعم!"، صرخت عالياً.

أبطأت السيارة لبرهة، وإنما لتغيير مبدّل السرعة فقط قبل أن تتابع طريقها. أفلتت يدي من قبضة ليليان. نظرت إليّ كما لو أنها تريد جعلي أشعر بتحسن.

شعرت بانقباض في أمعائي. علقت كتلة جامدة في حنجرتي. "لا تقولي ذلك!"، صرخت. "سيكون هنا! أعرف أنه سيأتي! سوف ترين! سوف يكون والدي هنا في أية لحظة! سوف ترين! فوالدي يحبني! سوف نعيش يوماً من الأيام مع بعضنا و... سنكون سعيدين لبقية حياتنا. أعرف *أنها* لا تحبني، لكن والدي يفعل. *إنها* الشخص الذي يحتاج إلى طبيب نفسي، وليس أنا. إنها المريضة..."

بدا لي أن صدري يتقلّص فيما كنت أتابع الكلام. شعرت بقبضة قوية على كتفي. أحكمت قبضة يدي اليمنى ثم التفتت بسرعة. وفيما كانت عيناي تركزان على هدفي، حاولت التوقف لكني لم أستطع. وبعد برهة، ضربت رودي بكل قوتي على ذراعه.

نظرت إليه والدموع تملأ وجهي. لم يشاهدني رودي قط

أتصرف بهذه الطريقة قبلاً. أردت الاعتذار في برهة، لكني لم أستطع. كنت متعباً من التأسف لكل شيء- لعدم فهم الكلمات أو العبارات، للشعور بالذل نتيجة لاري جونيور والطبيب النفسي المجنون، للركوب على دراجتي في الشارع، أو لمجرد محاولة سماع صوت أمي. وها أنا أقول لنفسي إني سمعت التوقيت الخطأ بالنسبة إلى موعد قدوم أبي.

عرفت في قرارة نفسي أن والدي لن يأتي، لأنه تاه ربما في إحدى الحانات. لم يخطط أبداً لزيارتي، لكني قلت لنفسي إن هذه المرة ستكون مختلفة، وأن اليوم سيأتي إليّ وسوف نستمتع بأوقاتنا.

لم أستطع تقبّل الحقائق في حياتي. *كيف سمحت بوصول الأمور إلى ما هي عليه بحق السماء*؟ سألت نفسي. عرفت فيما كنت واقفاً أحدّق عبر نافذة غرفة الجلوس، أني سأمضي يوماً آخر مختبئاً في المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالدفء والأمان- أي أغطية سريري.

نظرت إلى رودي ومن ثم إلى ليليان. أردت إخبارهما عن مدى أسفي وعن مدى اشمئزازي. فتحت فمي. وقبل أن أتمكن من النطق بالكلمات، استدرت بعيداً. وفيما كنت متوجهاً إلى غرفتي، استطعت سماع رودي يهمس إلى ليليان: "أظن أننا نواجه مشكلة خطيرة".

الفصل

6

التحدي

قبل بضعة أسابيع من شروعي في الصف السادس، بدأت أتخلص من مشاعري. ففي ذلك الحين، كنت قد استنزفت كل العواطف. أصبحت متخماً من التأثير المتأرجح لحياتي الجديدة. ففي أفضل الأحوال، كنت أبتهج في اللعب تحت الأشعة البراقة لشمس الصيف. وفي أسوأ الأحوال، كنت أخشى من سخرية الأولاد الآخرين أو من حاجة الانتظار مثل الكلب المدرّب لاحتمال ضئيل لزيارة والدي. كنت مدركاً تماماً أن تغييراً بارداً يحدث داخلي. لكني لم أكترث. قلت لنفسي إنه للصمود، عليّ الحفاظ على قوتي بحيث لا أسمح أبداً لأي شخص أن يؤنبني مجدداً.

في بعض الأحيان، وبدل التوجه بدراجتي إلى الحديقة العامة، كنت أذهب إلى المتجر المحلي وأملأ جيوبي بالسكاكر التي أسرقها. لم أكن أرغب فعلاً بالسكاكر. فكنت أعلم أني لن أستطيع أبداً تناول كل هذه السكاكر. لكني كنت أسرق لأكتشف ما إذا كنت أستطيع الفرار بعملي. كنت أشعر بإثارة كبيرة عند حساب خطوتي التالية، يليها الإحساس بوخز في العمود الفقري بعد الخروج من المتجر سالماً. وفي بعض الأحيان، كنت أسرق من المتجر نفسه مرتين أو ثلاث مرات في اليوم نفسه. أما الأشياء التي لم أكن أهرّبها إلى منزل السيدة كاتنزي، فكنت أمنحها إلى الأولاد في الحديقة العامة أو أترك السكاكر مكدسة في كومات صغيرة خارج مدخل المتجر.

وحين أصبحت سرقة السكاكر مضجرة جداً، بدأت في سرقة أشياء أكبر حجماً– أي الألعاب. أصبحت متعجرفاً جداً لدرجة أني كنت أدخل مرات عدة إلى المتجر وأسرق لعبة كبيرة ثم أتسلل خارجاً– في غضون أقل من دقيقة. وكان بعض أولاد الجيران الذين سمعوا عن وهبي للسكاكر يتبعونني إلى المتجر ويراقبونني. كنت أحب ذلك الانتباه. وصلت إلى مرحلة راح الأولاد يطلبون مني سرقة الأشياء لهم. وكان همي الوحيد الحصول على قبولهم. كان ذلك شبيهاً بالأيام التي كنت ألعب فيها مع بقية الأولاد الأرباب في منزل العمة ماري. كنت أشعر برضى في داخلي كلما نادى الأولاد اسمي أو ألقوا عليّ التحية أثناء توجهي إلى الحديقة العامة. فها أنا الآن أحصل على النوع نفسه من الانتباه مجدداً.

وكلما قررت سرقة شيء ثمين، كنت أصبح شديد التركيز في داخلي. وقبل القيام بأية خطوة، كنت أتخيل كل جناح في المتجر فضلاً عن التصميم الإجمالي لرفوف الألعاب. كنت أرسم الطريق الأساسية والطرق البديلة للهروب. وفي حال تم كشفي، كانت الخطة الأولى تقضي بابتكار كذبة فيما تعني الخطة الثانية الركض ببساطة مثل المجنون.

في إحدى المرات، فيما كانت مجموعة من الأولاد تنتظرني خارج المتجر، انحرفت عن خطتي الأساسية وأصبحت مجدداً نصف إنسان ونصف آلة. قضت مهمتي بالسرقة والهرب. أراد جوني جونز نموذجاً عن طائرة B-17 الحربية. قبلت التحدي، وتنفست بعمق ثلاث مرات متتالية قبل الإمساك بالباب الزجاجي وسحبه نحو

صدري. استطعت سماع الأولاد وهم يهتفون لي، لكني أخرستهم حين أغلقت الباب خلفي. عرفت أن جوني كان يراقبني في مكان ما في المتجر. فقد أراد مشاهدة شجاعتي شخصياً. لكني لم أكترث. فأنا لديّ هدف لإنجازه.

ولكي لا يلاحظني موظفو الرقابة، نزلت إلى أول جناح مؤدٍ إلى الجهة الخلفية للمتجر، ثم انعطفت إلى اليمين وأبطأت وتيرتي. تحولت أذناي بعدها إلى رادار، للتمييز بين أصوات المتسوقين وموظفي المتجر. أبطأت وتيرتي قبل أن أنعطف مجدداً إلى اليمين وأحني رأسي إلى الأسفل لأرى ما إذا كان يوجد أحد خلفي. كانت الطريق خالية. بدأ خفقان قلبي يتسارع حين شاهدت هدفي معروضاً على الرف العلوي للجناح رقم 4. عرفت أن هذه المهمة ستكون تحدياً. ولوهلة شعرت أني لست على ما يرام. فكرت في الهروب. لا، قلت لنفسي بعد ثانية. وحين مددت يدي للوصول إلى الرف، سمعت وشعرت أن أحداً يسير في الجناح. ارتعشت لبرهة قبل أن أمدد ساقيّ أكثر للوصول إلى هدفي. وبعد لحظة، أمسكت بغنيمتي عن الرف. لم أكشف عن أي انفعال فيما كنت أسير في الجناح، ومررت أمام جوني الذي كشف عن ابتسامة عريضة جداً.

كان صدري يخفق مثل الطبلة. جاء *الآن الجزء الصعب*. مباشرة أمامي وجدت الباب المؤدي إلى النصر. أحنيت رأسي قليلاً وأصغيت لسماع أحد خلفي أو أحد يصرخ لي للتوقف. لقد وصلت اللحظة الحاسمة. أصبح وجهي مشدوداً حين وصلت لدفع الباب وفتحه ما يكفي للسماح لي بالانزلاق منه. ففي حال تبعني أحدهم،

سيتوجب على ذلك الشخص إنفاق المزيد من الوقت والجهد لفتح الباب، مما يوفر لي فرصة إضافية للفرار. ابتسمت لنفسي، مدركاً أني فكرت في كل شيء.

وراء الباب الزجاجي، استطعت سماع الأولاد يصفقون ويصرخون لي. كان جوني قد خرج، وعيناه كبيرتان مثل الفطائر. أوقفت تركيزي لبرهة- وإنما لبرهة فقط- مفكراً في جدوى مخاطرتي الأخيرة لقبولي بين المجموعة. في الماضي، كان الأولاد يضايقونني ويخدعونني في الحديقة العامة. ولطالما عرفت أنهم يسخرون مني، لكني استمريت في الخدع على أية حال. فالحصول على أي نوع من الانتباه أفضل من لا شيء.

رفعت رأسي عالياً وابتسمت فيما أنا أخرج من الباب. في ذلك الوقت، كان الأولاد يضحكون وبدأوا يلفتون الانتباه. ظننت أني سمعت صوت الباب يفتح خلفي. بدأت بمدّ يدي اليمنى لتسليم الجائزة إلى جوني حين علت صيحات عالية من الضحك. ضحك جوني بشدة لدرجة أن الدموع انهمرت من عينيه. فقدت تركيزي وضحكت أنا أيضاً. "دافيد"، صرخ جوني، "أنا أحبك... أوه يارجل، هذا كثير!"، تابع قائلاً. "أودّ أن أعرّفك على والدي". في لحظة، تحولت قدماي إلى كتلتين جامدتين من الجليد. استدرت لأشاهد رجلاً يرتدي سترة حمراء عليها لصيقة تحمل عبارة "السيد جونز- مدير المتجر".

أمسك السيد جونز باللعبة ثم أمسك بقميصي. مشيت أمامه فيما فتح باب المتجر. وحين أغلق الباب الزجاجي خلفي، أدرت رأسي. شاهدت الأولاد منحنين على دراجاتهم ويصرخون "فاشل!" بأعلى أصواتهم.

"كنا نراقبك منذ فترة يادافيد. لقد أخبرني ابني كل شيء عنك... دافيد".

أغلقت عينيّ مفكراً في مدى حماقتي. لم أشعر بالأسف على السرقة. عرفت أن ما أقوم به هو خطأ وأنا أقبل بهذا الواقع. أدركت حتى أن حظي معدوم. لكن أن يعاقبني والد الولد! كنت أعلم أن جوني نفسه يسرق السكاكر من المتجر المجاور لوالغرينز. *كان يجدر بي أن أفهم*، قلت لنفسي. أعرف *أنه لا يمكن أن يحبونني لمجرد كوني ولداً آخر.*

بعد ساعة تقريباً، عدت إلى منزل ليليان. فتحت الباب واستطعت سماعها تنهض عن الأريكة. وفيما كنت أجرّ نفسي لأصعد السلم، وقفت ووضعت يديها على وركيها. كان وجهها أحمر اللون.

جلست على كرسي المطبخ قبل أن تبدأ ليليان بأسئلتها وعباراتها الغاضبة وملاحظاتها عن سلوكي الماضي. حدّقت ببساطة فيها، محركاً رأسي كلما شعرت أن الجواب ضروري. حاولت إقناعها بأني آسف فعلاً. وحين لفظت الكلمات، بدت عفوية جداً. توجهت بعد ذلك إلى غرفتي حيث استلقيت على سريري محدقاً في السقف. بقيت محاصراً لأسبوع. *صفقة كبيرة*، قلت لنفسي.

بعد لحظات قليلة من عودة رودي إلى المنزل، وقفت أمامه. تنهّدت بهدوء. *الجولة الثانية*، قلت لنفسي.

"لا اعرف ما الذي دهاك"، بدأ رودي، "لكني سأقول لك هذا. أنا لا أتعاطى مع سارق. أعرف أني تغاضيت عن بعض الأمور، وأعرف أن ليليان متساهلة بعض الشيء معك. أستطيع القبول بذلك.

أعرف أيضاً أنك مررت في بعض الأوقات الصعبة... لكني لن أتحمل ذلك بعد الآن- كلامك البذيء، الشجار، الضرب، الصراخ، الاتصالات من أمك، إغلاق الأبواب بقوة في أرجاء منزلي. هل تعرف الآن كم تكلّف الأبواب؟ هل تعرف؟"

هززت رأسي للقول لا.

"حسناً، إنه أكثر مما ستجنيه طوال عمرك. أنا أعمل بكدّ، وأحبكم أيها الأولاد. لكني لا أحتاج إلى فظاظتك. أتسمعني؟"، صرخ رودي.

أومأت برأسي مجدداً، مدركاً أن رودي لا يهتم.

"ألست أنت الشخص الذي يسرق سجائري؟"

ارتفع رأسي إلى الأعلى. "لا، سيدي!"

"وتتوقع مني أن أصدقك!"، صرخ رودي. "إذا سمعت أنك تسبب المزيد من المشاكل... سأرسلك إلى الإصلاحية".

أشرق وجهي. "*الإصلاحية* ؟"

"أوه! الآن أثرت انتباهك. إسأل من حولك". استدار رودي. "إسأل لاري جونيور هنا. لقد أخذته إلى الإصلاحية مرة أو مرتين، أليس كذلك يالاري؟"

كشف لاري جونيور، الذي كان يقف وراء رودي، عن وجه جدي ومذعور. "صحيح، يابابا"، قال بصوت خائف، فيما أحنى رأسه.

"لا أريد أن- أنت ما تزال صغيراً- لكني سأضعك في السيارة وآخذك بنفسي. فإن كان من أمر لا أحتمله فهو الكذب والسرقة!"، قال رودي فيما اقتربت ليليان منه. "وتستطيع ليليان البكاء قدر ما

تشاء، لكن الحال ستكون كذلك في هذا المنزل. هل أنا واضح أيها الشاب؟"

أومأت برأسي.

"هل أنت كبير جداً لدرجة أنك لا تستطيع القول نعم أو لا؟"، صرخ رودي عالياً.

"نعم، سيدي"، قلت بنبرة تحدي. "أنا أفهم".

جلست في غرفتي قلقاً. نعم، قلت لنفسي، *أنا محاصر. صفقة كبيرة.* لم أكن غاضباً من رودي أو ليليان بسبب صراخهما عليّ، ولا حتى من هزء جوني وبقية الأولاد مني. كنت غاضباً لأني سمحت لنفسي بالتخلي عن حذري. *دافيد*! صرخت لنفسي. *كيف أمكنك أن تكون غبياً بهذا القدر*؟ قفزت من ثم عن السرير وبدأت أمشي على الأرض وشعرت بالمزيد من الغضب حيال كل شيء في حياتي.

في يوم السبت، لم أبذل الكثير من الجهد في واجباتي المنزلية. نظفت المنزل بطريقة لامبالية وبالكاد نزعت الغبار عن الأثاث. وبعد إتمام الواجبات، أخذ رودي ليليان إلى المتجر للتسوق. بقيت لوحدي وجلست على كرسي رودي الهزاز مقلّباً محطات التلفزيون. فقدت الاهتمام بسرعة حين أدركت أن المحطات تعرض كلها الرسوم المتحركة.

نزلت عن الكرسي وتوجهت إلى نافذة غرفة الجلوس، محدقاً في الخارج. فكّرت في أن أبي قد يزورني غداً. وبعد بضعة لحظات، ضحكت في قرارة نفسي، مدركاً أني أحمق تماماً. فجأة، لفت انتباهي مشهد ولد يجوب الشارع على دراجته.

من دون تفكير، دخلت إلى غرفة نومي، وأفرغت المال الموجود في وعائي الزجاجي وأمسكت بالسترة قبل النزول إلى الأسفل. ركبت بكل فخر على دراجتي وأغلقت الباب عمداً بكل قوة. لقد قررت الهروب.

شعرت بإثارة كبيرة فيما كان الهواء القوي يلفح وجهي، ورحت أجوب الطرقات المؤدية إلى مدينة دالي ومسرح السينما سيرامونتي. بعد الوصول إلى هناك أوقفت دراجتي وشاهدت فيلم جايمس بوند ثلاث مرات متتالية قبل التسلل إلى العروض الأخرى. في وقت لاحق من ذلك المساء، طردني حارس السينما خارجاً لأنه يريد إقفال المسرح. بدأت حقيقة قراري تبرز تدريجياً. ركبت على دراجتي وارتعشت من الضباب البارد الذي اخترق كل ثيابي. وحين بدأت معدتي تدمدم، أخرجت المال من جيبي لأجد أن مدخراتي بلغت 2.30 دولار فقط. أعدت المال إلى جيبي وأسكتت جوعي، مركزاً بدل ذلك على إيجاد مأوى. وللبقاء دافئاً، واصلت الركوب على دراجتي. وبعد أن اجتزت المنازل المظلمة في الجوار، أدركت أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة والنصف ليلاً.

في وقت لاحق، نزلت عبر الشارع المؤدي إلى مدرستي الابتدائية القديمة. مررت أمام الملعب وأصغيت إلى أصوات الأراجيح تتمايل بفعل الهواء. صعدت بعد ذلك على دراجتي إلى هضبة جادة البوابة الشرقية. وحين وصلت إلى أعلى جادة كرستلاين، مثلما فعلت قبل بضعة أسابيع، اختبأت خلف مجموعة من الأشجار المنخفضة فيما رحت أحدق في الشارع المليء بالضباب.

لم أستطع مقاومة رغبتي في نزول الشارع. توقفت قبل بضعة منازل من منزل أمي. شاهدت ضوءاً أصفر باهتاً منبعثاً من نوافذ غرفتها. تساءلت ما إذا كانت أمي تفكر بي مثلما أفكر بها. بدأت أفكر في كيفية تمضية إخوتي لأوقاتهم في منزل أمي. هبّ هواء قوي عبر شعري. رفعت ياقة قميصي. أدركت أن المنزل الذي أتجسس عليه ليس المنزل نفسه الذي استقبل جيشاً من الأولاد حين كانت أمي مسؤولة في الكشاف، أو المنزل نفسه الذي كان المنزل الأكثر شعبية في الجوار خلال فترة عيد الميلاد، قبل أعوام عدّة. بعد أن أطفأت أمي مصباح غرفة نومها، تلوت الصلاة قبل النزول عبر الشارع للعودة إلى مسرح السينما. في تلك الليلة، نمت ملتفاً حول نفسي، وأنا أرتعش تحت جهاز تكييف.

في اليوم التالي، أمضيت النهار بأكمله في مسرح السينما ونمت أثناء عرض فيلم *التنين* لبروس لي. في ذلك المساء، وبعد إغلاق مسرح السينما، توجهت إلى المطعم المحلي حيث سال لعابي حين شاهدت أطباق الطعام معروضة على الرف. جاء المدير، الذي كان يراقبني منذ يومين، وجلس معي وتحدث إليّ. وبعد دقائق قليلة من المفاوضات، أعطيته رقم هاتف آل كاتنزي. التهمت قطعة هبمرغر قبل أن يأتي رودي لاصطحابي بسيارته الكرايزلر الزرقاء.

"دافيد"، بدأ رودي، "لن أزعجك. كل ما أستطيع قوله هو أنك لا تستطيع الاستمرار في مثل هذه التصرفات. ما من طريقة للعيش- لك أو لنا. عليك اتخاذ موقف معين".

حين وصلنا إلى منزلهما، استحممت بسرعة ثم خلدت إلى النوم

فيما ناقش رودي وليليان كيفية حلّ مسألتي.

في اليوم التالي، جاءت الآنسة غولد. لم تبدو مثلما كانت قبلاً، ولاحظت أنها نسيت معانقتي. "دافيد، ما هي المشكلة هنا؟"، سألتني بصوت حازم.

رحت ألعب بيديّ فيما حاولت تفادي النظر إلى الآنسة غولد. "لماذا لا تأتين أبداً للزيارة؟"

"دافيد؟ تعرف الآن أن هناك الكثير من الأولاد أمثالك الذين يحتاجون أيضاً إلى مساعدتي. أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟"

"نعم، سيدتي"، قلت موافقاً. شعرت بالذنب لأني أسرق وقت الآنسة غولد من بقية الأولاد، لكني اشتقت إلى رؤيتها تماماً مثلما فعلت قبل المحاكمة.

"دافيد، أخبرتني السيدة كاتنزي أنك تواجه مشكلة كبيرة في التكيف هنا. ألا تحب المنزل؟ ما الذي يجري داخلك؟ أين هو الصبي الظريف الذي عرفته قبل بضعة أسابيع؟"

حدّقت في يديّ. كنت محرجاً جداً للإجابة.

بعد دقيقة صمت قالت: "لا تقلق. أعرف كل شيء عن الطبيب النفسي. ليست غلطتك. سوف نعثر لك على واحد متخصص في شؤون الأولاد..."

"لست ولداً. أنا في الثانية عشرة وتعبت من الإزعاج!"، قلت بصوت بارد. توجّب عليّ التقاط أنفاسي قبل الكشف عن جانب آخر من شخصيتي، لم يكن موجوداً أبداً حتى وقت غير بعيد.

"دافيد، لمَ أنت غاضب جداً؟"

"لا أعرف ياآنسة غولد. في بعض الأحيان، أنا..."

اقتربت الآنسة غولد مني بعد أن كانت جالسة في الطرف الآخر للأريكة. رفعت ذقني بأصابعها فيما مسحت أنفي الجاري. "هل تنام كفاية؟ لا تبدو على ما يرام. ألا تحب العيش هنا؟"

"نعم سيدتي"، أومأت برأسي. "أحب هنا كثيراً. السيدة كاتنزي لطيفة فعلاً. لكن في بعض الأحيان... أشعر بالخوف. أحاول إخبارها، لكني لا أستطيع. هناك الكثير من الأمور التي لا أفهمها، وأريد أن أعرف السبب".

"دافيد، أعرف أن هذا الأمر قد يكون صعباً عليك، لكن ما تشعر به الآن، في هذه اللحظة بالذات، هو طبيعي جداً. ولو لم تكن مرتبكاً او قلقاً بعض الشيء، لكنت شعرت بالخوف. أنت على ما يرام.

"لكن ما يقلقني الآن هو سلوكك. أعرف أنك أفضل مما تتصرف في الآونة الأخيرة. هل أنا محقة؟ وليس السيد كاتنزي راضياً عنك في الوقت الحاضر، أليس كذلك؟"

"إذاً، أنا على ما يرام؟"

ابتسمت الآنسة غولد. "نعم، أستطيع قول ذلك مبدئياً. ما زال علينا التخلص من بعض المشاكل، لكن إذا استطعت تغيير سلوكك، ستكون على ما يرام. هل تريد الآن طرح أية أسئلة عليّ؟"

"نعم، سيدتي.... هل سمعت أي شيء عن والدي؟"

رفعت الآنسة غولد حاجبيها. "ألم يأتِ للزيارة؟ كان يفترض به لقاؤك قبل بضعة أسابيع"، قالت فيما بدأت تفتح مفكرتها.

أومأت برأسي للقول لا. "لقد كتبت له بعض الرسائل، لكن أظن

أني لا أملك العنوان الصحيح. فأنا لا أتلقى الأجوبة... ولا أملك رقم هاتفه. هل تعرفين ما إذا كان والدي على ما يرام؟"

ابتلعت بصعوبة. "حسناً.... أنا... أعرف أن والدك انتقل للعيش في منزل آخر... وتم نقله إلى مركز عمل مختلف".

انهمرت الدموع على وجهي. "هل أستطيع الاتصال به؟ أريد فقط سماع صوته".

"عزيزي، أنا لا أملك رقمه. لكني أعدك بأني سأحاول الاتصال بوالدك بأسرع وقت ممكن. سأحاول الاتصال به اليوم. هل هذا ما دفعك للذهاب إلى منزل أمك ومحاولة الاتصال بها قبل بضعة أسابيع؟"

"لا أعرف"، أجبتها. لم أخبر الآنسة غولد عن مروري قرب منزل أمي ليلة السبت الفائت. "ألا يسمح لي الاتصال بها؟"

"دافيد، ماذا تتوقع؟ إلى ماذا تسعى؟"، سألت بصوت خافت فيما بدت هي أيضاً تبحث عن الأجوبة.

"لا أفهم لماذا لا يسمح لي بمشاهدتها هي أو الأولاد أو التحدث إليهم. ماذا فعلت؟ أريد فقط أن أعرف... لما حدثت الأمور على هذا النحو. لا أريد أن أصبح مثلما هي الآن. يقول الطبيب النفسي إنه يجدر بي كره أمي. قولي لي ماذا يجدر بي أن أفعل".

"حسناً، لا أعتقد أنه يجدر بك كره أمك، أو أي شخص آخر بسبب هذه المسألة. كيف أستطيع قول ذلك..."، وضعت الآنسة غولد إصبعها على فمها وحدّقت في السقف. "دافيد، أمك هي حيوان مجروح. أنا لا أملك جواباً منطقياً عن سبب تغييرها لرقم هاتفها أو

عن سبب تصرفها على هذا النحو". سحبتني إلى جانبها. "دافيد، أنت ولد صغير- أعذرني أنت شاب في الثانية عشرة- يشعر ببعض الارتباك ويفكر كثيراً في بعض الأمور فيما لا يفكر أبداً في أمور أخرى. أعرف أنه يجدر بك التفكير مسبقاً لتتمكن من الصمود، لكن عليك التخلص من ذلك. قد لا تعثر أبداً على أجوبتك، ولا أريد أن يمزقك ماضيك. لا أعرف حتى لمَ تحدث هذه الأمور للأولاد، وقد لا أعرف أبداً. لكني أعرف أنه يجدر بك توخي الحذر حيال ما تقوم به الآن، اليوم، بدل محاولة العثور على أجوبة لماضيك. سوف أساعدك قدر المستطاع، لكن عليك بذل مجهود كبير للحفاظ على نفسك".

عانقتني الآنسة غولد لوقت طويل. سمعت شهيقها وشعرت بجسمها يرتجف. التفتت للنظر إليها- إلى مساعدتي الاجتماعية الحبيبة. "لماذا تبكين؟"، سألتها.

"حبيبي، لا أريد أن أخسرك"، قالت وهي تبتسم.

ابتسمت لها أيضاً. "لن أهرب مجدداً".

"حبيبي، سأكرر لك ذلك مرة أخرى. عليك أن تكون طيباً جداً جداً. لا أريد أن أخسرك".

"سوف أكون طيباً. أعدك"، قلت لها محاولاً طمأنة ملاكي.

بعد زيارة الآنسة غولد، عدت إلى ذاتي المرحة الاعتيادية. شعرت مجدداً بالطمأنينة في داخلي. لم أفكر في الطبيب النفسي المختل، وبذلت جهداً إضافياً للانسجام مع لاري جونيور، وأنجزت واجباتي بكل فخر. لم أكترث حتى لحصاري. كنت أنزل ببساطة إلى الأسفل، وأقترض بعضاً من شمع السيارات القديم لصقل

دراجتي من البداية حتى النهاية. حافظت على ترتيب غرفتي، وانتظرت بفارغ الصبر تغيير الوتيرة وبداية السنة الدراسية.

حين بدأت المدرسة، اعتزلت الناس بعدما شاهدت بقية الأولاد في صفي يتباهون بثيابهم الجديدة وأقلامهم الملونة. وخلال الفرصة، ذهبت إلى الملعب العشبي وراقبت بعض الأولاد وهم يلعبون كرة القدم. أدرت رأسي لبرهة وجاءت كرة القدم لترتطم بوجهي بعد ثانية. فيما رحت أفرك خدي الأيمن نتيجة الضربة، سمعت صوت ضحك. "هاي، يارجل"، صرخ الولد الأكبر، "إرمِ لنا الكرة". شعرت بالعصبية حين انحنيت لرفع الكرة. لم أرمِ كرة قدم من قبل. عرفت أني لا أستطيع رميها بطريقة جيدة. حاولت تقليد بقية الأولاد فيما حبست أنفاسي ورميت الكرة. تمايلت الكرة مرات عدة قبل أن تعاود السقوط على مسافة بضعة أقدام مني.

"ما الأمر أيها الرجل"، قال ولد فيما كان يرفع الكرة. "ألم ترمِ كرة قدم من قبل؟"

وقبل أن أستطيع الإجابة، جاء ولد من صفي. "نعم... إنه الولد الذي كنت أخبر الرفاق عنه. راقب ثيابه وحذاؤه أيضاً. يبدو كأن أمه تلبسه أو ما شابه. هذا الولد هو أحمق فعلي!"

من دون تفكير، مددت ذراعي وتأملت مظهري. كنت فخوراً بقميصي الأزرق. كشف سروالي عن رقعة في كل ركبة وكان حذائي الرياضي بالياً بعض الشيء، لكنه ما زال جديداً بالنسبة إليّ. وبعد تأمل مظهري، راقبت بقية الأولاد الذين بدوا جميعاً أنهم يملكون ثياباً أفضل وأحذية أجمل. كان بعضهم يرتدي كنزات سوداء

سميكة. حدّقت في نفسي مجدداً وشعرت بالخجل. لكني لم أكن واثقاً من السبب.

أصبحت في الصف ولداً عصبياً كلما ناداني الأستاذ. وفي بعض الأحيان، كنت أفأفئ أمام الجميع. بعد ذلك، كان يعمد أولاد كرة القدم إلى تقليدي فيما أجلس في مقعدي محاولاً الاختباء من ملاحظاتهم. وأثناء صف الانكليزي، كنت أكتب دوماً قصة عن كيفية انفصالي عن إخوتي وعن كفاحنا للعثور على بعضنا. كنت أرسم دوماً صوراً تجسّدني أنا وإخوتي منفصلين عن بعضنا بواسطة جسم مائي ضخم أو منحدرات سوداء مسننة. وفي كل رسم، كنت أستعمل أقلام أستاذي وأرسم ابتسامات عريضة على كل وجه، وشمساً عملاقة سعيدة تسطع فوقي وفوق إخوتي الأربعة.

في إحدى المرات، أثناء العودة من المدرسة إلى المنزل، راح اثنان من أولاد كرة القدم يزعجانني بشأن استعمال الأقلام. أردت توبيخهما بشدة، لكني أدركت أني سأفسد الأمر أيضاً. لذا، هربت وشعرت بالأسى. التقيت سريعاً بولد آخر من صفي اسمه جون. كان جون منبوذاً مثلي. كان شعره طويلاً وأسود اللون ويرتدي ثياباً بالية. اشتهر جون بمشيته المميزة، وأدركت فجأة أنه ما من أحد يضايقه. وأثناء توجهي إلى جون، لاحظت سيجارة في يده.

"هاي"، قال جون، "أنت الولد الجديد في المدرسة؟"

"نعم"، أجبته وأنا أشعر بالفخر فيما بدأنا نمشي مع بعضنا.

"لا تقلق بشأن هؤلاء الأولاد"، قال جون وهو يؤشر خلفه. "أعرف ما معنى الإزعاج. فقد اعتاد أبي على ضرب أمي وضربي.

إنه لا يعيش معنا بعد الان". أنكرت بسرعة موقفه الخشن. راح جون يشرح لي أن أهله تطلقا للتو وأن أمه تعمل دواماً كاملاً لإطعامه مع إخوته. شعرت بالأسى حياله. وفي نهاية الزاوية، قلنا وداعاً لبعضنا. وفيما كنت متوجهاً إلى منزل ليليان، ذكّرني إحساس البرد بمدى خوفي من العودة إلى المنزل من المدرسة.

التقيت جون في اليوم التالي في ملعب المدرسة أثناء الفرصة. بدا منزعجاً جداً لأن أستاذنا وبخه أمام الصف لأنه لم ينجز فرضه المنزلي. تباهى جون أمامي وأمام رفيقين آخرين بأنه سينتقم من الأستاذ. بدا كأنه يصون كلماته حين انحنيت صوبه لسماع خطته.

"هاي، يارجل، لن تشي بي، أليس كذلك؟"

"أبداً!"، قلت له.

"حسناً. عليك أن تكون فرداً من عصابتي للتسكّع معي. سأقول لك أمراً. سوف تلاقينا في موقف السيارات بعد المدرسة. سأخبرك الخطة عندئذ".

قبلت بتحدي جون، وأنا مدرك بأني أتورط في مشكلة. كان يتصرف بخشونة دوماً في الصف. وحتى أولاد كرة القدم بقوا بعيدين عنه. وفيما غصت في أحلام اليقظة داخل الصف في ذلك اليوم، فكرت ألف مرة في التملص. قلت لنفسي إنه حين يرنّ الجرس في نهاية اليوم، سأبقى في الخلف وأكون آخر شخص يغادر. سأتسلل بعدها خلف موقف السيارات ولا ألاقي الأولاد. وفي اليوم التالي، سأقول لجون إني نسيت.

حين رنّ الجرس بعد ظهر ذلك اليوم، رفعت غطاء مكتبي كما

لو أني أبحث عشوائياً عن شيء ما. سمعت أصوات أقدام الأولاد وهي تغادر الصف. وحين شعرت أني في أمان، أغلقت غطاء المكتب ببطء... وشاهدت جون واقفاً أمامي. تنهّدت بعمق، وقبلت بحقيقة ذهابي معه. رفع جون ياقة سترته السوداء. وفي موقف السيارات، كان صديقا جون يتململان بعصبية فيما يحاولان هما أيضاً الحفاظ على هدوئهما.

"هذه هي"، قال جون. "لقد قررت أن الولد الجديد هنا جيد كفاية للانضمام إلى عصابتنا. سوف ينخس دواليب السيارة الجديدة التي اشتراها الأستاذ سميث. وأعني *بالدواليب* اثنين أو أكثر"، قال فيما كان يحدّق في عينيّ. "بهذه الطريقة، لن يتمكّن سميث من استعمال الدولاب الاحتياطي. فكرة ذكية، أليس كذلك؟"، ضحك جون.

استدرت بعيداً عنه. عرفت أنه حين سرقت ألواح السكاكر والألعاب من المتاجر، كنت مخطئاً. لكني لم ألحق الأذى قط بملكية أي شخص قبلاً، ولن أفعل ذلك الآن. شعرت بالنظرات المحدقة حولي. ابتلعت بصعوبة. "جوش، جون.... لا أظن فعلاً أننا..."

فيما تحوّل وجه جون إلى اللون الأحمر، نخسني في ذراعي. "هاي، أيها الرجل، قلت إنك تريد أن تكون صديقي وتنضمّ إلى *عصابتي*، أليس كذلك؟"

اقترب بعض الأولاد مني. أومأ الولدان الآخران برأسهما إيجاباً.

"نعم، يارجل، لا بأس. سأفعل ذلك. لكني أصبح بعدها في العصابة ولن أضطر لفعل مثل هذا الأمر مجدداً، أليس كذلك؟" قلت بصوت خافت، فيما سيطر الخوف على جهودي الضعيفة لأبدو قوياً.

ربّت جون على كتفي. "أترون؟ لقد قلت لكم! لا بأس بهذا الولد!"

شعرت بانقباض في عينيّ ووجهي. أصبحت بارداً من الداخل. "لنفعل ذلك!"، قلت بصوتي الشرير الجديد.

أخذني جون إلى سيارة جديدة صفراء اللون. أومأ إليّ فيما كان يبعد نفسه عن ساحة الجريمة. ضحك الولدان الآخران فيما كانا يتبعان زعيمهما.

تنهّدت بعمق وركعت على الأرض، من دون أن أصدق ما أقوم به. شعرت بخفقان قلبي يتسارع. أردت النهوض والهرب، لكني عجزت عن ذلك. *هيا*، قلت لنفسي. *إفعل ذلك! هيا*!

تفحصت المكان جيداً قبل أن أحاول فك برغي الغطاء المطاطي للإطار. وبعد بضعة ثوانٍ، بدأت أصابعي ترتجف، فيما الغطاء المطاطي لا يزال موجوداً. شعرت أن كل العيون تنظر إليّ، فيما كانت أصوات بقية الأشخاص وهم يغلقون أبواب سياراتهم تتردد فوق رأسي.

وأخيراً، وقع الغطاء المطاطي على الأرض. سحبت فوراً قلم رصاص من جيبي الخلفي. التفتت إلى الخلف ونظرت في عينيّ جون. كان وجهه مشدوداً، ورفع حاجبيه ليخبرني عن مدى خيبة أمله بأدائي. قال لي جون من ثم: "هيا، تحرك!"

أخذت نفساً سريعاً قبل غرز طرف قلم الرصاص في الإطار. بدا كأن الهواء ينفجر فيما يخرج من الفتحة الصغيرة. عرفت أنه باستطاعة الجميع سماع ما أقوم به. ترددت لبرهة فيما أنا أبحث عن جون الذي أومأ إليّ بالمتابعة. شعرت أن الخوف يسيطر عليّ. لا!

صرخت لنفسي. *هذا خطأ*! أخرجت قلم الرصاص من الإطار، ثم نهضت وتجاوزت جون الذي أمرني بإنهاء المهمة. لكني مررت بسرعة أمامه فيما أنا خارج من موقف السيارات. وبّخني جون *والعصابة* بسخرية طوال الطريق إلى أن انعطفوا نحو الزاوية المؤدية إلى منزل جون.

في اليوم التالي، استمرت سخرية جون. وفي ملعب المدرسة دفعني على الأرض من دون إنذار. وفيما حاولت النهوض، تحلّقت دائرة من الأولاد حولنا. "قتال! قتال! قتال!" بدأوا يرددون. أبقيت رأسي منحنياً نحو الأسفل فيما حاولت اختراق المجموعة. انهمر عليّ وابل من الشتائم.

في غضون دقائق، بدا أن المدرسة بأكملها علمت بشأن خيانتي لجون وعصابته. شعرت بوهن أسوأ من ذلك الذي اعتراني في مدرسة توماس إديسون الابتدائية.

في صباح اليوم التالي، اختلقت مجموعة من الأعذار عن مرضي أمام ليليان كي لا أذهب إلى المدرسة. لم أخبرها أي شيء عن جون أو عن مشاكلي الاجتماعية في المدرسة. فإذا فعلت ذلك، أعرف أن رودي والآنسة غولد سيغضبان مني.

وبعد بضعة أسابيع على الحادثة، اعتذرت من جون وعصابته. وللتعبير عن صداقتي، أهديت جون علبة من سجائر مارلبورو كنت سرقتها في اليوم السابق. "حسناً، أيها الولد"، ابتسم جون. "نسامحك أنا والأولاد على جبنك، لكن *عليك* الانضمام إلى مجموعتنا".

أومأت برأسي وذكّرني عقلي بكل الروايات التي سمعتها عن

جون وطريقة تعذيبه وركله للولدين الآخرين في العصابة حتى يسقطان أرضاً. شاهدت نفسي ووجهي مليء بالدم، فيما نظاراتي مكسورة وأسناني مسحوقة. حدقت في عينيه، وجعلت نفسي أبدو مثل الولد القاسي. "حسناً، أيها الرجل، أستطيع القبول بهذا"، قلت بنعومة.

"لا يارجل"، قال جون فيما كان يعرض سيجارته غير المشتعلة. "لدي شيء خاص لك. أصغِ إليّ جيداً. لقد سئمت من السيد سميث. يظن أنه قوي لأنه الأستاذ. لقد كتب رسالة إلى أمي، وهي تضايقني بسببه. لذا... أقول... دعنا نحرق صفه!"

فتحت فمي على الملأ. "لا، أيها الرجل، أنت... لست جاداً؟"

"هاي، أنا لا أطلب منك فعل ذلك. أنا أقول فقط إنه يجدر بك تأمين الحماية لي. هذا كل شيء. لا أستطيع الاعتماد على هذين المغفلين... أما أنت... فبلى". فجأة، تغير صوت جون. "وإذا وشيت يوماً بي، سوف أقتلك". بعد أقل من برهة، غيّر جون نبرته مجدداً. "أيها الرجل، لا تخف. أنا لا أتحدث عن تنفيذ الأمر اليوم. ما عليك سوى التواجد هنا حين أحتاجك. موافق؟"

"نعم، أيها الرجل"، أومأت برأسي. "سوف أساعدك. أنا موافق".
مشيت بعيداً وأنا أقول لنفسي إنه يتصرف فقط بفظاظة. *فلا يمكن لأحد أن يحرق مدرسة*، طمأنت نفسي. *لكن ماذا لو كان جاداً؟ ماذا يجدر بي أن أفعل؟* لا يجدر بي إخبار السيدة كاتنزي ولا الأساتذة. لكن في أية حال، لن أبلّغ عن جون. ليس لأني أريد أن أكون لطيفاً، وإنما بسبب الخوف من المعاملة القاسية والعيش في الإذلال في ما بعد.

حاولت تفادي لقاء جون في الأيام القليلة التالية، فيما راح يجدد وعده بأنه سيعلّم الأستاذ درساً عما قريب. ومع مرور الأسابيع، بدأت أظن أن جون يكتفي بالتبجح ليحظى بانتباه أي شخص يصغي إليه. وفي بعض الأوقات، حين كانت تحتشد مجموعة كبيرة من الأولاد، كنت أتبجح أنا أيضاً قائلاً إننا وضعنا أنا وجون "الخطة" التي ستظهر مدى قوتنا لكل من في المدرسة. وكلما كنت أتبجح أكثر، كانت المجموعة تكبر. شعرت بالذهول لأن الأولاد الذين كانوا يسخرون مني قبلاً باتوا يعلّقون اليوم أهمية على كل كلمة أقولها. وبعد أيام من سرد الروايات، اختفى تورط جون من المسألة ووجدت نفسي أقول إني سأكون أنا الشخص الذي سينفذ الخطة.

مرّت الأسابيع ونسيت أمر الخطة إلى أن جاء إليّ جون في أحد الأيام بعد انتهاء المدرسة، وهو يكشف عن نظرة عميقة وباردة في عينيه، وطلب مني ملاقاته مجدداً في المدرسة بعد ساعة. شعرت بأن شيئاً علق في حنجرتي. "حسناً، يارجل، سأعود"، قلت له قبل أن أستطيع التفكير في عذر. وبعد ساعة تقريباً، فيما كنت أدخل إلى أرض المدرسة، تمنيت لو يكون غيّر رأيه.

كانت رائحة الأوراق المحترقة تملأ القاعة. بدأت بالركض وأنا أتبع الدخان فوجدت نفسي متوجهاً إلى الأسفل. وبعد ثوانٍ، وجدت جون منحنياً فوق فتحة صغيرة فيما الدخان الأسود يخرج منها. وقفت وأنا غير مصدق لما يجري. لم أظن يوماً أنه قد يفعلها.

"جون!" صرخت

ارتفع رأس جون إلى الأعلى. يالهي، أيها الرجل. أين كنت؟

تعال... ساعدني!" وقفت وراءه، علماً أني لا أزال غير واثق من نفسي. "هيا، يارجل، ساعدني! ساعدني في إخماد النار!" قال باكياً.

توقف دماغي عن العمل إلى أن حاولت تنظيم أفكاري فيما استمر الدخان في التصاعد من الفتحة. سيطر الرعب على وجه جون. وبعد ثوانٍ قليلة، سقط إلى الخلف. "لا مجال يارجل! إنها خارج السيطرة! هيا بنا، لنذهب!" وقبل أن أستطيع الإجابة، شاهدت ظله يختفي في القاعة.

انحنيت فوق الفتحة وبرمت رأسي وأنا أسعل من الدخان الأسود. بدأت تظهر نيران حمراء برتقالية. امسكت بلمح البصر بعلبة سائل القداحة التي تركها جون وأخرجتها من الفتحة. وفيما كنت أسحب العلبة، ضغطت عليها بشدة لدرجة أن دفقاً من السائل خرج من العلبة متوجهاً نحو يدي، فامتلأت هذه الأخيرة بسائل عديم اللون. ظننت لبرهة أن العلبة ستنفجر وكذلك هي يدي اليمنى. رميت العلبة خلفي وبحثت عن المساعدة. بدا لي الوقت متوقفاً إلى أن سمعت أخيراً صوت أحذية صغيرة تعبر القاعة. توقفت فتاة صغيرة على مسافة أقدام مني ثم حدقت ببله. "أطلبي المساعدة!" صرخت لها. "إضغطي على جرس الإنذار! إضغطي على جرس الإنذار!" وضعت الفتاة الصغيرة يديها على فمها الصغير. "هيا!" أمرتها. "تحركي!"

أغمضت الفتاة عينيها بسرعة. "أوه... أنا أقول"، تمتمت الفتاة الصغيرة قبل أن تذهب مسرعة. وبعد لحظات، سمعت صوت جرس الإنذار. استعملت كلا يديّ لغرف الحصى والحجارة ووضعها فوق اللهب. فقد كنت أعلم أن الحريق يحتاج إلى الأوكسيجين ليصبح أقوى،

ولذلك حرصت على تكديس ما يكفي من الحصى لخنق الحريق.

وحين شاهدت كومة الحصى الكبيرة تخنق اللهب، تراجعت إلى الخلف لمراقبة سحب الدخان الرمادية وهي ترتفع. مسحت العرق عن وجهي بيديّ الملطختين بالسواد. استدار رأسي إلى اليمين حين سمعت أحدهم يصرخ: "من هنا! لقد أخمد الحريق!". شعرت بالخوف يدبّ في عمودي الفقري. وبعد لحظات قليلة، ركضت بأقصى سرعة إلى الشارع فيما كانت أصوات سيارات الإطفاء تخترق أذنيّ. لوّحت للسيارات مثلما اعتدت دوماً. ابتسم لي أحد رجال الإطفاء الذي كان واقفاً عند طرف إحدى السيارات ولوّح لي.

في صباح اليوم التالي، التقيت جون عند زاوية منزله. اتفقنا معاً على إنكار أي تورط لنا في حريق الأمس، وذكّرني مجدداً بتهديده. "بالإضافة إلى ذلك"، قال جون بابتسامة عريضة، "أنت الآن فرد من العصابة. أنت نائب الرئيس".

شعرت أني في قمة العالم إلى أن دخلت إلى الصف. التفتت كل الرؤوس نحوي حين نهض أستاذ الصف السادس، السيد سميث، عن مكتبه وأمسك بذراعي وأخذني إلى مكتب المدير. "كيف أمكنك فعل ذلك؟"، سأل أستاذي. "لم أتوقع أبداً شيئاً كهذا منك".

جلست لاحقاً أمام المدير الذي أبلغني أنه سيتصل بالشرطة ورئيس الإطفائية وبأهلي بالرعاية. لم أفكر سوى في وجه رودي. "قبل أن تقول أي شيء"، قال المدير، "تم التأكد من أنك مسبب الحريق..."

"لا!"، صرخت عالياً. "لم أفعل ذلك! صدقاً سيدي!"

"حقاً؟"، ابتسم المدير. "جيد. أصدقك. أرني يديك".

مددت له ذراعيّ، غير واثق من نوايا المدير. انحنى فوقي وأمسك بيديّ. ثم فرك الشعر القصير في يديّ المحترقتين. "أظن أني شاهدت ما يكفي"، قال فيما ردّ لي ذراعيّ.

"لكني لم أفعل ذلك!"، بدأت أبكي.

"أنظر إلى نفسك. ما زلت أستطيع شمّ رائحة الدخان منك. لديّ بيانات من الأساتذة تؤكد أنك كنت الولد الذي يتفاخر دوماً بهذا الشيء نفسه. بالإضافة إلى ذلك، تبين أن والدك إطفائي. لا تحتاج إلى قول أي شيء آخر. سوف تكون الشرطة هنا قريباً، ويمكنك إخبارهم القصة. أطلب منك الانتظار في الغرفة الأخرى. لديّ بعض الاتصالات لأجريها"، قال المدير فيما لوّح لي بيده.

أغلقت الباب خلفي وبدأت بالجلوس. شعرت باستياء السكرتيرة العجوز. أومأت لها برأسي فيما كنت أجلس في مقعدي. وجّهت إليّ نظرة استياء قبل أن تنفخ في وجهي وتستدير. "ولد رببيب! لا نحتاج إلى نوعك!"

أمسكت بذراعيّ الكرسي وقفزت عن مقعدي. "أعرف ما هو رأيك بي! كلكم! لكن إعلمي هذا. أنا لم أرتكب ذلك!"، صرخت في وجهها فيما أغلقت الباب بقوة خلفي. بعد لحظة، شاهدت المدير يخرج بسرعة من مكتبه، ملوّحاً بقبضته لي. من دون تفكير، هربت من المدرسة ولم أتوقف إلا عند الوصول إلى أسفل الهضبة بمحاذاة منزل جون. تسلّقت السور واختبأت في الحديقة في انتظاره.

"يارجل، هذا رائع! لقد نجحت في الفرار!"، قال جون حين اكتشف أني أطرق على بابه الخلفي بعد ساعات عدّة.

"ماذا؟"، قلت متعجباً.

"أيها الرجل، يظن الأولاد في المدرسة أن الشرطة جاءت لاعتقالك وأنك ضربتهم وهربت. هذا كثير يارجل!"، قال وهو عاجز عن ضبط نفسه. "يظن الجميع أنك قوي جداً!"

"إنتظر دقيقة، يارجل! توقف! إنتظر!"، صرخت قاطعاً طريقه. "يظن المدير أني فعلت ذلك. يظن أني أشعلت النار وأني أنا المسؤول. عليك أن تساعدني يارجل. عليك إخبارهم الحقيقة!"

"لا مجال لذلك يارجل"، قال جون وهو يبتعد عني ملوّحاً بيديه في الهواء. "أنت لوحدك"

هززت رأسي من جانب إلى آخر. بدأت الدموع تحتبس في عينيّ، لكني حبستها. "هذا جاد يارجل. عليك مساعدتي. ماذا سأفعل؟"

"حسناً أيها الرجل. لا يمكنك العودة إلى المنزل... سأقول لك شيئاً. سوف أخبئك هنا إلى أن نفكر في ما يجب فعله"

"حسناً"، قلت له محاولاً إرخاء صدري المثقل. "لكن عليك إخبارهم ما حدث فعلاً في المدرسة". ارتعش فم جون. بدأ يتمتم شيئاً. بلمح البصر، أمسكت بقميصه. "إخرس واستمع إليّ! لقد فعلتها! أنا لم أفعل شيئاً! لقد أنقذتك! أنا أخمدت النار! قل لهم الحقيقة! أنا جاد في ذلك!"، صرخت في وجهه.

اختفى جون القاسي فجأة. "حسناً... حسناً. غداً يارجل، موافق؟ إهدأ فقط".

في تلك الليلة، ارتعشت على السرير الخشبي في منتدى جون.

كنت رفعت سماعة الهاتف قبلاً للاتصال بليليان، لكني أغلقت السماعة حين سمعت صوت رودي الخشن على الطرف الآخر. "دافيد!" قال بعد صمت طويل. "أعرف أن هذا أنت! إذا كنت تعلم صالحك، عليك..."

في اليوم التالي، بدت لي الساعات طويلة جداً في انتظار عودة جون. وحين عاد أخيراً إلى المنزل، رفس الباب المفتوح بقوة. ركضت إلى الداخل لأطمئن نفسي. "لا بأس؟"، سألته وأنا أفرك يديّ. "كل شيء على ما يرام. لقد أخبرتهم، أليس كذلك؟ لقد أخبرتهم الحقيقة"، سألته وأنا أشعر بالارتياح لأن الحادثة انتهت وأستطيع العودة إلى منزل آل كاتنزي.

هزّ جون كتفيه وحدّق في الأرض. عرفت قبل أن يتكلم أني كنت مخطئاً. "لقد وعدتني أيها الرجل!" تمتمت.

"حسناً... لقد طردني المدير من الصف"، قال بصوت خافت فيما لا يزال يحدّق في الأرض. توقف لبرهة. ظننت أنه على وشك إعطائي عذراً آخر حين نظر مباشرة في عينيّ وابتسم. "قلت له... إنك فعلتها. كانت هذه فكرتك".

بدأت يداي ترتجفان. "ماذا؟ ماذا فعلت؟"

ابتسم جون ابتسامة عريضة. "ماذا فعلت؟ لم أفعل أي شيء. أيها الرجل، عليك الرحيل. لا يمكنك البقاء هنا"، قال بصوت جاف.

شعرت أني مصعوق. "إلى أين أذهب؟ ماذا أفعل؟"

"كان يجدر بك التفكير في هذا قبل إحراق الغرفة أيها الرجل".

سيطر الارتباك على عقلي. "ظننت أنك صديقي"، توسلته، فيما

ابتعد جون عني. بعد لحظات، أغلقت باب منزله بهدوء، ثم توجهت إلى مركز التسوق المحلي على أمل العثور على طعام لأسرقه. وكنت أختبئ بين الأشجار كلما سمعت هدير سيارة. هذا هراء، قلت لنفسي. لا أستطيع العيش هكذا. استدرت وتوجهت إلى منزل رودي وليليان. أخذت نفساً عميقاً، ثم فتحت الباب وتسلقت السلم فيما كان صوت التلفزيون يصدح عالياً. وحين دخلت إلى غرفة الجلوس، واجهت ابتسامة لاري جونيور الخبيثة. "ها... هو!"

أفلتت ليليان البطانية التي كانت تخيطها. "ياإلهي، دافيد؟ أين كنت؟ هل أنت على ما يرام؟"

وقبل أن أستطيع الإجابة، سمعت الأرض تهتزّ نتيجة رودي القادم في الممر. "أين هو؟" صرخ بصوت عالٍ.

ابتلعت بصعوبة قبل أن أباشر في إلقاء خطابي المحضّر، والقول إن كل شيء كان مجرّد سوء تفاهم. وأني في الحقيقة الشخص الذي أخمد النار وليس الشخص الذي أشعلها. عرفت أن رودي سيصرخ عليّ لبضعة لحظات ويحبسني ربما لأسبوع آخر لأني لم أعد إلى المنزل، لكني علمت أنه بعد معرفتهما بالحقيقة ستعود كل الأمور إلى طبيعتها. ابتسمت لرودي الذي تنفس فوقي مثل التنين. "لن تصدق هذا، لكن..."

"أنت محق وليس أنا"، قال رودي غاضباً. "لم أعد أصدق أي شيء. في اليومين الأخيرين، تلقيت اتصالات من المدرسة والشرطة وإصلاحية الأحداث، ومن والدك ووالدتك. منذ أن دخلت إلى هذا المنزل...". توجه رودي إلى ليليان قبل التركيز عليّ مجدداً. "قلت

لك أن تبقى بعيداً عن المشاكل، وها أنت الآن تتورط في شيء كهذا! ما هو رأيك بحق الجحيم؟ أنا لا أصدق! أليست السرقة كافية بالنسبة إليك؟ لا، عليك إثبات نفسك، أليس كذلك؟ تقول إنك تشعر بالضياع، وأنك لا تتكيف- حسناً، أنا أعرف من أنت. أنت محرق المباني عمداً! هذا ما أنت عليه! هل كنت أنت الذي أشعل كل الحرائق في الجوار...؟"

"يا إلهي، إهدأ يارودي"، قالت ليليان. "لم يكن قد جاء إلى هنا".

"حسناً، لقد شاهدت ما يكفي. لقد سمعت ما يكفي. هذا هو- عليه الخروج من هنا"، صرخ رودي. ثم هزّ رأسه وتنفس بعمق مشيراً إلى أنه انتهى.

تبع ذلك صمت طويل. راح يتنفس فوقي فيما بقيت ليليان ملتصقة بجانبه. قبل لحظات قليلة، كنت أشعر أني أستطيع توضيح سوء التفاهم بمجرّد كلمات قليلة، لكني أدركت فجأة أن تصرفاتي الماضية دفعت برودي إلى استنتاجاته. كنت مذنباً بالنسبة إليه، وأعرف أنه ما من شيء سيغير رأيه فيّ. حدّقت في رودي فيما الدموع تملأ عينيّ. أردت فعلاً أن يصدقني.

"قد تؤثر دموع التماسيح هذه في ليليان، ولكنها لن تجدي معي نفعاً"، قال.

نظفت حنجرتي قبل التمتمة: "هل اتصل والدي؟"

أجابت ليليان نعم من خلال هز رأسها قبل التوجه إلى رودي قائلة: "دعنا نذهب إلى النوم الآن، أليس كذلك؟"

وجه رودي غضبه نحو ليليان. "إستيقظي ليليان. بحق الله، نحن

لا نتحدث عن سرقة لوح سكاكر آخر. لقد أحرق مدرسة..."

"لا!"، قالت ليليان مقاطعة. "يعتقد المدير ان هناك ولداً آخر متورطاً!"

بدا رودي متعباً. شاهدت الهالات السوداء تحت عينيه. "أرجوك ياليليان. هل هذا مهم؟ إنه ولد ربيب. تم ضبطه وهو يسرق وتذمرت منه أمه مراراً أمام الشرطة. من تظنين أنه سيصدّق؟ لقد انتهى الأمر".

انفجرت ليليان في البكاء. "رودي، أنا أعلم. أعلم أنه ليس ولداً سيئاً. إنه مجرد..."

أردت معانقتها وإخراج كل الألم الذي سببته لها.

"حسناً"، أجاب رودي بصوت أكثر هدوءاً. "ليليان، أعرف أنه ليس سيئاً تماماً... لكنه يتأرجح بين الخير والشر. وقد غاص في الشر هذه المرة و..."، قال وهو يفرك جبينه.

"دافيد"، قال رودي بصوت مطمئن فيما أمسك بكتفيّ. "أعرف أني أرعبتك بعض الشيء وقد تظن أني وحش. لكن أهتم لأمرك، وإلا لكنت أخرجتك من هنا قبل زمن بعيد. أنت الآن في ورطة كبيرة، ولا يسعني فعل الكثير. لهذا السبب، أنا غاضب جداً. لكن مهما يحدث، أريدك أن تعلم اننا نهتم بك". توقف لبرهة لفرك عينه. حدّق فيّ ودلّك كتفيّ. "أنا آسف يابنيّ، لكن الأمر خارج عن إرادتي. سوف آخذك غداً إلى هيلكريست". بدأت الدموع تنهمر على وجه رودي.

الفصل

7

حب أمي

فيما كان رودي كاتنزي يأخذني إلى إصلاحية الأحداث في مقاطعة سان ماتيو، كدت أفقد الوعي بسبب التهوئة المفرطة. فقد شعرت أن القسم العلوي من صدري محاط برباط مطاطي عملاق. ورغم أن رودي كان يمنحني نصائح الدقيقة الأخيرة، لم أستطع التركيز لأني كنت خائفاً جداً مما سيحدث لي. ففي الليلة السابقة، أسهب لاري جونيور في وصف ما يفعله الأولاد الأقدم والأكبر سناً في الأولاد الصغار والجدد. شعرت أني منحطّ جداً حين تعرّيت أمام المستشار خلال تسجيل قبولي، وتوجهت من ثم إلى الاستحمام قبل أن أرتدي "ثياب المقاطعة" الكريهة الرائحة.

ارتعدت حين أغلق خلفي باب غرفتي المصنوع من السنديان السميك. لم أحتج إلى أكثر من دقيقة للتمعن في بيئتي الجديدة. كانت الجدران مؤلفة من حجارة بيضاء وسخة. أما السقف فكشف عن أرضية اسمنتية مشمّعة. وضعت منشفتي الرطبة وثيابي الداخلي وجواربي على الرف الصغير. جلست عند قدم السرير وشعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام- فلاحظت حينها أنه لا يوجد حمام في الحجرة. بعد أن غطيت رأسي بالبطانية الصوفية السوداء، بدأت الأربطة غير المنظورة الملتفة حول صدري ترتخي. وبعد لحظات، خلدت إلى نوم عميق.

فُتح باب غرفتي للمرة الأولى أثناء فرصة بعد الظهر. سرت في الممر كما لو أني أمشي على بيض. بدا لي بقية الأولاد مثل أشجار عملاقة وليس مثل مراهقين. في أيامي الأولى، وضعت خطة للصمود. كنت أختبئ في الخلفية بحيث لا ألفت الانتباه، وأبقيت فمي الكبير مغلقاً. خلال أسبوعي الأول في هيلكريست، نشبت أمامي ستة شجارات، ثلاثة منها مرتبطة بدور الشخص المخول للعب البليار. ارتطمت ببعض الجدران لأني كنت أقضي معظم وقتي وأنا محني الرأس خوفاً من النظر في عيون الآخرين، وبقيت بعيداً قدر الإمكان عن طاولة البليار.

صرت أتنفس براحة أكبر حين تم نقلي من قسم الموقوفين الجدد، في الجناح أ، إلى الجناح ج العلوي الذي كان يضم الأولاد الأصغر المعانين من فرط النشاط. علمت أن القوانين في الجناح الجديد أقل صرامة. لم أشعر بالحاجة إلى الانطلاق مسرعاً إلى غرفتي مثلما فعلت حين أدار موظفو الجناح أ ظهورهم بعد إرسال الأولاد إلى غرفهم. بدا أن المستشارون في الجناح ج أكثر انفتاحاً وتساهلاً أثناء التعاطي مع الأولاد. شعرت بالأمان.

في بعد ظهر أحد الأيام، تمت مناداتي على نحو غير متوقع من ملعب الفرصة. اكتشفت بعد لحظات أن لديّ زائر. فيما كان المستشار يطلعني على أصول الزيارات، أصبحت معدتي مشدودة نتيجة الإثارة. حتى تلك اللحظة، لم أظن أن أحداً سيراني بعد اليوم، ولذلك تساءلت عن الشخص الذي اجتاز كل المسافة إلى هيلكريست لرؤيتي.

أثناء اندفاعي عبر الباب الصغير، ملأت رأسي صور الآنسة

غولد والسيدة ليليان. وبعد ثانية، أصبح جسمي منهكاً. فقد شاهدت وراء المكتب الصغير والدي جالساً على كرسي بمحاذاة الجدار. بالإضافة إلى أمي، كان والدي آخر شخص أردت رؤيته فيما أنا في إصلاحية الأحداث.

ارتجفت يداي فيما كنت أجلس على كرسي.

"إذاً، دافيد"، قال والدي بنبرة خالية من العاطفة. "كيف حالك؟"

"جيد، سيدي"، أجبت فيما انا أحاول تفادي نظرات والدي.

"حسناً... لقد كبرت بعض الشيء. كم مضى على ذلك؟"

"قرابة العام سيدي".

تأملت عيناي جسم والدي. حاولت تذكر آخر مرة نظرت إليه بصورة فعلية. هل كان ذلك أثناء عيشي في المنزل؟ سألت نفسي. انحنى والدي على الطاولة الصغيرة الموجودة أمامي، وبدا لي نحيلاً جداً. سيطر اللون الأحمر الداكن على وجهه وعنقه. وأصبح شعره الجميل في ما مضى رمادياً ووسخاً. كان يسعل كل بضعة ثوانٍ. اختفت يده في جيب سترته لإخراج علبة السجائر. سحب سيجارة من العلبة ونقرها على الطاولة قبل إشعالها. وبعد مجات عدة، توقفت يداه عن الارتعاش.

شعرت بالخجل الشديد للنظر في عينيه. "أوه... والدي، قبل أن تقول أي شيء... أريدك فقط أن تعلم..."

"إخرس!"، صدح فجأة صوت والدي مثل الرعد. "لا تبدأ بإخباري أكاذيبك!". مجّ سيجارته بعمق قبل إطفائها وإشعال واحدة أخرى. "بحق الله، إذا عرفوا هذا الأمر في المركز... هل تعلم ما قد

يحلّ بي؟ كما لو أني لا أواجه ما يكفي من المشاكل هناك!"

أحنيت رأسي وتمنيت لو أختفي.

"حسناً؟" هدر صوت والدي. "وكأن ذلك ليس كافياً، منحت أمك المجنونة كل الذخيرة التي تحتاج إليها!". توقف عن الكلام لأخذ مجّة أخرى. "ياإلهي! لقد فعلتها! فجأة، أتلقى اتصالاً تلو الآخر من تلك المساعدة الاجتماعية..."

"الآنسة غولد؟"، تمتمت.

"وجدت الوقت أخيراً للاتصال بها، وأخبرتني أنك هربت وأنك كنت تسرق وتورّط نفسك في كل أنواع..."

"لكن أبي، أنا حقاً لم...."

"من الأفضل أن تبقي فمك مغلقاً قبل أن أغلقه نيابة عنك!"، قال والدي. توقف لبرهة ونفخ سحابة من الدخان. "لم تستطع تفادي الأمر، أليس كذلك؟ لم يكفيك التورط مع الشرطة وإخراجك من المدرسة، ومن ثم جرّ أمك وإخوتك إلى المحاكم. ياإلهي. أنت فعلاً تحفة فنية، أليس كذلك؟ لديك كل شيء. حياة جديدة، بداية جديدة. لم يكن عليك سوى الابتعاد عن المشاكل. ولم تستطع فعل ذلك، أليس كذلك؟

"هل لديك أية فكرة عما تريد أمك فعله بك؟ هل تعلم؟"، سأل والدي ورفع صوته. "تريدني أن أوقع على بعض الأوراق. إنها تلاحقني لتوقيعها منذ... هل تعلم كم من الوقت؟"، سأل، موجهاً السؤال إلى نفسه أكثر مما هو لي. "هل لديك أية فكرة عن الوقت الذي مضى وهي تلاحقني لتوقيع تلك الأوراق؟"

هززت رأسي للقول لا، والدموع تنهمر على وجهي.

"سنوات! منذ أن رمتك خارجاً في ذلك اليوم. لقد كانت محقة ربما. فأنت تحتاج ربما إلى... تظن أن الأمر سهل عليّ؟ كيف تظن أني أشعر حين أجد ولدي في مكان مثل هذا... أو مكان مثل ذاك؟" بدت عينا والدي باردتين جداً فيما هما تحدقان بي. "محرق المباني. إنهم يتهمونك بإحراق المباني! هل تعلم كم يموت من رجال الإطفاء بسبب محرقي الأبنية؟ رباه، قد تكون محقة. لا سبيل إلى إصلاحك".

شاهدت الحلقة البرتقالية للسيجارة وهي تزحف نحو أصابع والدي.

"حسناً"، قال بعد دقائق عدة من الصمت. "عليّ أن أعيد السيارة. سوف، آه، أرى...". توقف والدي في منتصف عبارته فيما كان يدفع نفسه بعيداً عن الطاولة.

تأملت عيناي كل جسمه. بدت عيناه متعبتين وفارغتين. "شكراً... لمجيئك لمشاهدتي"، قلت له محاولاً أن أبدو مرحاً.

"بحق الله ياولدي، إبتعد عن المشاكل!". تراجع والدي إلى الخلف. بدأ يفتح الباب حين توقف ونظر عميقاً في عينيّ. "تنازلت لك عن الكثير. لقد حاولت. الله يعلم أني حاولت. أنا آسف لأشياء كثير حصلت في حياتي. أستطيع مسامحتك على الكثير من الأمور- على كل المشاكل التي سببتها، وعلى كل ما فعلته للعائلة- لكني لن أستطيع *أبداً أبداً* مسامحتك على هذا". أغلق الباب خلفه، ورحل.

"أحبك ياأبي"، قلت وأنا أنظر إلى الطاولة الفارغة.

في عشاء ذلك المساء، فيما كانت الأيادي تتقاتل للحصول على قطعة من كل وعاء طعام، اكتفيت بأكل طبق السلطة بعيداً. شعرت باشمئزاز وفراغ في داخلي. عرفت أني أنا السبب في تعاسة أهلي،

وانفصالهما عن بعضهما، وإدمانهما على الشرب، وعيش والدي- الرجل الذي ناضل لإنقاذ حياة العديد من الأشخاص- في شقة قذرة. أعرف أني فضحت سرّ العائلة بملء إرادتي. أدركت فجأة أن والدي كان محقاً. لقد كان والدي محقاً على الدوام.

بعد العشاء، فيما كنت أنجز العمل المطلوب مني، أي مسح أرض غرفة الطعام، وقف أحد المستشارين عند الزاوية. "بيلزر. زائر عند المكتب الأمامي". بعد دقائق قليلة، أخذت نفساً عميقاً وأغلقت عينيّ قبل أن أفتح مجدداً باب غرفة الزوار. صلّيت في أعماقي ألا تأتي أمي.

احتجت إلى بعض اللحظات حتى أدرك أني كنت أحدق في وجه ليليان، وليس في وجه أمي.

قفزت ليليان وعانقتني من الجهة الأخرى للمكتب. "إذاً، كيف حالك؟"، سألتني.

"جيد! أنا بخير الآن!"، قلت متعجباً. "واو! لا أستطيع أن أعبّر لك عن.... مدى سروري *لرؤيتك*!"

وضعت ليليان يديّ بين يديها. "إجلس الآن وأصغ إليّ. لدينا الكثير للتحدث عنه، ولذلك انتبه. دافيد، هل جاء والدك إلى زيارتك؟"

"نعم سيدتي"، أجبتها.

"إذا لم تمانع سؤالي، عما تحدثتما أنتما الاثنين؟"

انحنيت إلى الجهة الخلفية لمقعدي، محاولاً تصوّر كامل المشهد بحيث أتمكن من تكرار كل الكلمات التي صدرت خلال زيارة والدي.

"هل ذكر والدك أي شيء عن أوراق....؟ أي شيء؟"، قالت ليليان بنعومة.

"أوه...لا. سيدتي، لا أذكر ذلك"، قلت وأنا أحك رأسي.

أحكمت ليليان قبضتها على يديّ إلى أن آلمتني. "دافيد، أرجوك"، توسلتني، "هذا مهم".

بلمح البصر تذكرت غضب والدي بشأن مجموعة من الأوراق أرادت أمي أن يوقع عليها. حاولت تذكر كلمات والدي بحذر. "قال إن أمي كانت محقة وأنه كان يفكر في توقيع الأوراق قائلاً إنه لا مجال *لإصلاحي*".

"لكنه لم يوقعها"، قالت ليليان.

"لا... لا أدري..."، تمتمت.

"اللعنة"، صرخت. أخفضت رأسي ظناً مني أني ارتكبت خطأً مجدداً. نظرت ليليان بعيداً عن الطاولة الرمادية، ثم نظرت إليّ. "لا! لا! ليس أنت، دافيد. هل سمعت شيئاً عن أمك؟ هل جاءت لرؤيتك؟"

"لا، سيدتي"، قلت وأنا أهزّ رأسي.

"أصغ إليّ جيداً يادافيد. يجدر بك ألا تتلقى زيارة من أي شخص لا تريد رؤيته. هل تفهم؟ هذا مهم. حين يقال لك إن لديك زائر، إسأل عن اسم ذلك الزائر". توقفت ليليان لالتقاط أنفاسها. بدت على وشك البكاء. "عزيزي، لا يفترض بي أن أخبرك هذا... لكن لا تقبل زيارة من أمك. إنها تقنع المقاطعة لإبعادك".

"تقصدين مثل البقاء هنا؟ إصلاحية، صح؟ أوه، أعرف كل شيء عن ذلك. حسناً!"

أصبح وجه ليليان فجأة أبيض اللون. "أين سمعت هذا؟"

"سيدة من الصحة العقلية. تقول إنها تعمل مع كل الأولاد الذين

يأتون إلى هنا. وظلت تسألني دوماً عن موافقـ... نعم!"، صرخت. "هذه هي! قالت السيدة إنه من الأسهل عليّ لو أعطيت موافقتي للإصلاحية". عرفت من تعبير ليليان أن ثمة مشكلة كبيرة. "ألا يعني ذلك أنه إذا وقعت على الورقة، أعد، *أو أوافق*، أن أكشف عن أفضل سلوك لي أثناء وجودي هنا؟ أليس كذلك ياسيدة كاتنزي؟"

"دافيد، إنه فخ! إنها تحاول خداعك!" قالت ليليان فيما الخوف يسيطر على صوتها. "أصغ إليّ! سوف أقول لك الأمر بوضوح. تقول أمك إن *سلوكك* الماضي في منزلها دفعها إلى *تصرفها* لأنك كنت من النوع الذي يتعذر إصلاحه. إنها تحاول وضعك في مصحّ عقلي!"، قالت ليليان.

انحنيت إلى الخلف في كرسيّ الفولاذي وحدقت بها. "تقصد... تقصدين... منزلاً للمجانين... أليس كذلك"، تمتمت فيما تسارع نفسي.

أخرجت ليليان محرمة من حقيبتها. "قد أخسر رخصتي في رعاية الأولاد الأرباب، لكني لا أعطي... لم أعد أهتم إطلاقاً. لا يمكنك تكرار هذا أبداً أمام أي شخص. لقد تحدثت مع الآنسة غولد، ونظن أن أمك وضعت خطتها- أي خطة المصحّ- لتبرر كل ما فعلته بحقك. هل تفهم؟"

أومأت برأسي إيجاباً.

"دافيد، لقد اتصلت أمك بهذه السيدة من الصحة العقلية وأخبرتها كل أنواع الروايات. دافيد، سأطرح عليك سؤالاً وأريد منك الحقيقة الكاملة، موافق؟ هل أشعلت يوماً حريقاً في منزل أمك، في *كاراج منزلها*"، سألت ليليان بحذر.

"لا!"، قلت متعجباً. أدخلت من ثم أصابعي في راحتيّ يدي. "في إحدى المرات..."

صرّت ليليان أسنانها فيما أنا أتابع الحديث.

"... في إحدى المرات، حين كنت في الرابعة أو الخامسة، وضعت المحارم قرب الشموع قبل العشاء... واشتعلت! أقسم أني لم أقصد ذلك ياسيدة كاتنزي! كان ذلك حادثاً!"

"حسناً، لا بأس"، قالت ليليان فيما هي تلوّح بيديها. "أصدقك. لكن دافيد، هي تعرف. أمك تعرف كل شيء. بدءاً من والغرينز، إلى الهروب- وحتى المشكلة التي واجهتها مع الطبيب النفسي. تظن الآنسة غولد أنها أخطأت وأخبرت أمك أكثر مما كان ينبغي، لكن يجدر بالآنسة غولد إبقاء أمك على اطلاع دائم بأحوالك. اللعنة على كل هذا! لم أشاهد أبداً شخصاً يحارب لحمه ودمه بهذه الطريقة..."

ارتفعت حرارة جسمي. "ماذا تقصدين بالمشكلة مع الطبيب؟ أنا لم أفعل أي شيء!"

"حسناً، أنا أتلقى المعلومات بواسطة الآنسة غولد..."

"لماذا لا يُسمح لي برؤية الآنسة غولد"، قاطعتها.

"لأن لديك ضابطاً لمراقبة سلوكك في الوقت الحاضر: غوردون هاتشنسون"، أجابت ليليان فيما تهزّ رأسها محاولة عدم الاستطراد. "أرجوك الآن، أصغِ إليّ. لا يفترض بي معرفة ذلك، لكن ما أعرفه هو أن الطبيب النفسي كتب تقريراً يذكر فيه أن لديك ميولاً عنيفة في السلوك. إنه يتحدث عن قفزك عن مقعدك والتلويح بذراعيك ومهاجمته تقريباً؟"، قالت وهي تبدو أكثر ارتباكاً من سؤالها.

تأرجح رأسي من جانب إلى آخر. "لا سيدتي! قال لي إنه يجدر بي أن أكره أمي، هل تذكرين؟". بكيت فيما أنا أرجع رأسي إلى الخلف مرتطماً بالجدار. "ماذا يحدث؟ أنا لا أفهم؟ أنا لم أفعل ذلك؟ أنا لم أفعل أي شيء!"

"إسمع. أصغِ إليّ!"، قالت ليليان باكية. "تظن الآنسة غولد أن أمك تنتظرك للانتقام منك– وقد نجحت الآن".

"كيف تستطيع ذلك؟ أنا أعيش معكم"، قلت لها متوسلاً فيما أحاول أن أفهم كيف تداعى عالمي فجأة.

"دافيد"، قالت ليليان بغضب. "تعتبر أنا وورودي المسؤولين القانونيين عنك. هذا كل شيء. فثمة ورقة تقول إننا نحافظ على رفاهيتك. نحن نرعاك. من الناحية القانونية، تملك أمك القليل من حرية التصرف. هذه طريقتها للانتقام. تناضل أمك ربما لإبعادك منذ أن تم فصلك إلى الرعاية بالتربية، وجاءت حادثة المدرسة لدعم قضيتها".

"ماذا إذاً؟"، قلت متذمراً.

"إفهم هذا. أنت تخوض الآن معركة حياتك. إذا استطاعت أمك إقناع المقاطعة بأن الأمر لمصلحتهم، سوف تدفعهم إلى وضعك في مصحٍ عقلي. وإذا حدث ذلك...". امتلأ وجه ليليان فجأة بسيل من الدموع. "أريدك أن تعلم هذا. أنا لا أهتم لما يقوله لك أي شخص، أي شخص. انا وورودي نحارب لأجلك، وسف نفعل كل المطلوب. إذا توجب علينا استئجار محامٍ، سوف نفعل ذلك. إذا توجب علينا الذهاب إلى الجحيم ومن ثم العودة، نحن مستعدون لفعل ذلك أيضاً. نحن هنا للكفاح من أجلك. *لهذا السبب نحن أهلك بالتربية*!"

توقفت ليليان لبرهة لجمع أفكارها. بدأت تتكلم بعدها بصوت هادئ وخافت. "دافيد، لا أعرف سبب ذلك، لكن عدداً كبيراً من الأشخاص يحتقرون الأورد الأرباب لسبب ما. ويعتقد هؤلاء الأشخاص أنكم أولاد سيئون، وإلا لما كنتم في الرعاية بالتربية. وإذا استطاعوا إيقاعكم خارج مجتمعهم، لفعلوا ذلك حتماً. أنت تفهم، أليس كذلك؟"

هززت رأسي للقول لا.

وضعت ليليان إصبعها على شفتيها فيما هي تفكر في صياغة جديدة لعبارتها. "أنت تعرف ما تعنيه كلمة *تحامل*، أليس كذلك؟"

"نعم، سيدتي"

إنه الشيء نفسه. فإذا اعترف هؤلاء الأشخاص أنفسهم بالحاجة إلى الرعاية بالتربية، يعني ذلك أنهم يعترفون بمشكلة أكبر دفعت بكم أنتم الأولاد إلى الرعاية بالتربية. ويعني ذلك أيضاً القبول بأشياء مثل الإدمان على الكحول، وإساءة معاملة الأولاد، والأولاد الذين يهربون أو يتعاطون المخدرات... أنت تفهم ذلك؟ لقد أنجزنا الكثير من التغييرات في السنوات الأخيرة، لكننا ما زلنا نعيش في مجتمع مغلق. فقد جرت تربية الكثير من الأشخاص للاحتفاظ بالأمور لأنفسهم على أمل ألا يكشف أحد سرّ *عائلتهم*. والواقع أن بعضهم يؤمن في التحامل، ولذلك كلما واجه ولد ربيب مشكلة..."

كان وقع عباراتها عليّ أشبه بطنّ من القرميد. الآن فهمت. عادة الأربطة المطوقة لصدري لتنشط مجدداً فيما بدأت أتنفس بجهد. "أوه... قبل... حين جئت للمرة الأولى إلى منزلك... وواجهت مشكلة..."

"نعم؟"، همست ليليان.

"سمعت ما قلته آنذاك.... لكني لم أصغ"

وضعت ليليان يديّ بين يديها. "حسناً، هذا كله في الماضي. أعرف أن العيش هنا في الإصلاحية ليس سهلاً، ولاسيما بالنسبة إليك، لكن يجدر بك الكشف عن أفضل سلوك لك. أنا أعني ذلك فعلاً"، قالت مشددة. "يكتب المستشارون تقارير عن سلوكك ليجري تحويلها إلى المسؤول عن مراقبة سلوكك. لقد التقيت بالسيد غوردون هاتشنسون، أليس كذلك؟"

"نعم، سيدتي"، أجبتها.

"ولهذه التقارير تأثير كبير في محاولة أمك لوضعك في مصحّ. فكل ما لديها الآن هو مجموعة من الأكاذيب التي تقولها للجميع. لقد جعلت منك امك ولداً مجنوناً- وهذا ما أنت عليه طبعاً!"، قالت ليليان ممازحة. "فإذا استطعنا الإثبات للمحكمة أنك لم تشعل النار وأنك كنت ولداً نموذجياً، يبعد ذلك أمك عنك- وللأبد".

"ماذا أفعل إذاً؟"، سألتها

ابتسمت ليليان. "دافيد، تصرف فقط على طبيعتك. هذا كل ما يجدر بك فعله. لا تحاول أبداً أن تكون شخصاً غيرك. سوف يأخذ الموظفون ذلك في عين الاعتبار. كن فقط الولد الذي جاء إلى منزلي- قبل أن توقع نفسك في كل تلك المشاكل. لكن"، حذرتني، "لا أخطاء. لا تغضب فجأة حين تنزعج. عليك إبقاء فمك مغلقاً، أتفهمني؟"

أومأت برأسي مجدداً.

"دافيد، لقد أوقعت نفسك في شرك. الله يعلم، حادث آخر إضافي ويتم اتخاذ القرار بحقك. لقد شهدت خلال 12 عاماً أكثر مما يشهده

القوم طيلة حياتهم. إذا استطعت فعل ذلك.... يمكنك فعل ذلك أيضاً. لكن عليك الكفاح جيداً. نفذ ما يطلبه منك السيد هاتشنسون أو الموظفون. أنا لا أهتم بغرابة الأمر. أنا أعرف غوردون منذ أعوام، وهو الأفضل. عليك فقط التفكير ملياً ومطولاً قبل أن تنفذ شيئاً تندم عليه، موافق؟"

فيما أمسكت السيدة كاتنزي بيديّ، أردت أن أعبرّ لها عن مدى أسفي لكل المشاكل التي سببتها لها ولعائلتها. لكني أعرف أني أخبرتها ذلك مرات عدة في الماضي- حين لم أكن أهتم فعلاً. لذا، سألت نفسي، *كيف ستصدقني الآن*؟ نظرت ملياً في عينيها الرقيقتين وأنا أعرف أني سبب أرقها وساعات حرمانها.

بذلت ليليان ما بوسعها لمنحي ابتسامة عريضة. "أوه، قبل أن أنسى، لديّ شيء لك"، قالت فيما اختفت يدها داخل حقيبتها. وبعد لحظة، أخرجت لوح علبة من حبات الكرز المغلفة بالشوكولاته. أشرق وجهها فيما دفعت العلبة نحوي.

"سكاكر؟"، سألتها.

"إفتحها فقط"، قالت ليليان مبتسمة.

فتحت الغطاء الصغير بعناية وصرخت فرحاً فيما كنت أحدّق في سلحفاتي الصغيرة التي أدارت عنقها نحوي. أخرجت حيواني بلطف من العلبة ووضعته على يدي. تقوقعت السلحفاة بسرعة داخل قشرتها. "هل هي على ما يرام؟ هل تأكل؟"

"نعم، نعم"، أجابت ليليان بصوتها الحنون. "أنا أعتني بها. أنا أغيّر لها الماء...."

"مرة كل يومين؟"، قلت وأنا قلق على حيواني.

"مرة كل يومين. نعم، أعلم. أعلم. من بين كل الأشياء، لم أفكر أبداً أني سأعتني يوماً بسلحفاة عجوز".

"إنها ليست سلحفاة عجوز. إنها صغيرة... أترين؟"، قلت بتودد وحب. "أظن أنها تحبك"؟ نظرت إليّ ليليان بصرامة حين دفعت سلحفاتي نحوها.

"دافيد"، قالت بصوت محبب فيما انحنت لتمشيط شعري، "عند النظر إليك مع هذه السلحفاة... لو أنهم يرونك فقط مثلما أفعل أنا".

أعدت سلحفاتي بعناية إلى علبة الحلوى. وسلمت العلبة من ثم إلى ليليان. "أعرف أني كنت سيئاً وأني استحقيت العقاب على ما فعلته، لكني أعدك بأني سأكون جيداً. فعلاً. أعدك... أمي".

في ذلك المساء، فيما كنت أحدق خارج نافذة حجرتي، بدأ إحساس دافئ يتكوّن في أعماق روحي. سوف أفعل ذلك! وعدت نفسي. سوف أثبت للسيدة كاتزي والسيد هاتشنسون ولأمي أني ولد صالح! عرفت أن موعدي في المحكمة هو بعد أسابيع قليلة فقط. لذا، قلت لنفسي، سوف أعمل بجدّ أكبر. خلدت إلى النوم، من دون الشعور بالخوف.

في غضون أيام، تضاعفت علامات سلوكي اليومي. ظننت أني كنت أبلي حسناً قبلاً، لكن حين قال لي كارل ميغيل، المسؤول عن الجناح ج، أمام الجميع أني أحقق أسبوعاً ممتازاً، أردت أن أثبت نفسي أكثر. وفي نهاية ذلك الأسبوع، حققت أعلى مرتبة في الجناح: المرتبة الذهبية. أبلغني السيد هاتشنسون أن الولد الجيد يحتاج عادة إلى ثلاثة أو أربعة أسابيع ليصل إلى المرتبة الذهبية. ابتسمت في

سرّي، وأنا مدرك تماماً أني حققت ذلك في أقل من أسبوعين. خلال تلك الزيارة، أبلغني غوردون أن موعدي في المحكمة اقترب بضعة أيام. "إذاً، متى سنذهب إلى المحكمة؟"، سألته.

"بعد غد"، أجابني. "سوف تكون على ما يرام؟"

"نعم، سيدي"، قلت وأنا أحاول أن أبدو واثقاً من نفسي، فيما كنت مذعوراً في داخلي.

"دافيد، لن أربكك بما قد يحصل أو لا يحصل حين نصبح في قاعة المحكمة. لقد شاهدت ما يكفي لأعرف أن بعض القضايا معقدة، وقضيتك واحدة منها. أستطيع نصحك فقط بالحفاظ على هدوئك، وإذا كنت تؤمن في الله، أنصحك بأن تصلي".

وحيداً في حجرتي، شعرت أني مصاب بدوار. أغلقت عينيّ وطردت قلقي ورحت أصلّي.

بعد مرور يومين طويلين، جلست منتصباً تماماً فيما أحاول تذكر كل ما قاله لي غوردون وليليان. أومأت برأسي إلى ليليان التي جلست خلفي، وابتسمت لها. وحين استدرت، شاهدت أمي جالسة إلى يميني في أحد المقاعد الأمامية. أغلقت عينيّ لبرهة للتأكد من أنهما لا تخدعاني. لكن حين فتحتهما، استطعت مشاهدة أمي وهي تضمّ كفين بين ذراعيها.

تبخرت مشاعر الثقة. "إنها هنا"، همست لغوردون.

"نعم، وتذكر، حافظ على هدوئك"، حذرني.

بعد لحظات، تم الإعلان عن بدء قضيتي. تململت في مقعدي قبل إلقاء نظرة خاطفة على أمي. نهض محاميّ، الذي التقيته قبل بضعة

دقائق فقط في الغرفة الخارجية، وراح يذكر بعض التواريخ وعدداً من الأرقام والبيانات الرسمية بسرعة كبيرة لدرجة أني كنت غير واثق ما إذا كان يتحدث عن قضيتي أو عن قضية شخص آخر.

عبّر القاضي عن شكره لمحاميّ بعد أن عاد إلى مقعده. على يميني، تنحنح رجل آخر يرتدي بزة سوداء قبل المباشرة في الكلام. انحنى غوردون وربّت على ركبتي. "مهما قال هذا الرجل، حافظ على هدوئك. لا تبتسم، لا تتحرك، ولا تكشف عن أي انفعال".

"حضرة القاضي، في 10 كانون الثاني (يناير)، أشعل دافيد بيلزر حريقاً متعمداً، بعد تصميم سابق، وحاول حرق صف في مدرسة مونتي كريستو الابتدائية..."

بدأ الذعر يسيطر على جسمي.

"ويكشف القاصر، حضرة القاضي، عن تاريخ مسهب للسلوك المتطرف والمتمرد. لديك التقرير الصادر عن الطبيب النفسي للقاصر، فضلاً عن شهادات من أستاذ القاصر والمسؤولين عنه في مدرسة مونتي كريستو الابتدائية. لديّ بيانات من المساعدة الاجتماعية السابقة للقاصر، التي تزعم أن "براءة دافيد قد تكون فاتنة، لكنه يتطلب أحياناً مراقبة عن كثب. فأثناء وجوده ضمن أفضل الظروف في الرعاية البديلة، كشف دافيد عن سلوك عدائي تجاه الآخرين وكان في بعض الأحيان مولعاً بالجدل والتخريب أثناء وجوده في الرعاية البديلة".

غصت في مقعدي. فالمبنى نفسه الذي منحني الحرية سيكون الآن قبري. وبعد مرور دهر، شكر المحامي الآخر القاضي قبل التوجه إلى مقعده، ثم أومأ برأسه إلى أمي.

"هل رأيت ذلك؟"، سألت غوردون.

"شش!"، حذرني، "لا تفسد الأمر!"

الدفاع؟"، سأل القاضي في اتجاهي، فيما بدا سئماً.

"حضرة القاضي"، قال محاميّ أثناء وقوفه. "لقد تم تحريف بيان الآنسة غولد بالكامل. أنا أقترح أن تأخذ الوقت الكافي لقراءة كامل النص. وبالنسبة إلى تهمة الحرق المتعمد، تبين أن الحادثة كانت ظرفية محض. صحيح أن دافيد كان موضع الشبهة أساساً، لكني أملك بيانات تفيد أن دافيد *أوقف انتشار الحريق الذي أشعله قاصر آخر*. وبالنسبة إلى تقارير السلوك أثناء احتجاز دافيد، فقد كان الولد، كما قلت، "استثنائياً". وبالنسبة إلى منزل الرعاية الذي سيعود إليه دافيد، فإن آل كاتنزي ينتظرون بفارغ الصبر عودة دافيد. شكراً".

دوّن القاضي بعض الملاحظات قبل أن يومئ برأسه للمحامي الآخر الذي نهض عن مقعده. "حضرة القاضي، فيما لا توجد بعد أية وقائع مؤيدة، كشف القاصر عن خلل وظائفي *مفرط* في السلوك. بالإضافة إلى ذلك، لديّ شهادة خطية موقعة من الأم البيولوجية للقاصر، أي السيدة بيلزر، تفيد أن القاصر أشعل حراق عدة في القسم السفلي من منزله السابق. وتعترف السيدة بيلزر لسوء الحظ بأنها كانت عاجزة عن ضبط القاصر في الظروف العادية، وأن القاصر بارع جداً في المناورات والتصرفات العنيفة. الرجاء مراجعة قرار تحويل الرعاية بتاريخ آذار (مارس) الماضي.

"لقد أصبح واضحاً تماماً ياحضرة القاضي أن السيطرة على القاصر، لأي سبب كان، لم تعد ممكنة في منزله السابق أو في منزل

الرعاية البديلة. وترى المقاطعة أن القاصر يشكل عبئاً كبيراً على المجتمع. لذا، توصي المقاطعة بأن يتم إخضاع القاصر فوراً إلى فحص نفسي لوضعه ربما في مصحّ قادر على تلبية حاجاته".

ماذا يعني كل ذلك؟"، سألت غوردون، بعد انتهاء المحامي. وقبل أن يتمكن غوردون من إسكاتي، فرك القاضي صدغيه وسأل: "مراقب السلوك في الإصلاحية؟"

زرّر السيد هاتشنسون معطفه أثناء الوقوف. "يوصي مراقب السلوك في الإصلاحية بمتابعة المراقبة والاستشارة مع طبيب نفسي آخر. فلم ألاحظ أي شيء يجعلني أعتقد أن دافيد يشكل خطراً على نفسه أو على الآخرين. أنا أوصي باستبدال أهل الرعاية لدافيد".

"مولعان بالعقاب، أليس كذلك؟"، ضحك القاضي على نحو خافت قبل المتابعة. "اقتناعات مسبقة"، قال فيما التفت إلى محاميّ.

"أبداً، حضرة القاضي"، قال المحامي فيما انحنى إلى الأمام.

تراجع القاضي إلى الخلف في كرسيه. وفيما نظرت عيناه إليّ، أحسست أن الشعر الموجود في الجهة الخلفية لعنقي بدأ يرتفع. حرّكت يدي اليسرى لحك ذراعي اليمنى. حبست أنفاسي في انتظار جواب القاضي. مسّد القاضي شاربيه. ثم أومأ برأسه بسرعة فيما التفت إلى كاتب المحكمة. "نظراً لعدم وجود إثباتات إضافية لتهمة الحرق المتعمد...توصي المحكمة بالسجن... لمدة 100 يوم في إصلاحية الأحداث، مع حساب الوقت المنصرم.

"بالإضافة إلى ذلك"، تابع القاضي، "إن تهمة الحرق المتعمد أيها الشاب الصغير هي الأكثر خطورة. لكن السبب الوحيد الذي جعلني لا

أدينك هو أني لا أملك دليلاً مباشراً. بالفعل، يبدو أنك لست الشخص الذي ارتكب هذه الجريمة، لكنك كنت في وضع حرج منذ مدة. يبدو أن لديك بعض المزايا الجيدة والإرشاد الكافي"، قال القاضي وهو يومئ برأسه إلى السيدة كاتنزي، "لكن... من الأفضل استخدام الاثنين معاً".

مباشرة بعد استعمال القاضي للمطرقة، همس غوردون: "سوف تخرج بعد 30 أو 34 يوماً".

"لكني لم أفعل ذلك!"، قلت منتحباً.

"لا يهم"، قال غوردون "قلّما تكون المسألة كذلك. صدقني أيها الولد"، قال وهو يؤشر إلى القاضي. "هذا الرجل هو بابا نويل. فلو كان بيد الادعاء أي دليل ثابت، لكنت ألبسك الآن سترة المجانين المضحكة. بالإضافة إلى ذلك، يكشف الرجل العجوز عن ضعف تجاه الأقزام الصغار أمثالك. هيا، عد الآن إلى حجرتك أيها الحيوان"، قال غوردون ممازحاً أثناء نهوضنا.

من دون سابق إنذار، وقفت أمي أمامي وأمام غوردون. "أنت مخطئ! انت مخطئ تماماً! سوف ترى! لقد حذرت تلك المساعدة الاجتماعية وها أنا الآن أحذرك!"، قالت أمي فيما وجهت إصبعها نحو السيد هاتشنسون. "إنه سيء! إنه شرير! سوف ترى! وفي المرة التالية، سيؤذي أحداً! وكلما أسرعت في التعاطي مع هذا الولد، سوف تلاحظ أني محقة وأني لم أرتكب أي خطأ! أنت مخطئ تماماً إذا كنت تظن أن هذه نهاية المسألة! إنتبه! ثمة مكان واحد فقط لهذا الولد. سوف ترى!".

خرجت بعدها من القاعة، وهي تجرّ كفين وراءها.

اقتربت أكثر من غوردون، الذي أصبح وجهه باللون الأبيض

الطبشوري. "أين تعيش أمك؟"

"في المنزل"، أجبته

"أوه؟"، سأل غوردون وهو يرفع حاجبيه. "في المنزل الذي أحرقته؟ أعني أنه إذا أحرقت القسم السفلي، لا شك أنك أحرقت المنزل أيضاً".

"نعم!"، ضحكت بعد أن أدركت ممازحته لي.

بعد 34 يوماً، بكيت فيما أنا أجمع أشغالي الحرفية ومجلداتي المدرسية التي وضعتها في صندوق كرتون صغير. والغريب أني لم أكن أريد المغادرة. ففي العالم الخارجي- كان يسهل عليّ التورط في مشاكل. أثناء وجودي في هيلكريست، اعتدت على محيطي. كنت أعرف تماماً ما هو متوقع مني. شعرت بالأمان والثقة. فيما رافقني كارل ميغيل إلى المكتب الأمامي، شرح لي أن العالم الخارجي سيكون فعلاً الاختبار الحقيقي لصمودي. "بيلز"، قال كارل فيما هو ممسك بيدي، "أتمنى ألا أراك مجدداً".

صافحت كارل قبل أن أغمز السيدة كاتنزي التي بدت مصعوقة عند رؤية سروالي الذي أصبح صغيراً عليّ. "حسناً؟"، سألتني.

"كيف هي سلحفاتي؟"، سألتها

"حسناً أستطيع القول في الوقت الحاضر إنها في مأزق"

"أمي!"، قلت منتحباً، وأنا مدرك أن ليليان كانت تمازحني. "هيا"، قلت لها فيما أشبك يدي بيدها، "فلنذهب إلى البيت".

أشرق وجه ليليان مثل شجرة الميلاد حين أدركت أنها المرة الأولى التي أنادي فيها منزلها ببيتي. أمسكت بيدي المفتوحة. "إلى المنزل!"

الفصل

8

غريب

لم تعد الأمور أبداً كما كانت عليه بعد إطلاقي من إصلاحية الأحداث وعودتي إلى آل كاتنزي. فقد كان بقية الأولاد الأرباب ينظرون إليّ بحذر وريبة. وكلما كنت أدخل إلى غرفة، كانوا يتوقفون فجأة عن الكلام ويكشفون لي عن ابتسامات زائفة. وكلما حاولت الانضمام إلى محادثة، كنت أجد نفسي واقفاً أمام الجميع فيما يديّ داخل جيوب سروالي. وبعد دهر من الصمت، كنت أغادر غرفة الجلوس وأنا أشعر بالعيون المحدقة في الجهة الخلفية لعنقي. حتى لاري الكبير، الذي اعتبرته قبلاً مثل "اخي الكبير"، رفض صداقتي قبل مغادرته المنزل. وبعد بضعة أيام، وجدت نفسي أقضي كل وقتي وانا جالس في غرفتي. لم أكترث حتى لدراجتي التي بدأت تصدأ.

وبعد ظهر يوم جمعة، في تموز (يونيو) 1974، جاء إليّ غوردون هاتشنسون. شعرت بالكثير من الإثارة فيما كان يتسلق السلم متوجهاً إلى غرفتي. لم أستطع الانتظار حتى أبدأ بالتكلم إلى أحدهم. لكني عرفت من مظهره المتجهّم أن ثمة مشكلة فظيعة. "ما الأمر؟"، سألته بصوت منخفض.

وضع غوردون يداً على كتفي. "عليك توضيب حقيبة"، قال بشفقة.

أبعدت يده عني. ملأت مشاهد هيلكريست رأسي. "لماذا؟"، قلت متعجباً. "ماذا فعلت؟"

شرح لي غوردون بلطف أني لم أواجه أية مشكلة وأنه علم بالصراع الذي أواجهه في منزل آل كاتنزي منذ عودتي. قال لي أيضاً إنه يحاول نقلي إلى منزل آخر للتربية البديلة فيه عدد أقل من الأولاد. "بالإضافة إلى ذلك"، اعترف لي، "أنا في ورطة. فهناك ولد كبير جرى إطلاقه يوم الاثنين من الإصلاحية، وتم تعيينه للعيش هنا. لذا، تعال الآن، تحرك".

أردت البكاء، لكني ركضت بدل ذلك إلى غرفتي. تسارع خفقان قلبي نتيجة الإثارة والخوف من عدم معرفة ما سيحدث لي لاحقاً. بسرعة البرق، فتحت كل الأدراج وأخرجت الملابس من الخزائن وأقحمت كل ما أستطيع في كيس ورقي بني. وبعد دقائق، سرقت لحظة من الوقت لألقي نظرة أخيرة على الغرفة التي نمت، وبكيت، ولعبت وقضيت الكثير من الوقت فيها على مدى أكثر من عام. فحتى حين شعرت أن عالمي ينهار من حولي، كنت أحسّ دوماً بالأمان والطمأنينة في غرفتي. وفيما أغلقت الباب برفق، أغلقت عينيّ وقلت لنفسي مرة أخرى إني أحمق. فالقاعدتان الأساسيتان بشأن الرعاية البديلة اللتان تعلمتهما أثناء وجودي في منزل العمة ماري هما عدم التعلق كثيراً بأي كان وعدم الاستخفاف بمنزل أي شخص. لقد كنت ساذجاً جداً حين أقنعت نفسي بأني سأعيش مع رودي وليليان لبقية حياتي. أغلقت عينيّ محاولاً حبس الدموع في الداخل.

بعدما أجرى غوردون اتصالاً هاتفياً بمنزل رعاية آخر، توجب عليه فصلي عن ليليان بعدما تعانقنا. نظرت في عينيّ ليليان، واعداً إياها بأني سأكون ولداً جيداً وأني سأبقى على اتصال معها. في

الخارج، فتح غوردون باب سيارته الشيفي نوفا البنية، فوضعت أغراضي في المقعد الخلفي قبل أن يسمح لي بالدخول إلى سيارته. وفيما كان يرجع سيارته في الممر، استطعت مشاهدة خطوط الماسكارا السوداء تسيل على وجه ليليان. وقفت أمام نافذة غرفة الجلوس نفسها حيث كنت أقضي ساعاتي اللامتناهية في انتظار الاحتمال البعيد لزيارة والدي. وفيما لوّحت الوداع لليليان للمرة الأخيرة، أدركت فجأة أنها كانت ورودي يهتمان بي ويعاملانني أفضل من أهلي الحقيقيين.

لم أنطق انا وغوردون بأية كلمة طوال دقائق عدّة. تنحنح غوردون أخيراً. "هاي، دايف، أعرف أن الأمور تجري بسرعة كبيرة، لكن آه.."

"لكن ماذا؟"، قلت منتحباً.

أصبح وجه غوردون مشدوداً نتيجة الخيبة. "إسمع"، قال بصوت عال. "من النادر، النادر جداً، أن يبقى ولد في منزل بقدر ما بقيت أنت. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ وأنت بقيت هناك لكم من الوقت؟ لأكثر من سنة؟ حسناً، هذا رقم قياسي".

غرقت في المقعد وأنا مدرك بأن كل ما يقوله صحيح. لقد استخففت بالأمور طويلاً. أدرت رأسي إلى النافذة لأشاهد الأنحاء المألوفة من مدينة الماضي.

أفسد غوردون تركيزي. "هاي، دافيد، أنا آسف. لم يكن يجدر بي معاملتك هكذا. لكن المشكلة أني أنسى أحياناً ماذا تكون حال ولد في موقعك. سوف ترى، لقد اخترت لك منزلاً آخر البارحة، لكني تأخرت في المحكمة قبل أن آتي لاصطحابك. حسناً... يضمّ ذلك

المنزل ولدا ربيباً آخر... ياإلهي، لا أعرف ماذا أفعل بك".

"يمكنك إعادتي إلى آل كاتنزي"، اقترحت عليه بصوت لطيف.

"لا أستطيع فعل ذلك. فكما قلت لك قبلاً، لقد عيّنتك البارحة خارج منزل آل كاتنزي، ما يعني أنهم لم يعودوا المسؤولين القانونيين عنك. من الصعب جداً شرح هذا. والأساس هو أن أعثر لك على منزل".

فيما كان غوردون يبحث عن الكلمات، سيطر الخوف على قلبي. أدركت فجأة أني نسيت دراجتي، والأهم من ذلك، سلحفاتي الصغيرة. ضحك غوردون حين أخبرته، ولذلك سحبت ذراعه ممازحاً. لقد عرف كم تعني لي مشاعري، لكننا عرفنا معاً أن العثور على مكان لأمكث فيه هو أكثر أهمية.

توقف غوردون قرب منزله. أصبح الهاتف ملتصقاً فجأة بأذنه فيما كان يتوسل الأهل بالرعاية في الطرف الآخر من الهاتف لاستقبالي، حتى لو لبضعة أيام. وبعد ساعات عدّة، أغلق الهاتف وهو خائب الأمل. "اللعنة!"، قال. "لا يوجد أبداً ما يكفي من المنازل! وكل المنازل التي لدينا مليئة!" راقبته مجدداً وهو يهجم على الهاتف. تغيرت نبرته بعد لحظات. ورغم أنه أدار ظهره لي، استطعت سماعه يسأل بهدوء "ما هو العدد في الجناح أ؟ نعم؟ حسناً، حضّر سريراً لبيلزر. لا، لا، إنه شريف؛ لا أحكام. أنا أحاول فقط إيجاد مأوى له ولا أعثر على منزل. حسناً، شكراً. سأتصل بك قبل أن نأتي".

ألقى غوردون نظرة خاطفة عليّ وأدرك أني فهمت ما كان يجري. "آسف، دافيد، لم أعرف ماذا أفعل".

شعرت بإرهاق عقلي كبير لدرجة أني لم أعد أهتم. لا بل إني تطلعت بأمل ولهفة إلى روتين الإصلاحية ومشاهدة مستشارين مثل كارل ميغيل مجدداً. وقبل أن أطلب من غوردون أخذي إلى الإصلاحية، أطبق أصابعه وأمسك بسترته وخرج من الباب طالباً مني اللحاق به إلى السيارة. ابتسم لي ابتسامة متكتّمة داخل سيارة الشيفي نوفا. "كان يجدر بي التفكير في هذا قبلاً. يستحيل على بعض هؤلاء الأهل القول لا حين يضطرون إلى الاعتناء بكم أيها الأولاد. أعرف أنها مهمة صعبة، لكن الأوقات العصيبة تستلزم إجراءات مفرطة".

أغمضت عينيّ نصف إغماضة فيما أنا أحاول فهم ما تعنيه كلمات غوردون. وقبل أن أتمكن من طرح السؤال، انحنى صدري إلى الأمام فيما عمد إلى تغيير مبدّل السرعة ووقف السيارة. "حسناً"، أعلن بفخر، "ها قد وصلنا. أرني أفضل صورة لك"، قال غوردون بفخر فيما كان ينقر بأصابعه على نافذة الباب قبل برهة من خروجه.

شعرت أني لصّ يدخل إلى منزل شخص آخر من دون إذنه. برز فجأة رأسان من مطبخ مجاور. "حافظ على هدوئك واجلس". أشار إليّ غوردون للجلوس على أريكة قبل أن يغمزني بعينه. استدار بسرعة وفتح ذراعيه. "هارولد! أليس! من الرائع فعلاً لقاؤكما! كيف حالكما؟" دخل إلى المطبخ.

هززت رأسي وضحكت في قرارة نفسي على شخصية غوردون المتبدلة مثل الحرباء. عرفت أنه إذا أراد أمراً ما، يمكنه إقناع أي كان بأي شيء. ذكرني بأولئك الشبان المجانين في التلفزيون الذين حاولوا يائسين إقناع الناس بشراء السيارات.

قبل أن يسحب غوردون كرسياً من أمام طاولة المطبخ، عرفت أننا في مشكلة. فالرجل، هارولد، كان يرتدي قبعة من القش وهزّ رأسه. "لا، لا يمكننا أخذ المزيد. ليس لدينا غرف"، تمتم فيما أخذ مجّة من سيجارته.

أمسكت بكيسي المتجعد إذ كان على وشك الوقوف للرحيل حين قالت السيدة أليس: "إهدأ الآن يا ليو. يبدو مثل ولد جيد". انحنت أليس إلى الأمام وابتسمت لي. رفعت حاجبيّ وابتسمت لها.

"لا نملك رخصة لرعاية الصبيان. أنت تعرف ذلك"، قال هارولد.

تدخل غوردون. "سيكون ذلك لبضعة أيام فقط، إلى أن أتمكن من العثور له على منزل آخر. يجدر بي العثور على مكان له، لنقل، بحلول الاثنين... أو الأربعاء على أبعد تقدير. أنتما تسديان لي ولدافيد خدمة كبيرة فعلاً".

"والأوراق؟"، سألت أليس.

رفع غوردون إصبعه. "أوه... أنا لا أحملها معي، لكني... سأحضرها في الأسبوع المقبل... وسوف... نتحدث عن التواريخ... هاي، أنظرا إلى الوقت! عليّ الذهاب! شكراً مجدداً! أراكما في الأسبوع القادم!"، قال وخرج بسرعة من المنزل قبل أن يتمكن هارولد وأليس من تغيير رأيهما.

بقيت ملتصقاً بالأريكة، ممسكاً بكيسي قرب صدري. أبقيت رأسي منحنياً إلى الأسفل فيما نظر هارولد وأليس إليّ بحذر قبل دخولهما إلى غرفة الجلوس. "حسناً، أين سينام؟"، سأل هارولد بنبرة صارمة. بعد شجار بسيط، قررت أليس أني أستطيع مشاركة الغرفة

مع ميشيل، فتاة ربيبة في السابعة عشر من عمرها، تعمل خلال الليل. تابع هارولد في الاحتجاج زاعماً أن مشاركة الغرفة مع آنسة شابة ليس ملائماً. حاولت إحداث أول انطباع جيد عني، فتوجهت نحوه ونظرت مباشرة في عينه وقلت له: "أوه، لا بأس! أنا لا أمانع!"

فيما خرجت الكلمات من فمي، أدركت أني وقعت في مشكلة. خلال الليالي الأربع التالية، نمت تحت مجموعة من البطانيات الصوفية القديمة على أريكة في غرفة الجلوس.

لم أفهم السبب الذي جعل هارولد غاضباً جداً، لكني وجدت على الأقل مكاناً لأمكث فيه. شكرت الله على هذا الأمر.

في الأسبوع التالي، وبعد إجراء فحص سريع لمحتويات كيسي والقول وداعاً لأليس- السيدة تورنبوغ- صعدت إلى سيارة غوردون للتوجه إلى منزل رعاية آخر. طمأنني بأنه اكتشف المنزل المثالي، رغم أن أهلي الجدد بالرعاية لم يستقبلوا قبلاً أي أولاد أرباب لأنهم حصلوا على الرخصة في الأمس فقط. بدأت العواطف تغزو رأسي. وكلما حاول غوردون إقناعي بأهلي الجدد، أدركت أكثر فأكثر مدى حاجته إلى تأمين مأوى لي.

بعد اجتياز نصف ميل تقريباً، ركن غوردون سيارته أمام منزل بني صغير. خرجت من السيارة وتنهدت بعمق ووجهت ابتسامة زائفة للسيدة الواقفة على الشرفة. وقبل أن يتمكن غوردون من تعريفنا إلى بعضنا، نزلت المرأة السلم بسرعة وضمّتني إلى صدرها. تدلّت ذراعاي بجانبي فيما كانت يدا المرأة تتفحصان وجهي. لم أكن واثقاً مما يجدر بي فعله. ظننت أن المرأة أخطأت بي واعتقدتني ولداً آخر. وبعد

سيل من العناقات والقبل، أمسكتني السيدة على مسافة ذراع منها. "أوه، أنظر إلى نفسك!"، قالت المرأة فيما راحت تهزّ كتفيّ بسرعة لدرجة ان رأسي بدأ يتمايل صعوداً ونزولاً. "أوه، أستطيع التهامك حياً! غوردون، إنه ظريف جداً! دافيد"، صرخت المرأة فرحة فيما أخذتني إلى داخل المنزل. "لقد انتظرت طويلاً ولداً مثلك!"

دخلت إلى غرفة جلوس صغيرة وأنا أسعى جاهداً إلى عدم فقدان توازني. ولحظة تحرر رأسي، دفعتني المرأة بقوة على أريكتها. حاول غوردون بذل ما بوسعه لتهدئة المرأة من خلال إجبارها على قراءة عدد لا متناهٍ من الأوراق قبل القبول برعايتي. وأخيراً، أجلسها وشرح لها كل شيء ممكن عن شخصيتي، مراراً وتكراراً، وشددّ على أنها إذا أرادت طرح الأسئلة، عليها الاتصال به. "أوه، لا تقلق"، قالت السيدة فيما ابتسمت لي وأمسكت بيدي. "يفترض بولد صغير مثل هذا ألا يسبب المشاكل أبداً".

نظرنا أنا وغوردون إلى بعضنا البعض بدهشة في اللحظة نفسها. "حسناً"، قال وهو يضحك في سرّه، "سوف أذهب الآن وأترككما تتعرفان على بعضكما".

مشيت مع غوردون حتى الباب. ومن دون أن تعرف السيدة، انحنى وقال لي: "تصرف الآن *كولد* جيد". انحنيت مذلولاً لأنه عرف أني سأكون كذلك.

بعد رحيل غوردون، ارتمت السيدة على الأريكة. أغلقت عينيها وهزت رأسها من جانب إلى آخر لعدة دقائق. ظننت أنها ستبكي. "حسناً... أنظر إلى نفسك!"

ابتسمت لها، ومن دون تفكير مددت يدي قائلاً: "أنا دافيد بيلزر".

غطت المرأة فمها بيدها. "أوه، يالغبائي. أنا جوان نالز ويمكنك مناداتي السيدة نالز. كيف يبدو لك ذلك؟"

أومأت برأسي وأنا مدرك تماماً بأن جوان تعتبرني ولداً صغيراً وليس مراهقاً في الثالثة عشرة مثلما أردت اعتباري. "هذا لطف منك... سيدة نالز"، أجبتها.

بلمح البصر، نهضت السيدة نالز عن الأريكة وأرتني بفخر صورة لزوجها. "إنه مايكل"، قالت بتودد وحب. "السيد نالز. إنه يعمل في مكتب البريد"، أضافت وهي تضع الصورة قرب صدرها وتربتها كما لو أنها تحمل ولداً. لكنني شعرت بتحسّن بعد اللقاء أخيراً *بالسيد نالز*، الذي أصرّ لكي أناديه "*مايكل*". عرفت من وجه جوان أنها لم تحب الطبيعة المتساهلة لمايكل أو تحديه لقواعدها.

كانت تبدو دوماً انها تكبت شعورها أمام مايكل، لكن لحظة مغادرته إلى العمل، كانت تعود لتعاملني كأني دمية صغيرة. أصرّت جوان على غسل شعري، ومنعتني من الركوب على دراجتي أبعد من زاوية المبنى. وبدل المصروف البالغ 2.50 دولار الذي كنت أتلقاه من آل كاتنزي، وضعت بكل فخر ربعيّ دولار في راحة يدي. "والآن، لا تنفق كل هذا في مكان واحد"، حذرتني.

"أوه، لا تقلقي. لن أفعل ذلك"، طمأنتها وأنا أتساءل عما أستطيع فعله بهذين الربعين.

وبسبب قيود جوان، كنت أقضي معظم وقتي وأنا أتجول في منزلها. كانت غرفة الجلوس مكسوة بكل الأغراض المتوافرة في

كتالوج آيفون. أمضيت ساعات وأنا أحدّق في آلاف الأشياء. وفي بداية بعد الظهر، كنت أشعر بضجر كبير فأجلس أمام التلفزيون وأشاهد الرسوم المتحركة. وحين أصبح عاجزاً عن تحمل حلقة جديدة من الرسوم المتحركة، كنت أجرّ نفسي إلى غرفتي وأقضي الوقت بالتلوين في دفتر تلوين أعطتني إياه.

تماماً مثل المرحلة التي عشت فيها مع أمي، بدا لي أني أعرف فور حدوث خطب ما. وحتى لو كان باب غرفة نومي مغلقاً، كنت أسمع الخلافات الساكنة تتحول إلى معارك صاخبة. وفي مرات عدة، سمعت مايكل يشتم حضوري في منزله. أدركت أن رعايتي كولد ربيب كانت فكرة جوان، لأنها كما قالت لي، كانت تشعر بالوحدة وهي عاجزة عن إنجاب الأولاد. وكلما تشاجر مايكل وجوان، كانت صور أمي وأبي تتسارع إلى ذهني. أدركت تماماً أني لست في خطر جسدي، لكني بقيت رابضاً في الزاوية البعيدة لغرفتي مع بطانية فوق رأسي. وفي إحدى المرات، بعد مرور أيام قليلة على بداية المدرسة، أصبح صراخهما عالياً جداً لدرجة أن النوافذ في غرفة نومي بدأت تهتزّ.

في صباح اليوم التالي، حاولت التحدث إلى جوان التي بدت على وشك الانهيار. بقيت بجانب الأريكة طوال اليوم، أشاهدها تعانق صورة زفافها قرب صدرها فيما تتأرجح في كرسيها الهزاز. دخلت إلى غرفتي على رؤوس أصابعي بأكبر هدوء ممكن ووضبت ثيابي في كيس الورق البني. أدركت في تلك اللحظة أنها مسألة وقت فقط قبل أن يحين موعد رحيلي.

تبخرت مشاكلي مع آل نالز في أول يوم لي في ثانوية باركسايد.

جلست فخوراً أمام الطاولة الدائرية الكبيرة في صفي. ابتسمت للأولاد الآخرين الذين راحوا يمازحونني. وقام أحدهم، ستيفن، بدفعي برفق زاعماً أن فتاة من الطاولة الأخرى تنظر إليّ. "إذا؟"، سألته. "أين هي المشكلة؟"

"إذا أعجبتك فتاة، عليك مناداتها بـ *الرعب*"، شرح ستيفن.

أحنيت رأسي إلى جانب واحد. وفيما كنت أفكر في الكلمة التي أرادني ستيفن أن أقولها، أومأ إليّ بقية الصبيان علامة الموافقة. وبعد تشجيع مسهب من رفاقي الجدد، حاولت أن أبدو هادئاً وانحنيت فوق الفتاة لأهمس لها: "أنت أفضل رعب شاهدته في حياتي".

فجأة، أصبحت الغرفة كلها، التي كانت تضجّ بالجلبة، صامتة مثل الكنيسة. التفتت كل الرؤوس إليّ. وضعت الفتيات الجالسات على الطاولة أيديهنّ على أفواههنّ. ابتلعت بصعوبة مدركاً أني ارتكبت خطأ مجدداً.

بعد انتهاء الصف، هرعت الغرفة كلها المليئة بالأولاد إلى الباب. لحظة خروجي من الصف، شعرت أن الشمس اختفت. حدّقت مباشرة في وجه أكبر تلميذ من الصف الثامن شاهدته في حياتي. "*ماذا قلت* لأختي؟"، قال بازدراء.

ابتلعت بصعوبة مجدداً. فكرت في شيء ذكي لأقوله. لكني قلت له الحقيقة بدل ذلك. "*رعب*"، قلت هامساً. وبعد برهة، تدفق الدم الساخن من أنفي. كانت قبضة تلميذ الصف الثامن سريعة جداً لدرجة أني لم ألاحظها قادمة نحوي.

"ماذا قلت لها؟"، كرّر

أغلقت عينيّ قبل أن أعطيه الجواب نفسه.

تحطيم.

بعد توجيه ست ضربات إلى وجهي، أدركت أنه لا يجدر بي لفظ كلمة "رعب" لأنها تعني شيئاً سيئاً جداً. اعتذرت إلى الولد بحجم الغوريلا الذي ضربني مجدداً وهدد قائلاً: "لا تنادي أختي أبداً "مومساً" مجدداً!"

بعد ظهر ذلك اليوم، بقيت في منزل جوان داخل غرفتي فيما أحاول إصلاح إطار نظاراتي. لم ألاحظ أن جوان بقيت داخل غرفتها أيضاً. ومع مرور الأيام، أردت أن أسألها ومايكل عن معنى كلمة "مومس"، لكني أدركت من طريقة تصرفهما تجاه بعضهما أنه يستحسن إبقاء مشاكلي لي وحدي.

بعد أسبوعين، وعند العودة من المدرسة، وجدت جوان تدفن رأسها بين يديها. هرعت إليها. أخبرتني أنها ومايكل على وشك الطلاق. بدأ رأسي ينبض. جلست بقربها حين راحت تخبرني أن مايكل يقيم علاقة مع امرأة أخرى. أومأت برأسي فيما كانت جوان تبكي، لكني لم أعرف ما تعنيه فعلاً. لكني فضلت عدم السؤال.

بقيت بجانبها إلى أن ظلت تبكي حتى النوم. شعرت بالفخر. فلأول مرة في حياتي، نجحت في مساعدة أحدهم. أطفأت مصباح غرفة الجلوس وغطيت جوان ببطانية قبل أن أتحقق من محتوياتي في الكيس الورقي البني للمرة الأخيرة. استلقيت على سريري، وأنا أعرف في أعماق قلبي أني كنت نوعاً ما السبب في طلاق آل نالز.

بعد يومين، أدرت رأسي بعيداً عن جوان التي كانت تبكي على

الشرفة فيما انطلق غوردون بسيارته الشيفي نوفا.

وضعت يدي في جيب سروالي وسحبت ورقة تحتوي على عناوين وأرقام هاتف كل منازل التربية التي زرتها قبلاً. اقترضت قلماً من غوردون ووضعت خطاً فوق اسم جوان ومايكل نالز. لم أشعر بأي ندم. أدركت أنه إذا فكرت بمشاعري تجاه جوان نالز أو أليس توربوغ أو ليليان كاتنزي، سأنهار حتماً وأبدأ بالبكاء. شعرت أني تخطيت ذلك. أعدت ورقة العناوين بعناية إلى جيبي.

حررت رأسي من كل المشاعر التي لديّ تجاه آل نالز- أو أي شخص آخر- فيما ألقيت نظرة خاطفة خارج نافذة السيارة. ومضت عيناي. ظننت لبرهة أن غوردون يأخذني إلى مدينة دالي. "هل نحن ذاهبون في الاتجاه الصحيح؟"، سألت بصوت ضعيف.

تنهّد غوردون. "دافيد، آه... لقد نفدت منازل الرعاية البديلة. والمنزل الوحيد الباقي موجود قرب منزل أمك".

شعرت بانقباض في حنجرتي. "ما مدى القرب؟"، قلت بتذمر.

"أقل من ميل"، أجاب غوردون بصوت جاف. أومأت برأسي فيما ظهرت أمامي مدرسة توماس إديسون الابتدائية. حسبت أن المسافة التي تفصل بين مدرستي القديمة ومنزل أمي هي أقل من ميل. شعرت أن صدري بدأ يضيق. ففكرة العيش بالقرب من أمي جعلت قلبي يخفق بقوة. لكن ثمة شيء تغير. ألصقت وجهي تقريباً بحافة النافذة. بدت المدرسة مختلفة تماماً. "ماذا حدث؟"، سألت وأنا أهزّ رأسي من جانب إلى آخر.

"أوه، إنها مدرسة ثانوية الآن. سوف تأتي إلى هنا".

تنهّدت بعمق. ألا يعني ذلك أنها لا تزال هي نفسها؟ سألت نفسي بصوت تهكّمي. اختفى سريعاً بصيص الإثارة لفكرة رؤية أساتذتي الذين أنقذوني. وحين ابتعد غوردون عن المدرسة، في الاتجاه المعاكس لشارع أمي، تنفست قليلاً بصورة أسهل. شعرت أني دخلت في دوّامة زمنية فيما كانت سيارة الشيفي نوفا تعبر الشوارع المليئة بالبيوت الشبيهة كلها بمنزل أمي في جادة كريستلاين. لم أصدق كم بدت تلك البيوت صغيرة. لكن الغريب أني شعرت بالأمان. ابتسمت أثناء تأملي أشجار النخيل الطويلة الموجودة أمام الحقول الأمامية للمنازل الأحادية الطابق التي بدت صغيرة الآن. لم أصدق أنه مر عامين الآن على إنقاذي. أنزلت النافذة، وأغلقت عينيّ وتنفست الهواء البارد والرطب.

أوقف غوردون سيارته في أعلى هضبة منحدرة. تبعته نحو سلّم أحمر مؤدٍ إلى منزل بدا شبيهاً بمنزل أمي. وحين فُتح الباب الأمامي، كادت عيناي تخرجان من رأسي. انحنى غوردون صوبي. "سوف تكون على ما يرام؟ أنت لست من النوع المتحامل، أليس كذلك؟"

هززت رأسي فيما بقي فمي مفتوحاً. "متحامل؟"، سألته. لم أحظَ قبلاً بأهل رعاية من العرق الأسود. صافحت سيدة سوداء يدي وعرّفت عن نفسها بأنها فيرا. اخذت فوراً موقعي على أريكة في غرفة الجلوس فيما كان غوردون وفيرا يتحدثان في المطبخ. حدّقت عيناي في كل اتجاه، للتدقيق في كل زاوية، وكل ركن في منزل فيرا. بدت الأرضية كلها متشابهة. تذكرت أن جدران منزل أمي كانت مشبعة برائحة دخان السجائر الكثيف والخانق والرائحة النتنة لبول الحيوانات. لكن منزل فيرا امتاز بلمسة نظيفة. وكلما حدّقت أكثر في منزل فيرا، ابتسمت أكثر.

بعد دقائق قليلة، جلس غوردون بقربي على الأريكة. وضع يده على ركبتي، وقال لي إن منزل امي بعيد جداً، إذ يقع على مسافة ميل تقريباً. أومأت برأسي وفهمت معنى أمر غوردون. لكني خفت من أن تعثر عليّ أمي. "هل ستقول لها أين أسكن؟"

"حسناً"، بدأ غوردون، فيما هو يسعى جاهداً للعثور على الكلمات الصحيحة، "يتوجب عليّ حسب القانون إطلاع أمك فقط على أنك تقيم ضمن حدود المدينة. ولا أرى حاجة لإخبارها شيئاً آخر غير ذلك. فكما تلاحظ، أنا لست مولعاً كثيراً بها". تغيّر بعدها تعبير وجهه. "وبحق الله، إحرص على البقاء بعيداً عنها! هل انا واضح في ذلك؟"

"مثل البلّور"، أجبته وأنا أؤدي له التحية العسكرية.

ربّت غوردون بعناية على ركبتي عند نهوضه عن الأريكة. سرت معه إلى الباب وصافحت يده. والواقع أن الانفصال عن غوردون في منزل غريب كان الجزء الأكثر صعوبة، وإنما الأكثر تكراراً، في علاقتنا. شعرت دوماً ببعض الخوف. وبدا لي أنه أحسّ به على الدوام. "سوف تكون على ما يرام. إن آل جونز أشخاص طيبون. سوف أزورك بعد بضعة أسابيع".

أغلقت فيرا الباب بلطف شديد وراء غوردون، ثم أخذتني إلى ممر ضيق. "أنا آسفة، لكننا لم نكن نتوقعك"، شرحت لي بصوت لطيف فيما هي تفتح باب غرفة النوم في نهاية الممر. دخلت إلى غرفة خالية، لها جدران بيضاء، ومحتوية على فراش ضخم قرب أحد الجدران وسرير قابل للطي في الجانب الآخر. شرحت لي فيرا على مضض بأني سأتشارك الغرفة مع ابنها الأصغر. ابتسمت ابتسامة زائفة لفيرا فيما

تركتني وحيداً في الغرفة. أخرجت ثيابي بحذر شديد من الكيس الورقي وكدستها في كومات صغيرة ومرتبة عند أعلى سريري القابل للطي. رحت أقضي على الوقت من خلال ترتيب ثيابي مراراً وتكراراً كما لو أنها في درج حقيقي. فجأة، أغلقت عينيّ ورحت أبكي في داخلي لفكرة أني لن أكون مع آل كاتنزي بعد اليوم.

في فترة لاحقة من بعد الظهر، تعرّفت إلى سبعة مراهقين أرباب آخرين يعيشون في غرفة مستعملة كبديل مؤقت في الكاراج. كانت الفرش محتشدة في كل زاوية وكل مساحة أخرى متوافرة. ثمة مصباحان قديمان منحا الغرفة توهجاً ناعماً، فيما استعملت خزانات الكتب لحفظ كل ممتلكات المراهقين. تبدد كل قلقي بعد لقائي جودي، زوج فيرا، الذي ضحك مثل بابا نويل فيما كان يرفعني عالياً لدرجة أن رأسي ارتطم تقريباً بالسقف. تعلمت بسرعة أنه مهما كانت الحال، يتوقف كل شيء وكل واحد عن عمله ويتنافس للحصول على انتباه جودي كلما أتى هذا الأخير إلى المنزل. وعلى رغم ضيق الأمور، برز رابط عائلي حقيقي. أملت فقط أن أبقى لفترة كافية حتى أحفظ رقم هاتفهم.

كان يومي الأول في ثانوية فرناندو ريفييرا أفضل كثيراً من يومي الأول في ثانوية باركسايد في سان برونو. أبقيت فمي مغلقاً ورأسي منخفضاً إلى الأسفل. وأثناء الفرصة، حاولت يائساً معرفة ما حلّ بأساتذتي السابقين واكتشفت أنه تم نقلهم إلى مدارس أخرى في المقاطعة. شعرت بالفراغ والأسى على نفسي، إلى أن تصادقت يوماً مع كارلوس، ولد اسباني خجول. كنا نتشارك معظم الصفوف،

ونجوب أرجاء المدرسة أثناء الفرصة. بدا أن لدينا الكثير من الأمور المشتركة، لكن على عكس "صديقي" جون في مدرسة مونتي كريستو الابتدائية، لم يكن كارلوس يعرف الشر أو الأذى. وبما أن كارلوس لا يستطيع تحدث الانكليزية بطلاقة، لم نشعر بحاجة كبيرة للتحدث إلى بعضنا. والغريب أننا كنا نملك أنا وكارلوس طريقة لمعرفة ما يفكر به الآخر، بمجرد تعابيرنا. وخلال فترة وجيزة، أصبحنا غير منفصلين. وفي نهاية اليوم المدرسي، كنا نلتقي عند حجراتنا المقفلة بحيث نتمكن من العودة إلى المنزل معاً.

في أحد الأيام، وبسبب الضجر، أقنعت كارلوس باجتياز الشارع للوصول إلى مدرسة توماس إديسون الابتدائية الجديدة. وفيما كنا نمشي انا وكارلوس في الأروقة، لم أصدق مدى تفاهة ؛الأولاد. فقد كانت مجموعات الأولاد تنفجر ضحكاً فيما هي تتسابق للوصول إلى الملعب. كان رأسي محنياً إلى الجانب حين انعطفت حول زاوية وارتطمت بولد كبير. تمتمت الاعتذار لبرهة قبل أن أدرك أن ذلك الولد هو شقيقي راسل. تراجع رأسه إلى الخلف لبرهة. تمعّنت عيناي في كل ناحية من جسمه. أدركت بلمح البصر أن راسل أراد الصراخ بكل قوته لكني لم أستطع منع نفسي من التحديق فيه. ارتجفت عيناه. شعرت أن جسمي أصبح مشدوداً تماماً مثلما يكون في اللحظة التي تسبق ركضي بأقصى سرعة. انحنى رأسي إلى الأمام حين بدأت شفتا راسل تفتحان. أخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي، حسناً، دافيد، هذه هي.

"ياللصدفة! أوه ياإلهي! دافيد! أين.. كيف حالك؟"، سأل راسل بصوت منفعل.

تسارعت كل الخيارات في رأسي. هل كان هذا راسل فعلاً؟ هل سيضربني أو يركض لإخبار أمي أنه رآني؟ التفت إلى كارلوس، الذي رفع كتفيه. أردت معانقة راسل بكل جوارحي. لكن فمي أصبح جافاً فجأة. "أنا... أنا بخير"، تمتمت وأنا أهزّ رأسي. "هل أنت بخير؟ أعني... كيف حالك؟ كيف هي الأمور في المنزل؟ كيف أمي؟"

انخفض رأس راسل في اتجاه حذائه البالي. أدركت كم يبدو منطوياً على نفسه. كانت قميصه رقيقة مثل الورقة وذراعاه مليئين بالبقع الأرجوانية الداكنة. التفت رأسي نحو وجهه. فهمت. هززت رأسي من دون أعرف ماذا أقول. شعرت بالأسى حياله. فطوال سنوات، كنت الهدف الوحيد لغضب أمي. واليوم، يقف أمامي بديلي.

"هل لديك أية فكرة عما ستفعله إذا عرفت أني تحدثت إليك؟"، قال راسل، فيما صوته يرتجف. "الأمور سيئة. أعني سيئة فعلاً. فكل ما تفعله هو اللوم بقسوة والمهاجمة بعنف. إنها تشرب أكثر من قبل، قال راسل وهو ينظر مجدداً إلى حذائه.

"أستطيع المساعدة!"، قلت بصراحة. "فعلاً، أستطيع ذلك!"

"عليّ.... عليّ الذهاب". انطلق راسل بعيداً، ثم توقف والتفت قائلاً: "إنتظرني هنا غداً بعد المدرسة". وجّه إليّ من ثم ابتسامة عريضة. "هاي، يارجل... أنا مسرور حقاً لرؤيتك".

مشيت إلى الأمام. شعرت بحاجة ماسة إلى التواجد قربه. مددت يدي. "شكراً لك. سوف أنتظرك".

ابتسمت بعد ذلك لكارلوس. "إنه أخي". أومأ كارلوس برأسه. "نعم *يا صديقي نعم*!"

فكرت في راسل طوال فترة بعد الظهر. لم أستطع الانتظار حتى أراه في اليوم التالي. لكن ما الذي أستطيع فعله؟ قلت لنفسي. هل يأتي راسل إلى منزل جودي وفيرا معي بحيث يتصل جودي بالشرطة ويستطيع ربما إنقاذه مثلما حصل معي؟ أو ربما أنا أتخيل العلامات على ذراعيّ راسل بأنها سوء معاملة فيما هي في الحقيقة جروح ورضوض من اللعب. كان يحاول راسل ربما خداعي مثلما فعل قبل أعوام حين وضع ألواح السكاكر في علبتي البالية، ثم ركض لإخبار أمي بأنه شاهدني وأنا أسرق. وكان يحظى بعدها بامتياز مشاهدتي وأنا أتلقى عقابي *على جريمتي*. لقد درّبت أمي راسل ليكون جاسوسها، لكنه كان مجرّد ولد صغير آنذاك.

في تلك الليلة، تقلّبت مراراً وتكراراً في سريري، متسائلاً عما يجب فعله. وفي وقت ما من الصباح الباكر، خلدت أخيراً للنوم. وجدت نفسي في الحلم وأنا *أنتظرها*. انحنى رأسي إلى جانب واحد حين سمعت تنفّس أمي. نظرت مباشرة في عينيها لبرهة. وشاهدت نفسي أسير في اتجاهها. أردت التحدث إليها وسؤالها لماذا أنا؟ لماذا راسل؟ تحرّك فمي، لكن الكلمات لم تخرج منه. وبلمح البصر، تحوّل وجه أمي إلى اللون الأحمر الداكن. لا! صرخت لنفسي. لا يمكنك الاستمرار في ذلك! لقد انتهى الأمر! فجأة، ظهرت السكين اللامعة والمسننة فوق رأس أمي. حاولت برم جسمي والهرب بعيداً، لكن قدماي لم تستجيبا. حاولت إبعادها بالصراخ. تبعت عيناي السكين فيما هي تفلت من يديها. عرفت أني سأموت. صرخت بكل قوتي لكني لم أستطع سماع خوفي.

ارتطم رأسي بالأرض. وجدت نفسي وأنا أحاول النهوض. وقفت وحيداً في الغرفة المظلمة، غير واثق ما إذا كنت مستيقظاً أو أني لا أزال أحلم. حدّقت جيداً بعينيّ، وأنا أبحث في الظلام. بدا لي أن قلبي علق في حنجرتي. *ياإلهي!* قلت لنفسي. *ماذا لو أني ما زلت هناك معها*؟ أفرغت رئتيّ من الهواء حين سمعت صوت ابن جودي وهو يشخر في سريره. أمسكت بقطعة من ثيابي، ووضعتها قرب صدري فيما أنا أنتظر شروق الشمس.

في اليوم التالي بعد انتهاء المدرسة، جررت كارلوس فعلياً إلى مدرسة توماس إديسون الابتدائية. "ليست هذه فكرة جيدة"، قال كارلوس. "*أمك* مجنونة" قال وهو يوجه إصبعه إلى جانب رأسه. أومأت برأسي علامة الموافقة. لقد قررت بعد كابوسي أنه ما من شيء سيمنعني من مشاهدة راسل. توقفنا أنا وكارلوس في المكان نفسه كما في اليوم السابق. شاهدنا عدداً من الأولاد يصرخون ويضحكون فيما بدا أنهم يركضون بين أرجلنا. وفيما ازداد حجم الأولاد تدريجياً، بدأت البحث عن راسل. عثرت عليه عيناي في الطرف البعيد للملعب وكان رأسه محنياً إلى الأسفل. "راسل"، صرخت له. "هنا!" هزّ راسل رأسه لكنه لم ينظر إليّ مباشرة مثلما فعل في الأمس.

شعرت بشيء يخزني في ذراعي. نظرت إلى كارلوس الذي حدّقت عيناه في كل اتجاه. "ليست هذه فكرة جيدة، أمك مجنونة"، قال محذراً.

"ليس الآن!"، أجبته وأنا لا أزال أحدّق في رأس راسل. "إنه أخي... *ياصديقي*. إنه يحتاج إلى المساعدة مثلي، أتذكر؟"، قلت وأنا أؤشر نحو راسل الذي أبطأ وتيرته.

انحنيت إلى الأمام حين أمسك كارلوس بذراعي. "لا!"، صرخ كارلوس. "إنتظر هنا!"

أبعدت يد كارلوس عني، وشققت طريقي بين مجموعات الأولاد متوجهاً نحو راسل. كنت لا أزال أمشي حين مددت يدي. رآني راسل، لكنه أبقى رأسه محنياً إلى الأسفل لسبب ما. توقفت في منتصف الطريق.

ارتعدت ساقاي. بدت ذراعي معلّقة أمامي. وقبل أن يصرخ كارلوس، أدركت أن ثمة خطأ فظيع. "أركض، دافيد!"، صرخ كارلوس. "أركض".

نظرت مباشرة فوق شعر راسل وشاهدت أمي تسير خلفه فيما رأسها محني إلى الأسفل. حدّقت عينا أمي الباردتين والشريرتين فيّ حين أتيح لها مشاهدتي بالكامل. بدا وكأن الأولاد يرقصون حولها فيما هم يتبعثرون في كل اتجاه. وقف راسل على مسافة إنشات مني، ثم التفت نحو أمي التي ابتسمت. اختفت يدها في محفظتها فيما راحت تقترب مني أكثر فأكثر. ولبرهة، بدا وجه أمي متردداً، فيما كانت تسحب قطعة لامعة من الحديد...

فقدت توازني حين جرّ أحدهم ذراعي إلى الخلف. وقعت على ظهري، وبقيت عيناي شاخصتين في أمي. بدأ كارلوس الواقف فوقي بسحبي إلى الخلف. أدركت ان هذا كابوس بلا ريب، لكن صراخ كارلوس جعل كل شيء حقيقياً. كافحت للوقوف، وشعرت بيديّ كارلوس ترفعان قدميّ.

أغمضت عينيّ لبرهة وشاهدت أصابع أمي تمتدّ نحو عنقي. كانت

قريبة جداً لدرجة أني استطعت شمّ رائحة جسمها الكريهة. وبلمح البصر، شققنا أنا وكارلوس طريقنا عبر مجموعة الأولاد الأصغر سناً. وفيما كنا نهرب، نظرت خلفي. أمسكت أمي بذراع راسل فيما جعلت مشيتها أكثر سرعة. أمسك كارلوس بيدي وأخذني إلى موقف السيارات. شعرت بالضيق في صدري نتيجة الخوف المطلق والافتقاد إلى الأوكسيجين. تأرجحت ذراعاي بعنف. ركضت إلى موقف السيارات ونظرت مجدداً خلفي. بحثت عيناي عن أي دليل لأمي أو راسل. ومن دون إنذار، تعثّرت قدمي. افتقدت ساقاي إلى أي إحساس وتوجب عليه سحبي عبر الهضبة الصغيرة التي ركضتها قبل أعوام وصولاً إلى ذراعيّ أمي قبل أن نغادر نحو النهر. بدت لي الآن الهضبة نفسها بمثابة قبري. شعرت بالوخز في ساقيّ، وأوجبت ركبتي الحك من الجانب وأصبحت أسناني مطبقة من شدّة الخوف.

استطعنا أنا وكارلوس من أعلى الهضبة مشاهدة مجموعات صغيرة من الأولاد والكبار وهم يؤشرون في اتجاهنا. تفحّصت عيناي مجموعة السيارات التي تغادر الموقف. لم أعرف في أي اتجاه يجدر بي الهرب إلى أن شاهدت أمي. وبعد لحظات، هززت رأسي. "لقد رحلت. ليست هنا!"

أمسك كارلوس بذراعي. "هناك!"، قال مؤشراً بإصبعه. لقد صعدت سيارة أمي إلى أعلى الهضبة في غضون لحظات. استطعت مشاهدة الغيظ في وجهها فيما كانت تضغط بقوة على الزمور. أومأنا أنا وكارلوس إلى بعضنا البعض قبل عبور الشارع وصعود هضبة أخرى وصولاً إلى منزله. بدا لي أن طاقتي تأتي من حيث لا أدري،

وراحت أذناي تلتقطان كل أصوات المحرك القديم لسيارة أمي.

صعدنا أنا وكارلوس الدرج المؤدي إلى منزله. أقحم أصابعه في جيوبه بحثاً عن مفاتيح الباب. "هيا!"، قلت له متوسلاً. أمسكت أصابع كارلوس المرتعشة بالمفاتيح. ورغم أني استطعت سماع سيارة أمي تصعد إلى أعلى الهضبة، وقفت وراقبت الانعكاس اللامع للمفاتيح التي سقطت على الدرج. المفاتيح! قلت لنفسي. *لم تكن أمي تخرج سكيناً من حقيبتها! كانت مجموعة من المفاتيح!*

أيقظني صراخ كارلوس من حلمي. نزلت إلى أسفل الدرج وسلّمت المفاتيح إلى كارلوس الذي أدخل مفتاحاً منها في القفل قبل فتح الباب. تسلقت الدرج على يديّ وركبتيّ، ودخلت إلى منزل كارلوس وأغلقت الباب بقوة خلفي. لا أحد في المنزل. جلسنا امام النافذة الأمامية وبقينا ملتصقين بالأرض، مختبئين وراء الستائر فيما كانت أمي تسير بسرعة في الشارع. بدأنا أنا وكارلوس بالضحك– إلى أن سمعت الصوت التقليدي لسيارة أمي وهي تعبر الشارع،، وتدوس على الفرامل كل بضعة أقدام، فيما تحدّق عيناها داخل كل منزل. "إنها تبحث عنا"، قلت هامساً.

"*أجل!*"، أجاب كارلوس. "أمك *مجنونة*".

بعد الاختباء خلف ستارة غرفة الجلوس لأكثر من ساعة، توجهنا أنا وكارلوس إلى منزل جودي. ابتسمنا لبعضنا البعض. كانت عيناه البنيتان تبتسمان. "تماماً مثل جايمس بوند!"

"نعم"، ضحكت. "جايمس بوند". هززت يده وأومأت له بأني سأراه في الغد. شاهدت كارلوس وهو ينزل الشارع، ثم يختفي حول

المنعطف. لم أشاهده قط بعد ذلك.

عبرت مجموعة من الهضاب ولم أتوقف إلا بعد إغلاق الباب الرئيسي لمنزل جودي. اتكأت على الباب لعدة ثوانٍ إلى أن أدركت أن فيرا وجودي يصرخان على بعضهما البعض في المطبخ. لعنت نفسي، لأن أمي اتصلت بهما بلا شك. مررت أمام المطبخ متوجهاً إلى غرفتي وأنا على يقين بأن جودي سينايدني قريباً. وحين جلست على سريري، عرفت أني خرقت واحدة من أهم قواعد غوردون هاتشنسون- البقاء بمنأى عن أمي. بدأت أفكار غوردون وهو يقودني إلى الإصلاحية تملأ رأسي.

وبعد دقائق قليلة، انحنيت على باب غرفة النوم لسماع ما يجري بصورة أوضح. اكتشفت أن جودي وفيرا لا يتشاجران بسببي وإنما بسبب فتاة ما. فتحت الباب ونزلت السلم وصولاً إلى غرفة الصبيان الأكبر سناً. التفتت كل الرؤوس دفعة واحدة نحوي. كانت وجوههم طويلة وحزينة. بدوا جميعهم مشغولين، وأجسامهم منحنية إلى الأسفل فيما هم يوضّبون ثيابهم وأغراضهم الأخرى في أكياس بنية. عرفت، لكن توجب عليّ السؤال: "ما الخطب؟ ماذا يجري؟"

قال بوبي، الولد الأكبر سناً: "إنهم يغلقون المنزل. من الأفضل أن توضّب أغراضك إذ يجدر بنا الرحيل غداً".

فتحت فمي على الملأ. "لماذا؟ ما الخطب؟"

لم يجبني أحد. ركضت إلى أسفل السلم وأمسكت بقميص بوبي. وحين نظر إليّ أدركت من عينيه أنه كان يبكي. لم أعلم أن الأولاد الكبار يفعلون ذلك أيضاً. هزّ بوبي رأسه. "تم اتهام جودي باغتصاب معاقب عليه قانوناً".

"معاقب... ماذا؟"، سألته.

"هاي، أيها الولد الصغير، الحقيقة أن آل جونز استقبلوا هذه الفتاة قبل بضعة أشهر، وتقول هذه المعتوهة الآن إنه تم اغتصابها، علماً أن جودي لم يكن أبداً لوحده في المنزل معها. إذا سألتني، أعرف أن هذا كذب. تلك الفتاة مجنونة"، قال بوبي. "هيا، وضّب أغراضك ولا تنسَ التحقق من سلة الغسيل. هيا، بسرعة!".

احتجت إلى دقيقة واحدة فقط لتوضيب أشيائي. وفيما كنت أملأ كيسي الورقي، أبعدت كل مشاعر الأسى تجاه آل جونز. كانوا أشخاصاً طيبين، وشعرت بالحزن تجاه جودي وفيرا، لكن ممتلكاتي الأرضية تأتي أولاً. كان الأمر بالنسبة إليّ مسألة بقاء.

في صباح اليوم التالي، وصلت مجموعة من السيارات، وقال الأولاد الأرباب الواحد تلو الآخر، بمن فيهم أنا، كلمات الوداع. قبّلت فيرا على خدّها وعانقت بطن جودي. وفيما كان المساعد الاجتماعي يقود بي عبر الهضاب، مروراً بمدرستي، أخرجت ورقة عناويني وشطبت اسم آل جونز من لائحتي. مكثت عندهم أكثر من شهرين تقريباً- وكان ذلك منزلي الثالث خلال نصف عام.

ابلغني المساعد الاجتماعي أن بعض الأولاد الأرباب الذين عشت معهم سيذهبون إلى الإصلاحية نظراً لعدم توافر منازل كافية. وتابع يشرح لي أن غوردون لم يستطع المجيء لأخذي لأنه مريض. لكن غوردون منحه عنوان منزل قد يستطيع استقبالي لبضعة أيام.

انزلقت في مقعدي وأومأت برأسي. *نعم، نعم*، قلت لنفسي. كم *مرّة سمعت هذه العبارات قبلاً*؟

بعد ساعتين تقريباً، خرجت مسرعاً من السيارة ودخلت إلى غرفة جلوس أليس تورنبوغ. عانقت أليس من كل قلبي. وبعد لحظات، طرق المساعد الاجتماعي على الباب الرئيسي قبل أن يدخل. "أنتما تعرفان بعضكما؟" سأل بصوت متعب. أومأت برأسي صعوداً ونزولاً مثل الكلب المدلل. "سيدة تورنبوغ، أنا... أعرف أنه نوع من البلاغ... لكننا واجهنا حالة...هل نستطيع وضع دافيد هنا... لبرهة؟"، قال متوسلاً.

"حسناً، أنا لا أملك في الحقيقة غرفة، ولا أستطيع السماح له بمشاركة غرفة مع الفتيات. هل يوجد أي حلٍّ...."

شعرت بالأسى في قلبي. أردت البقاء مع أليس. بدأت عيناي تدمعان فيما نظرت إلى المساعد الاجتماعي الذي تردد لبرهة. التفتت من ثم نحو أليس التي تصرفت بالطريقة نفسها.

هزّت أليس رأسها. "لا أظن أنه من الملائم لدافيد، أعني..."

تبع ذلك مرحلة صمت طويلة. أفلتت أليس ورحت أحدّق في السجادة. "حسناً"، قالت أليس بصوت مهزوم، "هلا قلت لي على الأقل المدة التي يتوقع بقاؤه خلالها عندي؟ أظن أني أستطيع إعادته إلى الأريكة. هذا، إن كنت لا تمانع كثيراً يادافيد".

أغلقت عينيّ لأطول وقت ممكن. لقد امتلأ رأسي بسيل من الأفكار التي لا تنتهي. لا أبالي. لا أبالي إن كنت سأنام على الأريكة أو على سرير من المسامير. أردت فقط البقاء في مكان أستطيع تسميته *منزل*.

الفصل

9

بداية جديدة

كانت إقامتي مع آل تورنبوغ يوماً بيوم. تحولت الأيام إلى أسابيع، من دون أن أعرف أين سأنتهي. وبعدما فقدت الأمل، أعادتني أليس إلى ثانوية باركسايد. كنت سعيداً جداً بالعودة إلى المدرسة لمشاهدة أساتذتي مجدداً، لكني بقيت أشعر بوجود سحابة داكنة فوقي. كنت أخشى العودة ماشياً إلى منزل أليس بعد المدرسة. كنت أختلس النظر حول المنعطف وأبحث عن سيارة قديمة، وأنا مدرك بأنه سيتم اكتشاف أمري سريعاً. في كل يوم، كنت أزعج أليس وأنا أحاول يائساً معرفة أية أخبار جديدة من غوردون هاتشنسون. أردت فقط أن أعلم.

وفيما تحولت الأسابيع إلى أشهر، وجدت نفسي وأنا لا أزال أنام على الأريكة معتمداً على كيسي الورقي. أصبحت ثيابي بالية وعفنة لأني كنت أغسلها فقط بعد ظهر يوم السبت بعد الساعة الثالثة أو يوم الأحد- فكنت أعلم أنها الفترات الوحيدة التي أستطيع فيها التحرك بأمان. وبعد نسياني سلحفاتي الصغيرة عند آل كانتزي، لم أرغب في فقدان أي شيء آخر مجدداً. ففي كل ليلة، وبعد خلود الجميع إلى النوم، كنت أصلّي على الأريكة حتى يقرّر غوردون غداً مصيري.

في أحد الأيام، عند العودة إلى منزل أليس بعد المدرسة، طلبت مني الجلوس. ابتلعت بصعوبة فيما أنا أستعد لتلقي الخبر السيء.

لكن شيئاً من هذا لم يأتِ. أبلغتني أليس شيئاً آخر. سوف أذهب للقاء طبيب نفسي غداً. هززت رأسي للقول لا. لكن أليس تابعت لتشرح لي أنها فهمت المشاكل التي واجهتها مع طبيبي السابق. ذهلت لأنها تعرف الكثير عن ماضيّ، فيما لم أخبرها أنا بأي شيء. "إذاً، كنت تتحدثين إلى المسؤول عن مراقبة سلوكي، ولم يأتِ بعد إلى زيارتي؟" سألتها وأنا أشعر بالخجل والخزي.

شرحت لي أليس أنها تعمل على برنامج لإبقائي معها، لكنها تحتاج إلى الوقت للحصول على رخصة تتيح لها إبقاء صبيان في منزلها. "لكن لا تقلق"، تابعت. "لقد قررنا أنا وهارولد أننا نودّ إبقاءك معنا لبعض الوقت".

قبلت أليس من دون أي تردد. فكرت من ثم في عبارتها الأخيرة ونظرت إليها بتجهّم. "تقصدين أن هارولد يريدني أن أبقى أيضاً؟".

ضحكت أليس. "إذا كان هارولد لا يتحدث كثيراً، لا يعني ذلك أنه لا يحبك. لقد أمضى وقتاً طويلاً في فهمك. وأظن صراحة أن الكثير من الأشخاص سيفعلون ذلك أيضاً. لكن صدقني، لو لم يكن هارولد يريدك لما بقيت هنا". التفّت يداها الكبيرتان حول أصابعي الضعيفة. "إن ليو يحبك أكثر مما تظن".

كان حديث أليس عن هارولد مهماً جداً بالنسبة إليّ. فمنذ أن كلمته عن مشاركة غرفة مع فتاة، شعرت أن هارولد يعتبرني بمثابة ولد غريب. ولم يكن يتحدث معي أبداً. وإذا صادف أن تمتم بضعة كلمات في اتجاهي، كان يحاول دفعي إلى المطالعة بدل مشاهدة التلفزيون. وبعد تناول العشاء في كل ليلة، كان هارولد يحمل كتاباً قديماً عن الغرب

ويدخن سجائره قبل الخلود إلى النوم في تمام الساعة التاسعة مساء.

لقد احترمت هارولد كثيراً، رغم أنه لم يعرف ذلك أبداً. كان نجاراً، ومولعاً جداً بمهنته. تمنيت لو أني أستطيع البقاء فترة كافية مع آل تورنبوغ حتى يعلّمني هارولد بضعة أمور. فمنذ أن كنت ولداً صغيراً، كنت أحلم ببناء كوخ خشبي بمحاذاة النهر الروسي، ولذلك كنت أتخيل في بعض الأحيان اننا نعمل أنا وهارولد على تنفيذ المشروع معاً، على أمل أن يقرّبنا من بعضنا البعض. ظننت أني أستطيع ربما إثبات نفسي له.

في اليوم التالي، وبعد تشجيع كبير من أليس، ركبت الباص وتوجهت للقاء الطبيب النفسي الجديد، الدكتور روبرتسون، الذي تبين لي أنه النقيض الكامل للطبيب "العظيم" الذي قابلته قبلاً. حيّاني وصافحني وطلب مني مناداته باسمه الأول، دونالد. كان مكتبه مغموراً بالكامل بأشعة الشمس الدافئة، لكن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إليّ كان تصرّف الدكتور روبرتسون معي مثل إنسان.

وفي زياراتي الأسبوعية للدكتور روبرتسون، لم أشعر أبداً أني ملزم بالتحدث عن أي شيء، لكني وجدت نفسي سريعاً وأنا أستهل المحادثة عن ماضيّ. سألت *الدكتور روبرتسون* عن كل شيء، بما في ذلك ما إذا كُتب عليّ تتبع خطى أمي. حاول الدكتور روبرتسون دوماً توجيهي نحو موضوع آخر، لكني ناضلت للحفاظ على مسيرتي الطويلة المتجلّية في العثور على أجوبتي. تعلّمت الوثوق به فيما كان يقودني عبر متاهة الأجزاء الحساسة من ماضيّ.

وبسبب مثابرتي، اقترح عليّ الدكتور روبرتسون قراءة بعض الكتب حول علم النفس الأساسي. وبعد فترة وجيزة، أصبحنا أنا

وهارولد نتشاجر نوعاً ما للجلوس قرب المصباح عند طرف الأريكة، فيما أنا أحاول قراءة كتب حول احترام الذات كتبها نورمان فينسانت بيل أو آخرين حول الجانب الغريب، مثل *مناطقك الخاطئة*. وجدت نفسي مذهولاً أمام النظريات الأساسية للصمود، كما كتبها الدكتور أبراهام ماسلو. وفي بعض الأوقات، كنت أشعر بالإحباط نتيجة الكلمات المعقدة، لكني صمدت واكتشفت سريعاً أني احتجت إلى الكثير من الوقت للوصول إلى ما أنا عليه. ورغم أن أجزاءاً في داخلي كانت لا تزال تشعر بالغرابة، أدركت *أني* أقوى من معظم الأولاد في المدرسة الذين بدوا أنهم يعيشون في عالم "عادي".

وجدت نفسي في منزل أليس وأنا أصارحها بكل شيء تقريباً، طوال الوقت. وفي بعض الأحيان، كنا نستمر في الثرثرة حتى ساعات الصباح الأولى. لم أقلق أبداً بشأن طريقة حديثي أو مضمونه. وحين أصبح عصبياً وأبدأ بالتمتمة، تعلّمني أليس كيفية إبطاء حبل أفكاري وتصوّر نفسي وأنا أنطق بالكلمات قبل لفظها. وفي غضون أسابيع قليلة، اختفت مشاكل النطق لديّ.

وبعد ظهر كل سبت، بعد انتهاء أليس من أداء رقصتها السريعة المفعمة بالحيوية، كنا نجوب الطريق المحاذية للسكة الحديدية وصولاً إلى المتجر نفسه الذي اصطحبتني إليه السيدة كاتنزي لشراء ثيابي. كنا نشاهد فيلماً على الدوام، وكانت هذه الطريقة الوحيدة التي تستطيع أليس خلالها إجباري على الجلوس ساكناً لفترة من الوقت. وفيما كنت أجلس بهدوء قربها، كنت أشبك يديّ فيما أنا أتمعّن في كل مشهد. كان عقلي يسعى لاكتشاف الخطوة التالية في الرواية الغبية أحياناً. أصبحت

مذهولاً بالسيناريوهات المعقدة وكيفية جمع المخرج لكل المشاهد معاً. وبعد انتهاء كل عرض، كنا نتبادل أنا وأليس آراءنا وانتقاداتنا.

وفي أحيان أخرى، ومن دون أي سبب وجيه، كانت تشتري لي الألعاب. شعرت في البداية أني لا أستحقها، ربما لأني لست معتاداً على تلقي الهدايا ولأني كنت أعلم ربما كم يعمل هارولد بجدّ لجني كل قرش. لكني تعلمت مع الوقت قبول الهدايا. كان ذلك بالنسبة إليّ درساً صعباً جداً على الفهم.

لكن الهدية الأكثر أهمية التي منحني إياها آل تورنبوغ كانت فرصتي الأخيرة في التصرف كولد فيما أنا أحضّر نفسي لحياتي كراشد. وفي محاولة لأظهر لأليس وهارولد مدى أهميتهما بالنسبة إليّ، أخرجت من جيبي بعد ظهر أحد الأيام فيما كنا جالسين أمام طاولة المطبخ- "طاولة النقاش" الشهيرة- ورقة صغيرة وسخة ومزقتها إرباً. "والآن، ما كل هذا؟"، سأل هارولد فيما الدموع انهمرت على خدّي أليس.

"لا أحتاجها بعد الآن"، قلت بفخر. "وأنا أعرف رقم هاتفكم. هل تريدان سماعه؟". أومأت أليس برأسها إيجاباً. "إنه 5552647"، قلت بفخر فيما أنا أنظر مباشرة في عينيّ هارولد الزرقاوين.

"حسناً، لقد حان الوقت ربما لحفظ ذلك الرقم غير المدوّن بعد"، قال فيما غمزني بطرف عينه.

كلما تحدثنا أنا وأليس لفترة من الوقت، كان موضوع مستقبلي يبرز دوماً إلى الواجهة. وحتى السؤال البسيط "ماذا تريد أن تفعل يادافيد حين تكبر" كان يجعلني أشعر بالذعر في أعماق روحي. كنت أتصوّر دوماً

كريس، ذلك الولد الربيب في منزل آل كاتنزي، ومدى الخوف الذي شعر به مع اقترابه من عمر 18 عاماً. لم أفكر يوماً في المستقبل. فللصمود ومواجهة عذاب أمي، كنت أخطط فقط ساعة بساعة، أو يوماً بيوم على الأكثر. والواقع أن فكرة وجودي لوحدي في العالم المفتوح الكبير كان الشيء الأكثر رعباً الذي أستطيع تصوّره. كنت أشعر بخوف وتوتر شديدين لدرجة أني أعود للهذيان مجدداً. كانت أليس تسعى دوماً إلى تهدئتي، لكن في الليل، حين أصبح لي أخيراً غرفة خاصة بي للنوم فيها، كنت أرتعد خوفاً لمجرد التفكير في كيفية شرائي الطعام أو العثور على مكان للعيش. كنت أفكر كثيراً لدرجة أني أخلد إلى النوم وأنا مصاب بصداع قوي. فبالنسبة إليّ، بدأ العدّ العكسي فيما أنا لا أزال في الخامس عشرة.

بعد فترة وجيزة من تبدد الصدمة الأساسية، قررت العثور على سبل لجني المال. بدأت بتلميع الأحذية، وجنيت في يومي الأول 21 دولاراً نتيجة تلميع عشرات الأحذية خلال أقل من ست ساعات. شعرت بفخر كبير لدرجة أني أمسكت بعلبة مسح الأحذية وعلبة من الكعك المقلي المحلّى في يد، وباقة من الأزهار لأليس وبعض الكتب الورقية لهارولد في اليد الأخرى. انخرطت سريعاً في مهنة إضافية في متجر لتصليح الساعات، حيث كنت أعمل 20 ساعة أسبوعياً مقابل 10.25 دولار. لم يكن المبلغ المالي مهماً بالنسبة إليّ. ففي نهاية الأسبوع، كنت أنام وأنا أشعر أني حققت شيئاً- وهذا هو المهم بالنسبة إليّ. فيما كان بقية الأولاد يلعبون بالكرة في الشارع أو يتسكّعون في المتاجر، كنت أكفي ذاتي.

وجدت صعوبة كبيرة في العثور على شيء مشترك بيني وبين بقية الأولاد في المدرسة. فقد ناضل معظمهم للتأثير في الآخرين من خلال التصرف ببرودة. أما أنا فعرفت أني لا أصلح في المظهر الخارجي، ولذلك توقفت ببساطة عن المحاولة. في بعض الأحيان، كنت أؤدي دور مهرّج الصف، لكني لم أكترث أبداً برأي رفاقي بي. وكلما تحدثوا عن مشاريعهم للتزلج على الثلج في نهاية الأسبوع، كنت أفكر في كيفية الحصول على ساعة إضافية من العمل.

في يوم جمعة، وقبل بضعة أسابيع من تخرجي من ثانوية باركسايد، كان عدد من الأولاد الأغنياء يتحدثون عن تخرجهم المقبل وعن مشاريع ذهابهم إلى ديزني لاند أو السفر إلى هاواي في مقاعد الدرجة الأولى. لكن بدل الشعور بالأسى على نفسي، هرعت بعد ظهر ذلك اليوم من محطة الباص في اتجاه منزل أليس وطرقت بقوة على الباب الرئيسي. "ما الأمر؟"، قالت أليس.

شربت كوباً من الماء قبل الإجابة. كنت على وشك إتمام السادس عشرة وأنا لا أعرف كيفية تحضير الطعام لنفسي. أكّدت لي أليس أنها ستعلّمني عندما يحين الوقت. لكني أصرّيت. أردت تعلم الطهو الآن. نظرت إليها بطريقة جدّية، علماً أني تعلمت ذلك من السيدة كاتنزي، التي كانت تضع يديها دوماً على وركيها. نجح الأمر. ورغم أن أليس نظفت منزلها للتو استعداداً لحفلة لعب الورق، التي كان يفترض أن تبدأ بعد ساعات قليلة، قررت تعليمي كيفية صنع الفطيرة المحلاّة.

كان قرار أليس سبباً للفوضى. ففي غضون دقائق، فتحت علبتين من خليط الفطائر، وأربعين بيضة وغالونين من الحليب. أصبح كل

إنش مربع من الفرن مغطى بالمزيج الأبيض الكثيف، فيما تلطّخ السقف ببعض الفطائر المتناثرة. بدت الأرضية مثل ساحة معركة، وكلما حاولنا أنا وأليس عبورها، كنا نختنق تقريباً من غيوم المسحوق الأبيض. كان الإجهاد واضحاً تماماً على وجهها، لكنها ضحكت معي – ولم أستسلم قبل إعداد الفطيرة المثالية.

بدا كل يوم أنه يخبئ مغامرة جديدة. فبعد انتهاء المدرسة، كنت ألعب أحياناً في أرضية غرفة الجلوس بمكعبات "الليغو" أو مجموعة "إريكتور"، فيما أتصرف أحياناً أخرى مثل الرجل الصغير الكبير، إذ أعود إلى منزل أليس بعد المدرسة لمجرّد تبديل ثيابي قبل الانطلاق للعمل في إحدى وظائفي. كنت أعيش للمرة الأولى حياة حقيقية.

في تموز (يوليو) 1976، أخذت حياتي منحى آخر. تعبت من الركوب على دراجتي للذهاب إلى العمل في كل صباح فيما الجميع لا يزال نائماً. وبعد ظهر أحد الأيام، بعد قضاء يوم منهك في العمل، عدت إلى المنزل لأجد أن ولدين ربيبين، وليس ولداً واحداً، جاءا للعيش معنا. شعرت بنفور فوري تجاه أحد الولدين، بروس، إذ توجب عليّ مشاركة الغرفة معه ولأني علمت أنه نجح في استمالة أليس. رغم أن الولدين كانا في السابع عشرة، لم يكشفا عن أي اهتمام في كيفية إعالة نفسيهما. بدأت أشعر بالاستياء منهما. فكلما ذهبت إلى العمل على دراجتي، كانا يقضيان النهار مع أليس في المتجر. شعرت نوعاً ما بالخطر والغيظ نتيجة وجودهما. عرفت أن أوقات طفولتي مع أليس انتهت لكني أردت التشبث بها لبعض الوقت الإضافي قبل أن أكبر.

وبعد أسابيع قليلة، اكتشفت أن أموالي المدّخرة وبعض الأشياء التي اشتريتها من تعبي اختفت فجأة. ظننت في البداية أني أخطأت في ترتيب أشيائي، لكني لم أستطع التحمل في أحد الأيام، من دون أي سبب خاص. ذهبت إلى أليس وطلبت منها أن يرحل الولدان وإلا أرحل أنا. عرفت أني بدوت مثل طفل مدلّل، لكني لم أعد أستطيع تحمّل فكرة تخبئة أشيائي على الدوام، متسائلاً في العمل كيفية التعويض عن المال المسروق. فكل ما عملت له بجدّ وبطء اختفى فجأة. أملت أن تستجيب أليس لطلبي، لكني وجدت نفسي سريعاً أوضّب أشيائي. شعرت أني أحمق كبير لأني أغادر آل تورنبوغ. لكنها كانت مسألة شرف بالنسبة إليّ. فإذا قلت شيئاً ما، يجب أن أكون مسؤولاً عن كلمتي.

بقيت في الإصلاحية لبضعة أسابيع إلى أن وضعتني المسؤولة الجديدة عن مراقبتي، السيدة أوريان، مع جون وليندا والش، وهما ثنائي شاب في العشرينات، لهما ثلاثة أولاد. امتاز جون بشعره الأسود الطويل وكان يعزف على البيانو في فرقة روك إند رول. أما ليندا فكانت مستشارة تجميل في متجر والغريينز المحلي. كانا طيبين جداً، وتفاجأت كثيراً بموقفهما السعيد والخالي من الهم. سمحا لي بالتصرف حسب مشيئتي. وحين أردت شراء دراجة صغيرة، قال جون نعم. وفي أحد الأيام، حين سألت جون بخجل ما إذا كان يستطيع اصطحابي إلى متجر اللوازم الرياضية المحلي لأشتري مسدس "بي بي"، أجاب: "هيا بنا". كنت مذهولاً. لم أفكر يوماً في طرح مثل هذا السؤال على السيد أو السيدة تورنبوغ، لكن جون لم يتردد لبرهة. كان شرطه الوحيد أن

يعلمني استعمال المسدس بأمان، وأني أستطيع التصويب فقط على أهداف ورقية تحت إشرافه. نسيت بسرعة أمر البحث عن وظيفة أخرى واتخذت موقف آل والش المتساهل.

بعد أسابيع قليلة من بداية سنتي الأولى في المرحلة الثانوية، أخبرني جون وليندا أنهما على وشك تغيير المنزل. من دون تفكير، ركضت إلى الغرفة التي تشاركتها مع ابنهما البالغ من العمر سنتين ووضبت كل ما أملكه في كيس وسادة. كنت شاحباً. بدا لي أنه كلما تكيّفت مع بيئة جديدة، يحدث شيء ما. أدركت ان جون وليندا يتشاجران طوال الوقت، لكني اعتدت على ذلك وكذلك على الاعتناء بأولادهم المدللين. حملت أشيائي فوق كتفي ودخلت إلى غرفة الجلوس. "حسناً"، سألتهم. "فلنذهب! خذني إلى الإصلاحية!".

نظر جون وليندا إلى بعضهما البعض وضحكا. "لا، يارجل"، قال جون فيما لوّح بيده أمام وجهه. "قلت إننا سننتقل وسوف تأتي معنا. هذا، إن لم يكن لديك مانع؟"

شعرت بالغيظ من نفسي. وقفت أمامهما أتصبب عرقاً لبضعة دقائق، إلى أن ابتسمت وقلت: "لا أعرف لماذا تضحكان، لكني وضّبت أشيائي! ماذا عنكما؟"

وخزت ليندا جون في بطنه. "ولد ذكي".

في اليوم التالي، وقفت في الجهة الخلفية لسيارة فان كبيرة فيما أخذني جون إلى حدود المقاطعة. وحين توقف أخيراً، نزلت من العربة. لم أصدق ما رأيته. بدا وكأننا انتقلنا أنا وآل والش إلى منطقة بالغة الثراء. حدّقت في كامل المحيط. كان العشب مجزوزاً

بطريقة مثالية، وبدت المنازل النظيفة أشبه بفنادق مصغّرة أكثر من منازل عادية. وكانت كل سيارة متوقفة في كاراجها، وتتألق بلمعانها، كما لو جرى صقلها للتو. في نزلت إلى أسفل دوينسمور درايف، تنشقت الرائحة الحلوة للأزهار واستطعت سماع صوت الهواء وهو يعبر شجرة صفصاف عملاقة.

هززت رأسي وابتسمت في داخلي. "نعم!"، صرخت "أستطيع العيش هنا!"

عقدت صداقات بلمح البصر مع بول برازيل ودايف هوارد، وهما مراهقان من الجوار أعجبا كثيراً بدراجتي السوداء ومسدسي الصغير. بدت عيونهم توّاقة إلى المغامرة. وكنت سعيداً جداً بإشباع رغباتهما. اكتشفت أن بول يملك دراجة أيضاً وأصبحنا نحن الثلاثة نجري سباقات وسط الشارع المفتقد إلى الحياة. كان بول يفوز على الدوام لثلاثة أسباب: كانت دراجته أقوى من دراجتي، ووزنه أقل من وزني، وعنده فرامل تتيح له إيطاء سرعته بعد فترة مني.

ربحت سباقاً واحداً فقط بين مئات السباقات التي أجريت. في ذلك اليوم، تعطّل الصمام الخانق. لم أقلق لأني كنت أملك مفتاح توقف- لكني اكتشفت فوراً أنه لا يوقف عمل المحرك. وبما أني لم أكن أملك أية مكابح، حاولت إيطاء الدراجة بجرّ قدميّ. حين فعلت ذلك، انزلقت قدماي وعلق أسفل قميصي في العجلة الخلفية المسننة. وخلال برهة، أصبحت يدي على الصمام الخانق فيما بقية جسمي على الأرض بحيث أصبحت في النهاية مجروراً وسط الشارع. شعرت بخوف كبير. أفلتت أخيراً قبضتي، وبعد أقل من ثانية، قفزت

دراجتي إلى جانب الطريق وحلّقت في الهواء لتحطّ فوق أجمة.

مباشرة أمامي، ارتطم دايف بالأرض وهو يضحك بكل قواه. وبعد لحظات، ظهر بول. كانت عيناه كبيرتين بقدر النقود المعدنية. "يارجل، كان هذا رائعاً فعلاً! هل تستطيع فعل ذلك مجدداً؟". وفيما كنت أحاول النهوض، شاهدت بعض الجيران يحدّقون في اتجاهنا. بدوا مهتمين بالضرر الذي لحق بالأجمة أكثر من حالتي الطبية. حاولت نسيان نظراتهم غير الودودة، وكبحت الألم ومنحت بول أفضل ابتسامة لديّ. منذ تلك اللحظة، أصبحت "سيد الألعاب البهلوانية في دوينسمور".

في ذلك المساء، خططنا نحن الثلاثة لمغامرتنا التالية. كان أهل بول يملكون كاميرا بعيار 16 مم، ولذلك قرر بول إعداد فيلم على طريقة جايمس بوند على أن أكون أنا البطل الرئيسي. وتمثلت ذروة الفيلم في جعل الدكتور سترانج، الذي يؤدي دوره دايف، يطارد بوند صعوداً ونزولاً في الشارع فيما يتولى بول التصوير من كل الزوايا. أخبرت بول أني غير واثق من العمل المثير، فيما تحمس دايف كثيراً للفكرة، مدعياً أنه لا يبالي إذا شاهد ركبتيّ تتحولان إلى همبرغر. عمل دايف أيضاً بمثابة منسق أعمالي، إذ حرص على إبقاء الشارع خالياً ممن هم دون العشرة أعوام وجهّز مجموعة من اللصائق الطبية في حال الحاجة إليها. شكرت الله في اليوم التالي حين نفدت كاميرا بول من الفيلم – قبل ذروة تحدي الموت.

في أحد الأيام، ساعدني بول على اللقاء بفتاة من الجوار. لم أتحدث إلى أية فتاة قبلاً، لكن بول أقرضني أفضل قميص عنده وعلّمني ما يجدر بي قوله. في تلك المرحلة من حياتي، لم أكن أنظر كثيراً إلى

نفسي في المرآة، فماذا بالتالي عن الثقة للتحدث إلى فتاة. بعد تمشيط شعري، وسماع المزيد من النصائح، ونفاد كل الأعذار مني، سمحت لبول بإخراجي من منزله لأسير في دوينسمور. وحين انعطفت حول الزاوية، شعرت أني إنسان عادي. كنت أعيش في محيط مثالي، ويسمح لي أهلي بالتربية فعل ما أريده، ولم أكن بحاجة إلى العمل، والأهم من ذلك أن حياتي كانت متمركزة حول أفضل الأصدقاء في العالم أجمع.

بعد دقائق قليلة، طرقت على الباب الأمامي وانتظرت. ارتعدت يداي وشعرت ببعض الدوار، فيما بدأ العرق يخرج من كل مسام جسمي. شعرت بإثارة كبيرة للتحدث عن خوف بسيط. كنت في الواقع مذعوراً. بدأت أفرك يديّ حين فتح الباب. ظننت أن فمي سيقع على الأرض. شعرت بالوخز في كل أنحاء جسمي فيما أنا أحدق في أجمل فتاة شاهدتها في حياتي. ومن دون أن تعرف الفتاة، استعدت رباطة جأشي فيما بدأت تتكلم. وكلما تحدثت الفتاة أكثر، شعرت بثقة أكبر في نفسي. لم أصدق كما كان سهلاً عليّ جعل الفتاة تضحك. كنت أستمتع بنفسي– إلى أن جاءت أم الفتاة ودفعتها جانباً.

احتاجت عيناي إلى لحظة لتعديل الرؤية. وحين فعلتا ذلك، شاهدت امرأة تبدو شبيهة بالسيدة المتعجرفة وليس بالأم. وضعت المرأة بسرعة إصبعها أمام وجهي. "أنت أيها الولد... أيها الولد الربيب، أليس كذلك؟"، صرخت بصوت عالٍ فيما البسمة المتكلّفة تعلو وجهها.

كنت مذهولاً جداً للإجابة عليها.

ألا تحترم الكبار؟ أجبني أيها الولد!"

"سيدتي؟"، قلت وأنا أهزّ برأسي.

"أصغِ إليّ"، قالت المرأة بعنف، "أعرف كل شيء عنك وعن... تلك الدراجات التي تصدر ذلك الضجيج المزعج وتدمّر قصداً ملكية الآخرين. كيف توافق الجمعية على.... عيش هذا النوع من الأشخاص في جوارنا. أعرف كل شيء عن جنسكم. أنت سفّاح وسارق صغير! أنظر إلى ملابسك- إنها مكسوة بغبار الطريق. لا أعرف ماذا تفعلون أيها الأولاد حتى تصبحوا... أولاداً أرباب"، قالت وهي تغطي فمها كما لو أنها لفظت للتو شتيمة. "لكني متأكدة انك فعلت شيئاً معيباً، أليس كذلك؟". أصبح وجه المرأة أحمر جداً لدرجة ظننته أنه سينفجر. "لا تجرؤ وتقترب من منزلي أو تتحدث مع أولادي، أبداً!"

وقفت مسمّراً فيما ظفر المرأة المطلي بالأحمر موجه نحو وجهي.

"وإليك هذه النصيحة"، تابعت المرأة. "لا تضيّع وقتك في المحاولة. أنت لا تملك المقوّمات اللازمة. أنا أعلم! صدقني. أنا أسدي لك خدمة في الحقيقة!" ابتسمت فيما كانت تقلب شعرها إلى الجانب الآخر من وجهها. "سوف ترى! *أنا* إنسانة منفتحة جداً تعرف أمراً أو أمرين. وكلما تعلمت بسرعة أنك *ولد ربيب*، كان ذلك أفضل بالنسبة إليك! لذا، إكتفِ بأبناء جنسك!"

وقبل أن أستطيع الإجابة، أغلقت الباب الرئيسي بغضب شديد لدرجة أني شعرت بنفحة هواء ترتطم بوجهي. وقفت مصعوقاً أمام الباب. لم أعرف ما الذي يجدر بي فعله. شعرت أن طولي إنش واحد فقط. حدّقت في أكمام القميص القطني الأحمر والأسود الذي أعطاني إياه بول. كانا قصيرين نوعاً ما، لكني ظننت أن القميص جميل. مرّرت يدي في شعري الزيتي. *أظن أني أستطيع استعمال*

الحمام، تمتمت لنفسي. عرفت أني كنت من حيث المظهر الخارجي وحشاً متنقلاً، لكني شعرت في داخلي بتحسن أكثر من أي وقت مضى. حاولت بشدّة إنجاز الأمور التي يستخف بها الأولاد العاديون. أردت فقط أن أكون مثل ولد عادي.

بعد دقائق، فيما بقي رأسي محنياً إلى الأسفل، مررت أمام بول الذي رقص حولي وراح يطرح عليّ أسئلة بشأن لقائي مع الفتاة. لوّحت بيدي لصديقي واختبأت في غرفتي لبقية اليوم.

بعد ظهر اليوم التالي، فيما كنت أصلح بغير براعة دراجتي الصغيرة، جاء إليّ رجل طويل وهو يحمل علبة بيرة في يد وعربة أطفال في اليد الأخرى. "إذاً، أنت الخطر المحدق بالجوار؟" قال بابتسامة متكتمة. أبقيت رأسي محنياً نحو الأسفل فيما شعرت أن حرارة جسمي بدأت ترتفع. وقبل أن أستطيع فتح فمي، كان الرجل قد اختفى.

بعد نصف ساعة تقريباً، عاد الرجل للظهور في الاتجاه المعاكس. انتظرت سماع تحقير آخر، لكني كنت مستعداً هذه المرة للإجابة بعنف. وجّه إليّ ابتسامة عريضة قبل القول: "احسنت أيها الصبي! تابع!"

هززت رأسي، ظناً مني أن أذنيّ مسدودتان. *أحسنت فعلاً! تابع! تابع ماذا!*؟ سألت نفسي.

نهضت ومسحت بقعة زيت سوداء عن قيمصي الأبيض الوسخ فيما راقبت الرجل وهو يتابع طريقه نحو الباب التالي. أومأ إليّ مرة أخرى قبل أن يختفي في الكاراج. كنت مذهولاً جداً لدرجة أني جلست على العشب مفكراً في ما قصده ذلك الرجل المجنون. بدا معتوهاً، لكنه يملك طريقته مع الكلمات.

بعد ظهر اليوم التالي، وفي الوقت نفسه، عاد الرجل للظهور في الثياب نفسها: سروال قصير أبيض يكشف عن ركبتين عظميتين بلون الرماد الأبيض وقميص قطني ضيق كتب عليه "فادباكرز: نحن نطير منذ أن أصبح العالم مربعاً"، وقبعة بايسبول مع ريش فضي مدبّس في وسطها، وسيجارة متدلية من شفته السفلية. كان يحمل أيضاً قنينة بيرة في يد وعربة أطفال في يده الأخرى. توقف أمامي وغمزني بعينه. "أنت لست مجوقلاً، لكن لا تقلق. أصبر، فلكل كلب يومه"، ثم تابع طريقه.

كررت هذه الرسالة مراراً وتكراراً للعثور على معنى "لكل كلب يومه". ومثل عقارب الساعة، عاد الرجل بعد 30 دقيقة. نهضت وانتظرت سماع كلماته الفصيحة. "إعلم هذا"، قال الرجل بانحناءة، "ثمة ربح على الدوام في فوضى المجموعة".

"هاي، سيدي..."، قلت قبل أن أستطيع التفكير.

أدار الرجل رأسه بسرعة مثل البلبل. "هل ناديتني؟"

بقي فمي مفتوحاً. لم أعرف بماذا أجيب. شعرت أني مخنوق. أحنى رأسه. "إذا استطعت غسل يديك وتغيير ملابسك، يمكنك الانضمام إلى مسكني المتواضع".

بلمح البصر، ركضت إلى منزل آل والش، وفركت يديَّ وذراعيَّ، فانتشرت الأوساخ في مغسلة الحمام، ثم غيّرت قميصي قبل الدخول بسرعة عبر باب منزل الرجل. وقبل أن أستطيع إبلاغه بحضوري، أمسكت يد عملاقة بصدري. فقدت أنفاسي وظننت أن صدري سينهار. نظر إليَّ الرجل وابتسم. "فلنجرّب مجدداً، أليس

كذلك؟"، قال وهو يقودني خارج الباب الرئيسي ويغلقه في وجهي.

عبست في قرارة نفسي. "ياللفظاظة!" قلت بصوت عالٍ. ظننت لبرهة أني طُردت مثلما فعلت بي تلك السيدة المتعجرفة. كنت على وشك الرحيل حين سمعت صوتاً مكبوتاً خلف الباب يقول: "أطرقَ على الباب".

أغلقت عينيَّ فيما طرقت أصابعي على الباب الرئيسي. وبعد برهةٍ، فُتح الباب وانحنى الرجل عند الخصر ملوّحاً بذراعه سامحاً لي بالدخول. ابتسم لي وهو يعرّفني عن نفسه: "مايكل مارش: القيّم على الإيمان، جندي الثروة ووحش جادة دوينسمور".

هكذا، بدأت أول زيارة من زياراتي العديدة إلى "مزرعة مارش". وبعد أيام قليلة، التقيت بزوجة مارش، ساندرا، التي كانت هادئة وخجولة مقارنة مع زوجها. أحببت بسرعة ولديهما، وليام وإريك. فمشاهدة الصغير إريك وهو يدبّ على الأرض ويزحف في أرجاء المنزل تذكرني بأخي كيفين حين كان في هذا العمر.

عاملني آل مارش مثل إنسان حقيقي. ورغم أن آل مارش كانوا يتجادلون كثيراً، بقي منزلهم ملاذي الآمن. وفي الأوقات التي كنت لا أعبث فيها مع بول ودايف، كنت أمضي مئات الساعات جالساً في زاوية "قاعة المعارف" الشهيرة في منزل مايكل وأنا أقرأ كتباً عن الأفلام، وسيارات السباق والطائرات. فمنذ أن كنت سجيناً في منزل أمي، أصبحت مفتوناً بالطائرات. وفي المرات العديدة التي جلست خلالها على متن يديَّ في أسفل الكاراج البارد، كنت أهرب من خلال تصوّر نفسي أني سوبرمان. أردت دوماً الطيران.

ورغم أنه لم يُسمح لي بأخذ أي من كتب آل مارش إلى منزل آل والش، كنت أختلس كتاباً في بعض الأحيان، وأمضي الليل بأكمله وأنا أقرأ المغامرات الحقيقية لطياري الحرب العالمية الثانية أو كيفية تطوير طائرة متخصصة مثل لوكهيد إس إر 71 بلاكبيرد. فتحت لي مكتبة مايكل عالماً جديداً بالكامل. وللمرة الأولى في حياتي، بدأت أتساءل عن معنى التحليق في طائرة حقيقية. ربما، في أحد هذه الأيام....

كان والد بول، السيد دون برازيل، المصلح الطيب. كان تأثيره فيّ مماثلاً لتأثير السيد مارش. في البداية، كان السيد برازيل حذراً جداً مني، لكنه اعتاد في النهاية على وقوفي بقربه أراقب كل حركة من حركاته. في بعض الأحيان، كنا أنا وبول ودايف ندخل إلى كاراج السيد برازيل ونحدّق في المشاريع التي يبتكرها من لاشيء. فكلما غادر الكاراج لبضعة دقائق، كان بول يدخل متباهياً فيما نتبعه أنا ودايف حذرين خشية الدوس على قطعة معدنية أو أداة مهمة. لكن ما إن يفتح الباب، كنا نحن الثلاثة نهرب من الكاراج قبل أن يكتشف أمرنا دان. علمنا أن الكاراج هو ميدان خاص حيث يجتمع دان ومايكل وعدد من الرجال الآخرين لإجراء اجتماعاتهم اليومية.

في بعض الأحيان، وأثناء الاجتماعات اليومية، كان بعض رجال الجوار يقطّبون وجوههم نحوي ويتذمرون خشية "تقهقر قيمة العقارات في المنطقة المحلية". كان السيد مارش يهبّ دوماً لإنقاذي. "تراجعوا إيها الشباب"، حذرهم مايكل في أحد الأيام. "لديّ مشاريع لحارسي الشاب. أتوقع أن يصبح السيد بيلزر تشاك يغر أو تشارلز مانسون التالي. وكما تلاحظون، ما زلت أعمل على التفاصيل".

ابتسمت عند سماع الإطراء. "نعم"، أومأت برأسي متحدياً، "تشارلز مانسون! ". شعرت أني أخرق لأني لم أذكر أن تشارلز مانسون كان طياراً حربياً شهيراً.

كانت أوقاتي في دوينسمور الأفضل في مرحلة المراهقة. وفي الليل، بعد قراءة أحد كتب السيد مارش "المستعارة"، كنت أخلد إلى النوم وأنا أتنشق رائحة الأزهار الآتية مع نسيم خارجي عليل. وقد حمل كل يوم بعد المدرسة مغامرة جديدة، تنتظرنا أنا وصديقيّ لاكتشافها.

لم تكن إقامتي عند آل والش جيدة جداً. فالنقاشات الحادة كانت تحدث يومياً، وفي بعض الأحيان، كانا يخرجان كلاهما من المنزل تاركين لي أولادهما حتى أرعاهم. كنت أحاول أحياناً تحديد وقت الشجارات، بحيث ما إن يباشر جون وليندا بضرب بعضهما البعض، أمسك بالولد الصغير وأطلب من الولدين الآخرين اللحاق بي إلى الخارج حتى تهدأ الأمور.

وبقدر ما أحببت دوينسمور، أدركت أني لا أستطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو. شعرت أنه يجدر بي فعل شيء ما. وأخيراً، بعد نقاش حاد، اتصلت بالسيدة أوريان، المسؤولة عن مراقبتي، وتوسّلت إليها نقلي، حتى لو اضطرت لإعادتي إلى الإصلاحية. بدت السيدة أوريان راضية عن قراري وظننت أنها تستطيع إقناع آل تورنبوغ بعودتي إليهم.

كان الرحيل عن دوينسمور أحد أصعب القرارات التي توجب عليّ اتخاذها. ففي غضون أشهر، منحتني دوينسمور الكثير من الأمور.

أصريّت ألا أقول وداعاً. كنا أنا وبول ودايف نشعر بالاختناق، لكنن أخفينا مشاعرنا وراء عمرنا. وفي اللحظة الأخيرة، عانقني دايف بقوة. حيّاني السيد برازيل فيما هو يمسك بمفتاح ربط، فيما أهداني السيد مارش كتاباً عن الطائرات- الكتاب نفسه الذي أخذته من منزله عشرات المرات. "بهذه الطريقة، لن تضطر إلى التسلل إلى منزلي... أيها الشقي". أعطاني أيضاً بطاقة بريدية تحمل توقيع خطوط دلتا للطيران. دوّن على هذه البطاقة عنوانه ورقم هاتفه. "فلنبق على اتصال أيها الصديق"، قال مايكل فيما شعرت أني على وشك تفجير عواطفي. "في الليل أو في النهار، أنا وساندار مستعدان لمساعدتك. كن قوياً أيها المجوقل! تابع!"

قبل الصعود إلى سيارة هارولد تورنبوغ القديمة، تلك الشيفي الزرقاء والبيضاء، نظفت حنجرتي بالتنحنح وقلت من ثم بصوت شبيه بصوت مايكل مارش، "الدموع ممنوعة. لا تخف.... لأني... سأعود". وفيما ابتعدنا أنا والسيد تورنبوغ عن جادة دوينسمور، شاهدت تلك السيدة المتعجرفة تقف على شرفتها الأنيقة فيما تشبك ذراعيها فوق صدرها. وجّهت لي ابتسامة ساخرة. ابتسمت لها أيضاً قبل الصراخ: "أحبك أنا أيضاً!"

بعد ساعة تقريباً، دخلت عبر الباب الرئيسي لمنزل أليس تورندبوغ. وبعد عناق طويل، دفعتني بعيداً. "إنها المرة الأخيرة"، حذرتني. "أنطق الآن أو إحتفظ بصمتك إلى الأبد".

أومأت برأسي قبل الإجابة: "أعرف إلى أين أنتمي: 5552647!"

الفصل

10

الانفصال

في منتصف سنتي الأولى من المرحلة الثانوية، شعرت بالحرمان والضجر. فبما أني تنقّلت كثيراً ولم أمكث في مدرسة واحدة أكثر من بضعة أشهر متتالية، تم وضعي في صف التلامذة البطيئين. رفضت الفكرة في البداية إلى أن اكتشفت فعلاً أنه يمكن توقع القليل مني. تخليت حينها عن كل دراساتي الأكاديمية وأدركت أن مستقبلي يكمن خارج جدران المدرسة. كنت أعمل أكثر من 48 ساعة أسبوعياً في مهن مختلفة، وأدركت جيداً أنه ما من شيء تعلمته في الثانوية يمكن استعماله في العالم الحقيقي.

كان توقي للعمل مدعوماً بكوني بلغت السابعة عشر ولا يزال أمامي أقل من عام في التربية البديلة. لذا، كنت أهرب في الساعة السادسة من المدرسة إلى منزل أليس، فأغير ملابسي، وأركض مجدداً للوصول إلى إحدى وظائفي في مطعم للوجبات السريعة أو في معمل البلاستيك، حيث كنت أعمل حتى الواحدة أو الثانية فجراً. أدركت أن ساعات العمل الزائدة ونقص النوم يلقيان بعبئهما عليّ. ففي المدرسة، توجّب على الأساتذة نخسي للاستيقاظ حين كنت أبدأ الشخير في الصف. كنت أكره الأولاد الذين يضحكون عليّ. وكان بعضهم يتصرّف بتعجرف وتعالٍ حين يشاهدونني أعمل في المطاعم، فيبدأون بعرض ثيابهم الوامضة أو صديقاتهم الجميلات، وهم يعرفون تماماً أنهم ليسوا

مضطرين أبداً للعمل مثلي للبقاء على قيد الحياة.

في بعض الأحيان كنت أذهب لزيارة أستاذي في اللغة الانكليزية، السيد تابلي، خلال أوقات الفراغ. وبما أنه لم يكن يملك أي صف في ذلك الوقت، كان السيد تابلي يستفيد من وقته لتصحيح الأوراق. كنت ألصق مرفقيّ بمكتبه وأوجّه إليه سيلاً لامتناهياً من الأسئلة بشأن مستقبلي. أدرك السيد تابلي مدى كفاحي الصعب، لكني كنت أخجل جداً من إخباره عن سبب نومي الدائم. كان السيد تابلي يرفع رأسه فوق كومة عمله، ويمرر يده في شعره الرقيق ويعطيني ما يكفيني من النصائح لنهاية الأسبوع- أي دفن نفسي في واجباتي المدرسية.

وبقدر ما كنت أعمل بجدّ خلال الأسبوع، كنت أحاول أخذ فرصة في نهاية الأسبوع، مرة كل أسبوعين، لأستفيد من ذلك وأزور والدي في سان فرانسيسكو. وعلى مرّ السنوات، تركت مئات الرسائل في كل مراكز الإطفائية في المدينة. لكن والدي لم يتصل بي أبداً. وبعد ظهر أحد الأيام، أضعته فيما كان أحد رجال الإطفاء يحاول التهرّب مني. "هل هذا هو المركز الصحيح؟"، سألته. "فقط أخبرني، في أي ساعة يعمل"، قلت له متوسلاً ورافعاً صوتي.

"أوه... يعمل ستيفن في مراكز مختلفة وفي أوقات مختلفة. سوف نوصل إليه الرسالة"، قال رجل الإطفاء قبل أن يقفل الخط.

عرفت أن خطباً ما يجري. حاولت أليس منعي من الهروب من منزلها. "والدي في ورطة"، صرخت بصوت عالٍ.

"دافيد، أنت لا تعرف ذلك!"، صرخت أليس بدورها.

"هذا تماماً ما أعنيه"، أجبتها وأنا أؤشر بإصبعي نحوها. "لقد

سئمت من العيش في الظلام... بين الأسرار المخفية... من العيش في كذبة. ما هو الخطب المحتمل؟ إذا كان والدي في ورطة..."، توقفت لبرهة فيما بدأ خيالي يأخذ استراحة. "عليّ فقط أن أعلم"، قلت وأنا أقبّل أليس على جبينها.

ركبت على دراجتي النارية وتوجهت مسرعاً إلى سان فرانسيسكو. وعلى الطريق، رحت أتسلل بين زحمة السير ولم أبطئ سرعتي إلا حين انحرفت دراجتي إلى الممر المؤدي إلى الشارع 1067- أي إلى مركز الإطفاء نفسه الذي عُيّن والدي فيه منذ كنت طفلاً.

ركنت دراجتي عند المدخل الخلفي للمركز. وفيما كنت أتسلّق الممشى المنحدر، شاهدت وجهاً مألوفاً. ظننت في البداية ان هذا الوجه يخصّ والدي، لكني أدركت أنه ليس هو حين ابتسم. فوالدي لا يبتسم أبداً. "ياإلهي، بنيّ! كم مضى على ذلك؟ لم أشاهدك أيها الفتى منذ.... لا أعرف كم".

صافحت العم لي، شريك والدي وأفضل صديق له. "أين والدي؟"، سألته بصوت حازم.

استدار لي بعيداً. "حسناً... لقد غادر للتو. لقد أنهى للتو ساعات عمله".

"لا سيدي!"، قلت له. عرفت أن العم لي يكذب- فرجال الإطفاء ينهون ساعات عملهم في الصباح، وليس في منتصف بعد الظهر. أخفضت صوتي. "أيها العم لي. لم أشاهد والدي منذ سنوات. أريد أن أعرف".

بدا لي مخنوقاً. مسح دمعة عن زاوية عينه. "لقد بدأنا أنا ووالدك

العمل معاً، أنت تعرف ذلك. أريد أن أقول لك إن والدك كان رجل إطفاء مميزاً.... كانت هناك أوقات ظننت أننا لن ننجح أبداً..."

شعرت بالمصيبة قادمة. بدأت أحشائي تتقبض. بحثت عيناي عن شيء أتشبث به لمنعي من السقوط. ضبطت أعصابي. أومأت برأسي كما لو أني أقول للعم لي إنه يمكن المتابعة وإخباري الحقيقة.

ومضت عينا لي للإشارة إلى أنه فهم. "والدك... لم يعد يعمل في القسم. لقد طُلب من ستيفين-والدك- التقاعد باكراً".

تنهّدت بارتياح فيما أنا أحاول السيطرة على مشاعري. "إنه حيّ إذاً. إنه على ما يرام! أين هو؟" قلت صارخاً.

أخبرني العم لي أن والدي لم يعمل منذ أكثر من عام. وحين نفد منه المال، راح يتنقل من مكان إلى آخر، وخشي العم لي أن يكون والدي نام أحياناً على الطريق. "دافيد، إنه يسرف في الشراب. وهذا يقتله"، قال بصوت ناعم وإنما حازم.

"إذاً، أين هو الآن؟"، قلت له متوسلاً.

"لا أعرف، بنيّ. أراه فقط حين يحتاج إلى بعض النقود". توقف العم لي لبرهة لتنظيف حنجرته بالتنحنح. نظر إليّ بطريقة لم أعهدها قبلاً. "دافيد، لا تكن قاسياً على الرجل العجوز. لم يحظَ أبداً بعائلة حقيقية. كان شاباً يافعاً حين جاء للمرة الأولى إلى هذه المدينة. لقد أحبكم أيها الأولاد، لكن الزواج دمّره. كانت مهنته مهمة بالنسبة إليه. وهي ما دفعه إلى الاستمرار. لقد عاش من أجل المركز. لكن شربه... إنه كل ما يعرفه".

"شكراً لك أيها العم لي"، قلت فيما أنا أصافح يده. "شكراً لعدم

نبذي. أعرف الآن على الأقل ما يجري".

سار معي العم لي وصولاً إلى دراجتي. "يفترض أن أقابل والدك بعد بضعة أيام. يمكنك مساعدته ربما على الخروج من هذه الفوضى".

"نعم"، أجبته. "ربما"

بعد أسبوعين، ركبت في باص غرايهوند وصولاً إلى مقاطعة "ميشون" في سان فرانسيسكو. انتظرت والدي في محطة الباص أكثر من ساعة. شاهدت في الخارج حانة قديمة. عبرت الشارع ووجدت والدي فيها منحنياً فوق طاولة. تمايل رأسي يميناً وشمالاً بحثاً عن المساعدة. لم أصدق كيف يمرّ الناس قرب طاولة والدي من دون أي اهتمام، أو يجلسون عند الحانة ويسرفون في الشرب كما لو أن والدي غير موجود.

أخرجت بطل الطفولة من سباته. بدا أن سعال والدي يوقظه. كانت رائحته نتنة جداً لدرجة أني حبست أنفاسي إلى أن تمكنت من مساعدته للخروج من الحانة. بدا أن الهواء الخارجي نظف رأسه. لكن والدي بدا أسوأ مما تصوّرت تحت أشعة الشمس. لم أنظر عمداً إلى وجهه. أردت تذكر والدي مثلما كان قبلاً- رجل الإطفاء الطويل والقوي المميز بأسنانه البيضاء اللامعة، الذي يعرّض نفسه للخطر لمساعدة رفاقه في الإطفاء أو إنقاذ ولد من منزل محترق.

مشينا أنا ووالدي أمام عدّة أبنية من دون لفظ أية كلمة. عرفت أنه من الأفضل ألا أسأله عن شربه أو عن أسلوب عيشه. لكن تحذير العم لي بشأن القيام بشيء ما، بأي شيء، لمساعدة والدي بقي حياً في عقلي. من دون تفكير، أغلقت عينيّ واستدرت ورفعت يدي

عالياً لإيقافه. "ماذا حدث ياوالدي؟"

توقف والدي وسعل بقوة. كانت يداه ترتعشان فيما هو يحاول إشعال سيجارة. "من الأفضل لك أن تنسى ذلك، أن تنسى كل شيء- أمك، المنزل، كل شيء. لم يحدث ذلك أبداً". مجّ والدي سيجارته بقوة. حاولت النظر في عينيه، لكنه استمرّ في تفادي نظراتي. "إنها أمك. إنها مجنونة... من الأفضل لك أن تنسى كل الأمر"، قال فيما لوّح بيده كما لو أنه يخفي "سرّ العائلة" تحت السجادة للمرة الأخيرة.

"لا، أبي. إنه أنت! أنا قلق بشأنك!". لفح الهواء البارد وجهي. ارتعش جسمي وأغلقت عينيّ. أردت الصراخ على والدي، لكني لم أملك الجرأة لإخباره كم كنت خائفاً عليه. تنازع عقلي بين ما هو صح وما هو ملائم. عرفت من نظرات والدي أن حياته كانت تعنيه وأنه ما من أحد أبداً يشك في سلطة والدي، لكنه كانت جثة تمشي. كانت يداه ترتعشان كل بضعة ثوانٍ وأصبح جفناه مترهلين جداً لدرجة أنه بالكاد يرى. شعرت أني أحمق. لم أرد أبداً أن أجعل والدي مجنوناً، لكني شعرت سريعاً بالغضب. لماذا لم تكن موجوداً من أجلي؟ ألم يكن باستطاعتك الاتصال بي على الأقل؟ ألا تستطيع أن تكون مثل والد عادي، له وظيفة وعائلة، بحيث أستطيع التواجد معك أو الذهاب لصيد السمك؟ لماذا لا يمكن أن تكون طبيعياً؟ راح دماغي يصرخ.

أخذت نفساً عميقاً قبل أن أفتح عينيّ. "أنا آسف. أنت تبقى والدي وأنا أحبك".

تنفس والدي بجهد فيما استدار بعيداً. عرفت أنه سمعني لكنه لم يستطع الإجابة. فقد نجح الإدمان على الشرب والحياة العائلية

المدمّرة في سلبه مشاعره العميقة. أدركت أن والدي كان ميتاً فعلاً. بعد لحظات، تابعنا رحلتنا نحو لا مكان، ونحن نحني رأسينا نحو الأسفل، لا ننظر إلى أحد، ولا حتى إلى أنفسنا.

بعد ساعات، وقبل أن يدفعني والدي إلى الباص، أخذني جانباً. "أريد أن أريك شيئاً"، قال بفخر فيما بحث خلفه وأخرج غطاء جلدياً أسود عليه شعار درع رجل الإطفاء. ابتسم والدي فيما فتح الغطاء وكشف عن شارة فضية لامعة لرجل الإطفاء. "إليك، أمسك بها"، قال فيما يضع الشارة بعناية بين يديّ المفتوحتين.

"م-1522"، قرأت بصوت عالٍ، وأنا أعرف أن الحرف "م" يعني أن والدي كان متقاعداً فعلاً وليس مطروداً مثلما ظننت. أما الأرقام فقد كانت تلك التي منحت لوالدي عند تعيينه للمرة الأولى.

"هذا كل ما أملكه الآن. إنها أحد الأشياء القليلة في حياتي التي أتشبث فيها كثيراً. ما من أحد قادر على إبعادي عنها"، قال باقتناع، وهو يشير إلى جائزته. "سوف تفهم ذلك يوماً ما".

أومأت برأسي. لقد فهمت. لطالما فعلت ذلك. في الماضي، تخيلت والدي مرتدياً بزّته الكحلية الخاصة برجال الإطفاء، متوجهاً إلى المنصة لاستلام شارة الشرف خاصته أمام حشد من الناس الذين يهتفون اسمه، فيما امرأته الجميلة وعائلته تقفان بقربه. حين كنت ولداً، حلمت باليوم الكبير لوالدي.

نظرت الآن إلى عينيه وقلت له: "أنا فعلاً فخور بك ياوالدي" فيما أنا أحدّق في الشارة. "أنا فعلاً كذلك". ومضت عينا والدي لبرهة. واختفى ألمه للحظة من الوقت.

وبعد دقائق قليلة، أوقفني والدي أمام سلّم الباص. تردد. نظرت عيناه إلى الأسفل. "إذهب من هنا"، تمتم. "دافيد، إبتعد قدر ما تستطيع عن هنا. لقد التحق أخوك رونالد بالجيش، وقد أوشكت على بلوغ هذا العمر. إذهب"، قال والدي فيما ربّت على كتفيّ. وفيما استدار، كانت كلماته الأخيرة: "نفذ ما يجدر بك فعله. لا تنتهِ مثلي".

ضغطت بوجهي على نافذة الباص وشاهدت والدي يختفي في المجموعة. أردت القفز ومعانقته، الإمساك بيده أو الجلوس بقربه مثلما كنت أفعل وأنا صغير حين كان يقرأ جريدة المساء- مثل الوالد الذي عرفته قبل عدة سنوات. أردته أن يكون جزءاً من حياتي. أردت والداً. فيما خرج الباص من سان فرانسيسكو، فقدت السيطرة على عواطفي ورحت أبكي في داخلي. أحكمت قبضة معصمي فيما بدأ الضغط الهائل المتراكم في داخلي طوال سنوات بالانفجار. أدركت مدى الحياة المريعة التي عاشها والدي. صلّيت من كل قلبي أن يحميه الله ويبقيه دافئاً في الليل وبعيداً عن الأذى. شعرت بجبل من الذنب يثقل كتفيّ. شعرت بالأسى على كل شيء في حياة والدي.

بعد زيارة العم لي، تخيّلت أني أستطيع ربما شراء منزل في غيرنفيل وجعل والدي يعيش فيه. بهذه الطريقة فقط، أستطيع تخفيف ألمه أو نستطيع إمضاء بعض الوقت معاً مثل والد وابنه. لكني عرفت دوماً أن تخيلاتي هي أوهام وأن الحقيقة هي الحياة. بكيت طوال الطريق في الباص حتى وصلت إلى منزل أليس. عرفت ان والدي كان يموت، وخشيت ألا أراه مجدداً.

بعد أشهر عدّة، وخلال صيف العام 1978، بعد عشرات المقابلات،

عثرت على وظيفة في بيع السيارات. لكن بيع السيارات كان مرهقاً عقلياً. فكبار المدراء يهددون موظفي المبيعات يوماً، ويغرونهم بالحوافز المالية يوماً آخر. كانت المنافسة شرسة، لكني نجحت نوعاً ما في النجاة بنفسي. وإذا حظيت بعطلة في نهاية الأسبوع، كنت أسرع إلى دوينسمور وأنسى أنه يجدر بي التصرف مثل إنسان راشد، فأبحث أنا وبول ودايف عن مغامرة جديدة في السيارة- التي كان يقرضني إياها وكيل السيارات. في إحدى المرات، وبعد مشاهدة فيلم سينمائي، جلسنا نحن الثلاثة في السيارة ووجهنا إلى الأمام، فيما رحت أقود السيارة إلى الخلف في خط مستقيم تماماً من دون النظر خلفي. لكن جرأتنا سببت بعض الفوضى لدى السائقين المرتبكين وتعرضنا نحن الثلاثة لبعض العقاب القانوني. لكني كنت أدرك تماماً أن مغامراتي باتت على وشك الانتهاء حين نضج بول ودايف وبدآ يبحثان عن وظيفة لائقة أيضاً.

سعيت أكثر من أي وقت مضى للحصول على الإرشاد والتوجيه من جادة دوينسمور. في إحدى المرات، ذهب دان إلى منزل أليس لإقناعي بالعدول عن حلمي في التحول إلى ممثل بديل في هوليوود. كان السيد برازيل يمضي ساعات من وقته، فيما ابنه بول بقربه، وهو يخبرني عن مدى جنوني. لطالما كنت معجباً بالسيد دان، وفيما كنت أرافقه هو وبول إلى الخارج بعد التخلي عن فكرتي المعتوهة، أدركت أني كنت أقرب إلى دان مما أنا إلى والدي.

كان آل مارش شديدي العناية. ففي مرات عدّة، ساعدت ساندرا في أعمالها المنزلية وتعلمت في المقابل طرقاً أخرى لأتكل على ذاتي. أوصاني السيد مارش بالالتحاق بالجيش. فكرت فوراً في القوة الجوية،

لكن نظراً لكوني طالباً في الصف الأول من المرحلة الثانوية توجّب عليّ الخضوع لفحص الأهلية ورسبت. أقنعت نفسي أني أستطيع النجاح في العالم الخارجي من دون أية مساعدة مدرسية.

انتهى الصيف وقررت الخروج من الثانوية، لأني كنت على وشك بلوغ الثامنة عشر ويتوجب عليّ جني المال للبقاء على قيد الحياة. كانت أليس شاحبة، لكن مهنتي كمندوب مبيعات وصلت إلى أوجها. فمن أصل 40 موظفاً أو أكثر في قسم المبيعات، كنت أحتلّ دوماً إحدى المراتب الخمس الأولى في البيع. لكن بعد مرور أشهر على عيد ميلادي الثامن عشر، جاء الركود وارتفعت الأسعار وتضاءلت مدّخراتي واصطدمت فجأة بحقيقة توجهي إلى لامكان.

للفرار من مشاكلي، ركبت يوم أحد في سيارتي الماستانغ البرتقالية موديل 65، وتوجهت شمالاً للعثور على النهر الروسي. لم أكن أعرف تماماً كيف أذهب إلى هناك، لكني تبعت حدسي واتكلت على ذاكرتي كولد. وحين أحسست بوصولي إلى المخرج الصحيح، استدرت. عرفت أني أصبحت قريباً حين غطت الأشجار الشاهقة الزجاج الأمامي للسيارة. بدا وكأن قلبي يخرج من مكانه حين ركنت سيارتي أمام المتجر القديم. حدّقت عيناي في الأجنحة نفسها التي تجولت بينها حين كنت ولداً. وعند صندوق المحاسبة، أخرجت من جيب سروالي آخر ما أملك من مال التبذير لشراء قطعة سلامي ورغيف من الخبز الفرنسي. جلست على امتداد رملي خالٍ في شاطئ جونسون ورحت ألتهم طعامي ببطء، وأنا أستمع إلى أصوات النهر الروسي وكشط المعدن الناجم عن سيارة كبيرة تعبر الجسر الضيق الدائم الاخضرار. وجدت نفسي في سلام.

ولكي ألبّي رغبتي في العيش عند النهر الروسي، عرفت أنه يجدر بي أولاً العثور على نفسي. لم أستطع فعل ذلك وأنا لا أزال متشبثاً بماضيّ. توجب عليك الانفصال عنه. فيما كنت أجمع نفاياتي وأمشي بعيداً عن الشاطئ، سطعت الشمس على كتفيّ. شعرت بالدفء في داخلي. لقد اتخذت قراري. استدرت نحو النهر للمرة الأخيرة، وشعرت أني أبكي. لو أردت ذلك، لاستطعت الانتقال للعيش قرب النهر، لكني عرفت أن هذا ليس صواباً. أخذت نفساً عميقاً وتحدثت بصوت خافت لتجديد وعدي القديم. سوف أعود.

بعد أشهر عدّة، وبعد حصولي على شهادتي الثانوية وإتمامي سلسلة من الاختبارات والفحوصات، تطوّعت بكل فخر في القوة الجوية الأميركية. وصل الخبر إلى أمي بطريقة ما، واتصلت بي قبل يوم واحد من توجهي إلى التدريبات الأساسية. لم يكن صوتها صوت تلك الأم الشريرة، وإنما صوت أمي التي عرفتها قبل سنوات. استطعت مشاهدة وجه امي في الطرف الآخر من الهاتف وهي تبكي. قالت إنها كانت تفكر بي طوال الوقت وأنها لم ترد يوماً سوى الأفضل لي. تحدثنا لأكثر من ساعة، ومددت أذنيّ جيداً على أمل سماع الكلمات الثلاث الأكثر أهمية التي أردت أن تقولها لي أمي طوال حياتي.

وقفت أليس بجانبي فيما رحت أبكي على الهاتف. أردت أن أكون مع أمي. أردت مشاهدة وجهها على أمل سماع تلك الكلمات الثلاث. أدركت أني غبي، لكني شعرت أنه يجدر بي المحاولة على الأقل. استجمعت كل قوى أليس لإقناعي بعدم زيارة أمي. لكني عرفت في قرارة نفسي أن أمي كانت تتلاعب بعواطفي. فطوال

أكثر من 18 عاماً، أردت شيئاً عرفت أني لن أتلقاه أبداً- ألا وهو حبّ أمي. من دون لفظ أية كلمة، فتحت أليس ذراعيها. وفيما هي تعانقني، أدركت فجأة أن بحثي الطويل عن الحب والقبول وجد سبيله أخيراً بين ذراعيّ أم بالرعاية.

في اليوم التالي، وقفت منتصباً فيما أنظر في عينيّ هارولد الزرقاوين. "كن جيداً يابنيّ"، قال.

"سوف أفعل ذلك سيدي. إنتبه جيداً. سأجعلك فخوراً بي".

وقفت أليس بالقرب من زوجها. "أنت تعرف من أنت. لطالما عرفت ذلك"، قالت فيما مدّت يدها وأعطتني مفتاحاً أصفر لامعاً. "إنه منزلك. لطالما كان كذلك وسوف يبقى دوماً منزلك".

وضعت في جيبي مفتاح منزلي. وبعد تقبيل أليس، أمي، ومصافحة هاورلد، والدي، فتحت فمي لأقول شيئاً ملائماً. لكن هذه اللحظة لم تكن بحاجة إلى أية كلمات، لأننا علمنا جميعاً ما نشعر به- إنه حب العائلة.

بعد ساعات، فيما كانت طائرة البوينغ 727 تبتعد عن كاليفورنيا، أغلقت عينيّ للمرة الأخيرة كولد تائه. تخيّلت الرقيب مايكل مارش، واقفاً بكل فخر، وعيناه تحدقان في السماء فيما يقول: "حسناً، أيها الطيّار بيلزر، هل من آراء؟"

"حسناً"، أجبته. "أنا خائف قليلاً، لكني أستطيع تحويل ذلك لصالحي. لديّ خطة ممتازة. أنا أركز عليها وسوف أحققها".

ألقى مرشدي نظرة خاطفة عليّ وابتسم. "أحسنت أيها الرجل. تابع طريقك".

فيما كنت على متن أول رحلة جوية لي، فتحت عينيّ للمرة الأولى كرجل اسمه دايف. ابتسمت في قرارة نفسي. "لقد بدأت الآن المغامرة!".

خاتمة

ديسمبر 1993، مقاطعة سونوما، كاليفورنيا- أنا وحيد. أشعر في الخارج ببرد شديد لدرجة أن جسمي يرتعش بأكمله. أصيبت أطراف أصابعي بالخدر لبعض الوقت. وفيما أنا أزفر، خرجت غشاوة باردة عبر أنفي. استطعت سماع الأصوات الهادرة للغيوم الرمادية وهي ترتطم ببعضها. وبعد لحظات، دوّى الرعد من الهضاب المجاورة. استطعت مشاهدة وابل المطر قادماً.

لا أبالي. أنا أجلس على جذع خشبي قدمي متعفّن أمام شاطئ طويل وخالٍ. أحب التحديق في جمال الأمواج الخضراء الداكنة والقوية التي تلتف حول نفسها قبل الارتطام بالشاطئ. أصبحت نظاراتي مكسوة بغلاف من الرذاذ المالح.

أشعر بالدفء في داخلي. لم أعد خائفاً من أن أكون وحيداً. أحبّ قضاء بعض الوقت لوحدي.

في الأعلى، تطلق طيور النورس أصواتاً حادة وعالية على بعضها فيما هي تقترب من الشاطئ بحثاً عن أي فتات طعام. وبعد لحظات، شاهدت طائر نورس وحيداً وهو يكافح للحفاظ على تحليقه. ورغم أن الطائر صفق كثيراً بجناحيه، بقي عاجزاً عن اللحاق بالسرب أو الحفاظ على علوه. ومن دون أي إنذار، ارتطم طائر

النورس بالرمل. تقلّب الطائر ثم بدأ العرج على ساق واحدة برتقالية. وبعد بحث قصير، عثر طائر النورس على فتات طعام. فجأة، ومن حيث لا أدري، عاد سرب النورس للتحليق فوق الشاطئ ومن ثم الهبوط لسلب الطائر الضعيف طعامه. بدا النورس مدركاً لعجزه عن الطيران، ولذلك وقف على أرضه وراح ينقر بقية الطيور بغضب شديد. بلمح البصر، انتهى الصراع وتوجه سرب الطيور بعيداً بحثاً عن ضحية أسهل.

صاح طائر النورس للسرب المحلق كما لو أنه يخبرها بانتصاره، ثم عاد والتفت إليّ وأطلق صرخة إنذار. وفيما كنت أدرس حركات النورس، تذكرت كيف أن معركته تعكس تحدياتي التي عشتها أثناء تربيتي البديلة. ففي تلك المرحلة، كان أهم شيء بالنسبة إليّ هو أن أكون مقبولاً وأعثر على إجابات لماضيّ. لكن كلما نضجت من الداخل، أدركت أكثر فأكثر أنه يجدر بي شقّ طريقي بنفسي. تعلّمت أيضاً أن أكتفي بعدم العثور على كل الأجوبة لأسئلتي. لكن كما هي حال معظم الأشياء في حياتي، بدا لي أن أجوبتي أتت من دون عناء بعد انضمامي إلى القوة الجوية الأميركية، حيث حققت حلمي بالطيران. فحين بلغت سن الرشد، أصبحت مكتملاً. ومن الأشياء التي حققتها كانت زيارة أمي وسؤالها أهم سؤال في كل حياتي: لماذا؟

لقد جعلني سرّ أمي أحب الحياة التي أعيشها أكثر فأكثر.

جاء الصوت الثاقب لطائر النورس ليفسد نشوتي. كانت يداي ترتعشان أمامي، ولكن ليس نتيجة البرد. مسحت سيل الدموع عن

وجنتيّ. انا لا أبكي على نفسي بقدر ما أبكي على أمي. بدأت أبكي بقوة لدرجة أن جسمي بدأ بالارتعاش. لم أستطع التوقف. بكيت على الأم والأب اللذين لم أعرفهما قط، وعلى عار سرّ العائلة. أصبحت لامبالياً لأني كنت أشك أحياناً في قدرتي على إحداث فرق في حياة الآخرين، وشعرت أني لا أستحق التقدير الذي حظيت به.

بكيت بشدّة لإخراج كل شيء من داخلي.

أغلقت عينيّ وتلوت صلاة سريعة. صلّيت حتى أصبح شخصاً أفضل وأقوى. وفيما بدأت النهوض، امام المحيط الأخضر الداكن، شعرت بالنظافة في داخلي. لقد حان الوقت للانتقال.

بعد القيام بجولة استرخاء في السيارة، فيما نوافذها مفتوحة، والاستماع إلى قصة سرّ بات ميثني، ركنت سيارتي أمام منزلي الثاني- فيلا ريو في مونتي ريو. لوّح لي المالكان، ريك ودون، فيما كانا يستعدان لاستقبال الضيوف القادمين. لا يزال الجمال الهادئ لفيلا ريو يحبس أنفاسي. فطوال أعوام، نجح ريك ودون في جعلي أنا وابني، ستيفن، نشعر بأننا جزء من عائلتهما. فالحصول على الترحاب يعني الكثير بالنسبة إليّ.

فيما كنت أتصارع مع ستيفن مع الأرض، لفّ ذراعيه حول عنقي وسألني: "هل انت على ما يرام؟". رغم أن ستيفن لا يزال مجرّد ولد، فإن حساسيته أكبر كثيراً من عمره. كنت أصاب بالذهول أحياناً لأنه قادر على الإحساس بمشاعري العميقة والداخلية. وبقدر ما هو ولدي، فإن ستيفين هو أحد أقرب الأصدقاء بالنسبة إليّ.

أمضينا نحن الاثنين بقية النهار ونحن نلهو بألعاب بلاستيكية

متعددة الألوان، ونلعب "المونوبولي" مراراً وتكراراً. اكتشفت بسرعة أن سنوات تدريبي في الاستراتيجيات العسكرية لا تتطابق أبداً مع تفكير ولد في السابعة من عمره.

بعد تكبّد الخسارة المريرة مرات عدّة في ألعابنا المشتركة، كنا نتوجه أنا وستيفين إلى النهر الروسي. كانت رائحة الخشب المحترق تمتزج مع العطر الذكي للشجر الأحمر. أصبح النهر الأخضر الضحل شفافاً، لدرجة أن صوت الأمواج الخفيفة وحده كفيل بجعل المياه حقيقية. فيما اختفت الشمس وراء الهضبة، ظهر انعكاس لشجرة الميلاد الوامضة عبر النهر. شاهدنا مجموعة من الضفادع تنزل من الهضاب. من دون أية كلمة، شبكنا أنا وستيفين أيدينا. شعرت باختناق في حنجرتي فيما أحكمنا قبضتنا معاً.

ربّت ستيفن على ساقي. "أنا أحبك ياوالدي. عيد ميلاد سعيد".

قبل أعوام عدّة، شككت فعلاً ما إذا كنت سأبقى على قيد الحياة. في حياتي السابقة، كان لديّ القليل فقط. واليوم، فيما أنا أقف في حياتي المثالية، أملك كل ما يتمنّاه أي شخص- الحياة وحب ابني. أنا وستيفن نشكّل عائلة.